الكتاب: مقارنة الأديان ، الإسلام
المؤلف: الدكتور أحمد الشلبي
الجزء:
الوفاة: معاصر
المجموعة: مصادر عقائد أهل الكتاب وردودها
تحقيق:
الطبعة: الرابعة
سنة الطبع: ١٩٧٣ م
المطبعة: مطبعة السنة المحمدية
الناشر: مكتبة النهضة المصرية – القاهرة
ردمك:
ملاحظات: مقارنة الأديان

مقارنة الأديان (٣)

الإسلام

تأليف الدكتور أحمد شلبي
دكتوراه في الفلسفة من جامعة كمبردج
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة الرابعة (١٩٧٣) مع زيادات واسعة وتنقيحات مهمة
مكتبة النهضة المصرية

الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين
ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير)
(سورة الممتحنة الآية الرابعة)

)٤(

مقدمة الطبعة الثانية والثالثة

يا رب.. لك شكر المدين لك، المعترف بفضلك، الذاكر الذي لا ينسى عونك والشاكر الذي غمرته نعمك.

يا رب... أنت الذي وجهتني لهذه الدراسة، وقدتني وأنا أكافح في خضمها، وبعثت شعاعا من نورك فأنار لي السبيل، فإذا كل غامض يبين، وكل مغلق ينبلج، وكل صعب يهون.

يا رب... لقد سرت في الطريق الذي فتحته لي عنايتك، وكان تأييدك يسير معي، فتخطيت العقبات الجسام، ورأيت جهدي يثمر، وعملي يكبر، فصدر الجزء بعد الجزء من هذه السلسلة، وأقبل الناس عليها إقبالا جعلني أحس بعظم المسؤولية فأواصل الجهد، وأحس بكبير فضلك فأكرر الثناء والاعتراف بالجميل.

يا رب... مزيدا من العون أبذله لإرضائك، ومزيدا من التوفيق يدفعني لأعمق الشكر والثناء.

وهذه الطبعة تزدان بكثير من التحقيقات المهمة، وبكثير من الزيادات، ومن المباهج المرتبطة بها أن أصبح علم " مقارنة الأديان " من أبرز الدراسات بكلية الشريعة بجامعة الأزهر، في تطورها الجديد، وكان من دواعي اغتباطي أن أسند إلى تدريسه، فشهدت إقبال الطلاب على هذا العلم وحرصهم عليه، و قد بدأت هذه السلسة تترجم إلى عدة لغات، ليعم بها النفع.

يا رب... إني أستعرض هذه المنن، فلا أملك إزاءها إلا شكر واهب النعم، وإلا الدعاء أن تظل معنا عنايته وتوفيقه.

١٦ من ديسمبر سنة ١٩٢٦ دكتور أحمد شلبي

أحداث الساعة
والطبعة الرابعة من هذا الكتاب

من المؤسف أن الإسلام والمسلمين في كل مكان يتعرضون لهجوم قاس من الأعداء في هذه الأيام، ومن الحق أن نتذكر أن هذه الهجوم اكتفى بالكلمة في مكان واستعمل القوة في مكان آخر، ولو استطاع أعداء الإسلام أن يستعملوا القوة ضد المسلمين دائما لفعلوا، فالتاريخ يقرر لنا أن المسلمين لم يستطيعوا أن يعيشوا في أمن وطمأنينة في نطاق حكم غير إسلامي، لم ينل مسلمو الأندلس الأمن عندما انتصر الفرنجة، ولم يستطع مسلمو الهند أن يعيشوا في أمن مع النظام الهندوسي، ويتعرض مسلمو الفيليبيين إلى المذابح يقوم بها أعداء الإسلام هناك، وفي مقابل هذا العنت يعيش غير المسلمين في الدول الإسلامية مستمتعين بكل الأمن، بل بالثراء والجاه.

وفي هذا الصراع ندفع بالطبعة الرابعة من هذا الكتاب إلى المجتمع الإسلامي والمجتمع العالمي ليرى الناس صورة الإسلام بما فيه من سمو العقيدة، وعظمة التشريع، وسماحة الخلق، ثم ليروا كيف أن الإسلام يسالم من سالمه ويصارع من صارعه، فذلك وحده هو الضمان لخير الإنسانية، قال تعالى " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله (١) " فالقرآن يأمر بقتال من أثار الفتن، ومن لا يترك الفكر الديني حرا، أو من أراد أن يفرض اتجاها معينا على الناس.

----

(١) سورة البقرة الآية ١٩٣.

واعتقادي أن هذا الكتاب – في هذا الوقت – سلاح يعرف به المسلم دينه ويعرف واجبه، وقوة الدين – عند المسلم – ستحمي الدم والمال والعرض، أما إذا ضعف الدين عند المسلمين فإن دماءهم ستراق، وتتعرض أموالهم وأعراضهم للعدوان، ولعلنا بذلك قد ذكرنا من يحتاج للذكرى.

والله المسؤول أن ينفع بهذا الكتاب، ويجعله وسيلة من وسائل القربى إليه، والتجمع حول دينه الحنيف، إنه سميع مجيب.

دكتور أحمد شلبي

العادي في ٢٢ من يناير سنة ١٩٧٣

مقدمة الطبعة الأولى

أوفدتني جامعة القاهرة والمؤتمر الإسلامي أستاذا للدراسات الإسلامية بجامعة إندونيسيا، ثم أسند إلى منصب " مدير المركز الثقافي المصري بجاكرتا "، ومنذ نزلت الأرض الخضراء (إندونيسيا) في يوليو سنة ١٩٥٥ بدأت أدرس البيئة التي حللت بها لا تعرف مطالبها، وسرعان ما وجدت مشكلتين كبيرتين تتطلبان حلا سريعا، وأدركت أن نجاحي في عملي يتوقف على التغلب عليهما، وهاتان المشكلتان هما:

١ - تعليم اللغة العربية لغير العرب.

٢ - تقديم الإسلام لغير المسلمين.

ويبدو أننا في العالم العربي لم نهتم قط، أو على أحسن الظنون لم نهتم اهتماما كافيا بهاتين المشكلتين، فقد اتجهت عناية المربين إلى تعليم اللغة العربية لأطفالنا العرب في مدارسنا العربية، فظهرت ولا تزال تظهر طرق متعددة لذلك، أما تعليم اللغة العربية لغير العرب فلم ينل من عناية الباحثين ما يستحق الذكر، وكان الطالب من الباكستان أو إندونيسيا أو إفريقية يأتي للقاهرة ليتعلم اللغة العربية، فلا يجد مناصا من أن يلتحق بالأزهر أو بكلية دار العلوم، حيث يجلس من مع الطلبة العرب، ويتعلم معهم ألفية ابن مالك والخضري والسعد في البلاغة وما مائلها، فإذا عاد لبلاده أخذ يعلم اللغة العربية كما تعلمها، فلجأ إلى ألفية ابن مالك وإلى الخضري...، وهيهات أن يجد غير العرب في مثل هذه الكتب ما يشفي الغلة أن يعلم لغة القرآن.

هذا من جهة اللغة العربية، ومن جهة الإسلام فقد وقف الأزهر حيال ذلك منبرا عملاقا، حمل عب ء الثقافة الإسلامية أكثر من ألف عام، ولكن الأزهر كان كما لا يزال حتى الآن موئلا للمسلمين، فليس فيه طالب واحد غير مسلم، وكان المسلم يلتحق به ليتلقى فيه علوم التفسير والحديث والفقه وما مائلها، فاتجاه الأزهر هو تقديم الإسلام للمسلمين، بل قل إنه تخصص في تقديم الإسلام للمسلمين العرب منذ وصد أبوابه في وجه اللغات الأجنبية، ولم يضع أساتذة الأزهر وسيلة لتقديم الإسلام لملايين اللادينيين أو لغير المسلمين من أتباع الديانات الأخرى (١).

ذلك بإيجاز هو الوضع الذي واجهته عندما نزلت إندونيسيا، وكان على أن أضع – بقدر طاقتي – الدواء لهذا الداء، فألفت لتعليم اللغة العربية لغير العرب كتبا لقيت كثيرا من الرواج وأسدت كثيرا من الخير لسكان إندونيسيا العزيزة، واتجهت بكل حولي إلى ديننا الحنيف أبحث وأكتب رجاء أن أقدمه إلى الملايين من سكان الشرق الأقصى عامة وسكان إندونيسيا بصفة خاصة، فقد قابلت – بجانب المسلمين المثقفين هناك – ملايين البشر الذين اعتنقوا الإسلام اعتناقا سطحيا دون أن يتعمقوا فيه، أو وقفوا أمامه مترددين يريدون أن يعرفوه ولا يجدون إليه السبيل، ومن أجل هذا كتبت مجموعة من الكتب في التربية الإسلامية، والحضارة الإسلامية، والتاريخ الإسلامي، والمجتمع الإسلامي وغير هذه من الأبحاث الإسلامية.

———————————

(١) صدر قانون جديد بتطوير الأزهر وجعله جامعة تشمل كل فروع الثقافات، وهو قانون جدير بالتقدير والغبطة، ونحن نرجو صادقين أن يشمل هذا التطوير مباحث الأزهر الرئيسية وهي اللغة العربية والدراسات الإسلامية، فلا شك أن دراسة هذين الموضوعين الكبيرين بالأزهر تحتاج إلى عناية بل قل ثورة تزيل القديم الواهي وتشيد على أثره نظما جديدة تتناسب مع أهمية هذين الموضوعين، ومع المسؤولية الكبرى التي تحملها مصر أمام العالم الذي يتطلع إليها كأعظم مركز ثقافي إسلامي (اقرأ رأي المؤلف في قانون تطوير الأزهر بكتابه " رحلة حياة ")

وكنت في نفس الوقت معنيا بإخراج كتاب " المسيحية " من سلسلة " مقارنة الأديان "، أردت به أن أعرف بالمسيحية الحقيقية، وما أدخلته عليها الأجيال من انحراف، حتى صارت إلى وضعها الحالي، لأوقف بذلك نشاط المبشرين في تلك البقاع، ولما صدر هذا الكتاب " المسيحية " لقى إقبالا رائعا، وأدى مهمته خير أداة، فرغب كثيرون أن أخرج في سلسلة مقارنة الأديان كتابا عن الإسلام، يشمل أهم مباحثه واتجاهاته في تركيز ودقة.

وبدأت أفكر في الموضوع...

وفي خلال التفكير أخذت أقرأ ما كتب عن الإسلام في المراجع التي عنيت بمقارنة الأديان، وهي مراجع قليلة، وأكثرها من وضع الغربيين، ومن أهم ما قرأت في هذا الموضوع:

Religions of the World: Berry

Great Religions of the World: William Paroun

Encyclopaendia of Religions and Ethies

وقد بدا لي من القراءة في هذا الموضع أن أغلب ما دونه الغربيون عن الإسلام مجاف للحق، وأكثره نتيجة لصدأ تراكم على عيونهم فعمى عليهم الإسلام وجعلهم يحقدون عليه، وينسبون له ألوان النقائص، ويتلمسون في مسائله العيوب.

وعدت أبحث في المراجع العربية فوجدتها قليلة أو نادرة، فقد اتجه المسلمون منذ أقدم عصورهم كما قلنا آنفا إلى العناية بالفقه وأصوله، والحديث ومصطلحه، وتفسير القرآن والاتجاهات فيه، والتوحيد والمنطق، وعلوم اللغة، ولم يهتموا اهتماما ملحوظا بكتابة كتاب عن الإسلام يشمل مبادئه وأهم مسائله مع مقارنة بعضها بنظائرها في الأديان الأخرى.

وقد دفعني هذا إلى كتابة كتاب عن الإسلام لعله يسهم مع أمثاله من الكتب التي طرقت هذا الباب في إزالة الصدأ عن العيون، وفي حسن القيادة والتوجيه، فاعتقادي أن هذا الموضوع ينبغي أن يكون في مطلع الدراسات الإسلامية وأساسا من أسسها، ثم تجئ بعده الموضوعات سالفة الذكر عن نظم الإسلام وفقهه وتشريعه.

وبدأت أعمل وكنت أظن أول الأمر أن مباحث هذا الكتاب ستقتبس من كتبي التي أشرت إليها آنفا، ولكن سرعان ما أدركت أن كتابا كهذا لا بد فيه من جديد لم يسبق لي أن كتبته في كتبي السابقة، إذ أن هذه الكتب لم تشمل كل ما يلزم إيراده في كتاب عن " الإسلام " في موضوع مقارنة الأديان، فأخذت أكتب الموضوعات لجديدة كموضوع " الله في التفكير الإسلامي " و " النبوة " و " دعوة في الميزان " و " المرأة " و " الرق وموقف الإسلام منه "... كما بدأت أختصر ما سبق أن كتبته بإفاضة كنظام الحكومة في التفكير الإسلامي وكالنظام الاقتصادي في الإسلام... وجاء هذا الكتاب نتيجة هذا الجهد.

وأشهد لقد حاولت بقوة وثبات أن أجعل هذا البحث علميا لا دينيا، أي أن أجعله غير متأثر بعاطفتي واعتناقي لهذا الدين، وسرت فيه على النحو الذي اتبعته في بحث الأديان التي أتممت بحثها، فكنت أقرأ المراجع الأصيلة وأجمع المادة منها وأعرضها دون تحيز. فإن رأى القارئ ما يظنه مخالفا هذا، أي إن رأى ثناء وتقديرا فليدرك أن الحقائق والمقدمات كثيرا ما تقود إلى الثناء والتقدير، فإذا قلت مثلا أن الإسلام انتشر بين جماعات مختلفة اللون واللغة والثقافة بسرعة فائقة لسهولة مبادئه، فتلك حقيقة من الحقائق التي لم ينكرها أحد، وإذا مجدت القول بوحدانية الله فلان أي باحث عالم لا بد أن يميل

للتوحيد ويحتقر التعدد والأصنام، وهكذا، فلم يكن الطعن قط هدفا لكاتب يحترم قلمه ويحترم نفسه، وفالهدف هو الحقيقة وحدها، فإذا عثر عليها الكاتب أعلنها في سرور وغبطة، وعلق عليها بما تستحقه من ثناء وتأييد، أو من معارضة وتفنيد.

وعلى كل حال فتلك المحاولة – محاولة البحث العلمي دون تحيز – كانت هدفي منذ بدأت العمل حتى أتممته، وأرجو أن تكون هذه المحاولة قد نجحت لأنه قد يشق على الإنسان أن يخلع نفسه من عقيدته، ولكني على كل حال أم أكتب هذا الكتاب للدفاع عن الإسلام، وإنما كتبته بحثا علميا كرفاقه من الأجزاء الأخرى في هذه السلسلة.

وجدير بنا أن نوجه الآن جهدا كبيرا لشرح الإسلام في عهد النور الذي أطل على العالم الإسلامي، وفي عهد الاضطراب الذي تجتازه الإنسانية في الوقت الحاضر، والذي نعتقده أن الإسلام فقط هو الذي يحمل الدواء لما أصاب الإنسانية من مشكلات وآلام، لقد بدأت رسالة محمد – كما سنوضح فيما بعد – وكانت مدنية العالم على وشك التفكك والانحلال، فأنقذتها هذه الرسالة من دمار محقق، والآن، نجد التاريخ يعيد نفسه، فقوى الشر تتحفز للقضاء على الحضارة الإنسانية التي استنفدت ألوانا ضخمة من الجهود لإقامة صرحها، فلنقدم رسالة محمد مرة أخرى لعلها تنقذ العالم الآن كما أنقذته من قبل.

والاقبال على الإسلام في العهد الحاضر يقوي الاعتقاد أن الإسلام دين المستقبل، وهذه حقيقة يدركها كل باحث في انتشار الأديان، فالذي لا شك فيه أن جهود المبشرين بالدين المسيحي أقرب إلى الفشل، إذ أن التكاليف التي يتكلفها

هؤلاء المبشرون باهظة لا تناسب ما يحصلون عليه من نتائج، بيد أن الدين الإسلامي ينتشر ويزدهر دون أن يعرف دعاته، ودون أن تتكتل جهود لخدمته، وقد انتشر الإسلامي في عهد الظلام فما بالك بعهد النور، ومن الواضح أن الإسلام لا ينتشر فقط في آسيا وإفريقية، ولكنه أيضا يشق طريقه في معاقل المسيحية بأوربا وأمريكا.

ويطيب لبعض الناس أن يقتبسوا إحصائيات عن أتباع الديانات المختلفة، ونقلا عن. A. S. The World Almanac U تبدو الديانات الخمسة الكبرى وأتباعها كما يلي:

١ - المسيحيون ٦٨٢٤٠٠٠٠٠

٢ - الكنفوشيوس ٣٥٠٦٠٠٠٠٠

٣ - الهندوس ٢٣٠١٥٠٠٠٠

٤ - المسلمون ٢٠٩١٢٠٠٠٠

٥ - البوذيون ١٥٠٠٠٠٠

وهذه الاحصائية واضحة الخطأ من عدة جهات، ولولا الاتجاه لاحترام الأبحاث العلمية لقلنا إن هذا الخطأ متعمد بالنسبة للإسلام، ولكنا سنحاول أن نصحح هذه الاحصائية معتمدين على باحث أمريكي أيضا حتى لا نتهم بالمبالغة، والمرجع الذي سنعتمد عليه مرجع حديث، هو أطلس التاريخ الإسلامي الذي وضعه Hazard. Hqrry W وفيه يقرر أن المسلمين في العهد الحاضر (عند وضع المؤلف سنة ١٩٥٠) ٣٧٠ مليونا. ومع هذا فلا يزال هذا الرقم أقل بحوالي مائة مليون مما يعتقده الباحثون المسلمون، وعلى كل فإن الرقم

الذي وضعه Harard بناء على الاحصائيات التي جمعها يجعل الإسلام ثاني الديانات في العالم (بعد المسيحية).
ولكن الحقيقة التي يعترف بها المسيحيون أنفسهم أن المسلمين أكثر جدا من المسيحيين تمسكا بدينهم واحتراما له، وله أخرجنا من أتباع الديانات العالمية كل الذين ينسبون إلى الأديان دون أن يحترموها أو ينفذوا طقوسها، لتهاوت هذه الملايين التي تذكر أمام المسيحية أو الهندوكية أو الكنفوشية أو البوذية، ولم يبق إلا الإسلام يحمل رقما فريدا بين أتباع الديانات المختلفة.
لهذه الحقائق أيضا اتجهت لأن أكتب كتابا عن الإسلام، أخدم به ديني وأخدم البشرية كلها، وكتابة كتاب عن الإسلام في موضوع مقارنة الأديان تختلف عن كتابة كتاب عن المسيحية في الموضوع نفسه، ذلك لأن المسيحيين شغلوا أنفسهم بموضوعات غريبة استنفدت كل جهد الباحثين، حتى بدت المسيحية كلها كأنها بحث عن ألوهية المسيح، وعن الكتاب المقدس وما حوله من آراء، وعن الخطيئة الأولى وصلب المسيح للتكفير عن هذه الخطيئة.
ولكن كان الإسلام على النقيض من ذلك، فالله وحده هو الإله، وليس محمد إلا بشرا رسولا، والقرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو ثابت لا شبهة حوله، وهو كلام الله وليس منسوبا لأحد كما نسبت الأناجيل إلى متى ومرقص ولوقا ويوحنا، ويشمل القرآن الكريم توضيح أساسي الإسلام، وهما العقيدة الإسلامية وشريعة الإسلام بما فيها من عبادات ومعاملات، وكلما أخطأ المسلمون طريق الهداية عادوا إلى القرآن فوجدوا فيه ما يعيدهم إلى النور، وسيمدنا هذا الكتاب المقدس بزاد وفير في أبحاثنا التي سنعرض لها.

وبالإضافة إلى هذا فليس في الإسلام اعتقاد بخطيئة توارثها البشر، لأنه بناء على التفكير الإسلامي تزر وازرة وزر أخرى، وليس في الإسلام سلطات إلهية للحاكم، وبالتالي سوء استعمال لهذه السلطات، ومن أجل هذا يعفى الكاتب عن الإسلام من هذا العناء، فتتاح له الفرصة ليوجه كل جهوده للحديث عن نظم الإسلام وأفكاره، وأن يتكلم من أول كلمة إلى آخر كلمة من موضوعات ذات بال.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالإسلام دين ودولة ومن هنا شمل الحديث عن الإسلام مشكلات الإنسان حتى العصر الذي يعيش فيه، ويقدم الإسلام حلولا لكل هذه المشكلات.

ولا نزاع أن الباحث المنصف سيسرع بالهتاف للإسلام عندما يقارن التفكير الإسلامي في موضوع " الله " بالتفكير المسيحي أو اليهودي في الموضوع نفسه، وكذلك في موضوع " النبوة " و " الروح والمادة في التفكير الإسلامي " و " فلسفة العبادات في الإسلام " و " المرأة " و " الدين المعاملة " و " الرق " وغيرها من الموضوعات التي ستظهر جلال الإسلام وعظمته بين سائر الأديان والمعتقدات.

رباه! حقق بهذا الكتاب الأمل، واجعله خالصا لوجهك الكريم.

جاكرتا في الرابع من ابريل سنة ١٩٦١ دكتور أحمد شلبي

تطور الرسالات
وعمر الجنس البشري

يدرك الباحث في مقارنة الأديان حقيقة كبيرة الأهمية، هي أن الجنس البشري بدأ كما يبدأ الطفل أقرب إلى البدائية والبساطة، ثم نما الجنس البشري ونمت أفكاره فوصل إلى ما يمكن أن نسميه مرحلة صبا البشرية، ثم نما مرة أخرى فوصل إلى مرحلة يمكن أن تمد مرحلة شباب البشرية.

وكانت الرسالات تناسب كل طور من هذه الأطوار، ولا نزاع أن مصدر الرسالات هو الله العلي العظيم ذو الجاه والسلطان، ولكنه جلت قدرته كان يعطي الدواء بقدر طاقة المريض، فكان يعطي البشرية من الهدى والتوجيه ما تحتمله البشرية، وما يناسب عودها الذي بدأ ضعيفا ثم اشتد رويدا رويدا حتى اكتمل نموه.

تلك حقيقة واضحة تمام الوضوح لكل من يعني بدراسة الأديان وعلاقتها بالجنس البشري، وقد أشار الأستاذ الإمام محمد عبده إلى هذه الحقيقة في كتابه " رسالة التوحيد " فذكر أن الأديان الأولى خاطبت الحس يوم كانت الإنسانية في طور الطفولة، لا يعرف الإنسان فيها إلا ما يقع تحت حسه، ولا يتناول بذهنه من المعاني ما لا يقرب من لمسه، فلما سار ركب الإنسانية، وجربت وكسبت، وتخالفت واتفقت، وتقلبت في السعادة والشقاء أياما وأياما، ونما بها الوجدان، وبدت العواطف، جاء دين يتحدث عن الزهادة وعن الصفاء وملكوت الله، ولكن الإنسانية في صراعها لم تستطع أن تعيش على الايثار،

ولم يطل مقامها في الصفاء، فراحت تتعارك وحلت القطيعة محل التراحم، والتخاصم مكان المسالمة، فجاء دين ينظم الشؤون كلها، ويرعى الحس والعاطفة، ويدرس العقل والقلب، وينظم للناس شؤون دنياهم وآخرتهم (١).

ويقول بعض الباحثين في تفسير قوله تعالى: " مصدقا لما بين يديه " (٢):

هذا الكتاب الذي نزل بالحق يصدق ما بين يديه من الديانات التي سبقته وامتدت إلى زمانه، يصدقه في أصولها، فهي صورة من صور الحق التي جاء بها الرسل مناسبة لزمانهم، محققة لأغراضها في ذلك الزمان وكلما تغيرت الحاجة جاء طور من الديانة، جديد، يتفق في أصله ويختلف في فروعه تدرجا مع الحاجات. مع تصديق اللاحق للسابق في أصل الوحدانية الكبير (٣).

وقد قمت - بحكم عملي في مقارنة الأديان - بدراسة الأديان السماوية أو أكثرها، وبدراسة الأديان الوضعية أو أشهرها، وظهرت لي هذه الحقيقة واضحة، وأريد هنا أن أبرزها وأن أسير معها في ركب الجنس البشري لأصفه وهو يتطور وتتطور معه الرسالات.

وينبغي أن يكون واضحا أن الجنس البشري لم يتطور دفعة واحدة في وقت واحد، وإنما ساعدت عوامل خاصة على تطور جزء من الجنس البشري، وبقيت أجزاء أخرى في تخلفها وتأخرها، وهكذا دواليك، وبذلك وصل جزء من البشرية إلى مرحلة الشباب، وكان جزء آخر في نفس الوقت لا يزال في مرحلة الصبا، في حين كان هناك جزء ثالث لا يزال في مرحلة الطفولة يعيش عيشة بدائية أو ما يقرب من البدائية.

---

(١) اقرأ رسالة التوحيد ص ١٥٤ وما بعدها.

(٢) سورة آل عمران: الآية الثالثة.

(٣) في ظلال القرآن: الجزء الثالث ص ٥٣ - ٥٤

وربما صح القول أن هذه الأقسام كلها لا تزال تعيش في العهد الحاضر، فقد رفعت المدنية بعض أجزاء من الجنس البشري إلى غاية من الرقي، ولا يزال هناك آخرون يحبون، نصيبهم في المدنية محدود، ومجالهم في التطور ضئيل، وبين هؤلاء وأولئك أقسام وأقسام.

ولعل حقا أن يقال إن الديانات السماوية تركزت في منطقة الشرق الأوسط لهذا السبب، فقد شهدت هذه المنطقة أرقى حضارات العالم منذ أقدم العصور، وكانت حضاراتها أدبية وعلمية فهيأت شعوبها لتلقي الرسالات، ولسنا في حاجة لنذكر هنا حضارة الفراعنة المتلونة الفسيحة، وكذلك حضارة الفينيقيين، والبابليين، والآشوريين، وفي بعض أجزاء الهند والصين ظهرت حضارات أدبية، فظهرت بجانبها فلسفات وأفكار اتخذت فيما بعد شكل الدين كالبوذية والكونفوشية، أما بقاع العالم المتخلفة فقد قامت بها أفكار بدائية تناسب الطور الذي كان يمر به سكان هذه الأقاليم.

نعود بعد ذلك للرسالات السماوية لنبين ما سبق أن أشرنا إليه من أنها – وإن كانت قد جاءت لأرقى جماعة بين جماعات البشرية – كانت تختلف في درجة رقيها تبعا لعصر المرسل إليهم. وفي هذا المجال يمكن أن نقسم مراحل هذه الرسالات إلى ثلاثة أقسام تقريبا، فالقسم الأول يمثل طفولة الجنس البشري وذلك يشمل الفترة التي عبرتها البشرية من آدم إلى نوع حتى إبراهيم، والقسم الثاني يمثل صبا الجنس البشري حيث وجد أنبياء بني إسرائيل وبخاصة موسى وعيسى، والقسم الثالث يمثل شباب الجنس البشري حيث رسالة محمد.

وهناك ملامح خاصة لكل قسم من هذه الأقسام.

ففي القسم الأول كانت الدعوة بسيطة، ومظاهر ذلك تبدو فيما بلى:

١ – الدعوة محدودة بجماعة صغيرة يعيش لرسول بينها كجماعة لوط وجماعة إبراهيم، ولا تتعدى هؤلاء لسواهم.
٢ – الدعوة عبارة عن التوحيد وترك عبادة الأوثان والأصنام، دون تنظيمات وتفاصيل أخرى، إلا ما يكون من مرض اجتماعي تفشى فتنهى عنه الدعوة وتحاربه.
والآيات القرآنية التي تتحدث عن هذه الرسالات توضح هذين الاتجاهين تمام الايضاح، إقرأ هذه الآيات:
– لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره (١).
– ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله (٢).
– ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (٣).
– وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم (٤).
– وإلى ثمود أخاهم صالحا (٥).
– وإلى عاد أخاهم هودا (٦).
– وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه (٧).

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩.
(٢) سوره هود الآية ٢٥.
(٣) سورة الأعراف الآية ٨١.
(٤) سورة الأعراف الآية ٨٤ وسورة هود الآية ٨٤ وسورة الشعراء الآية ١٨٣.
(٥) سورة الأعراف الآية ٧٣.
(٦) سورة هود الآية ٥٠.
(٧) سورة الزخرف الآية ٢٦.

ومن نتائج بعث الرسول لجماعة خاصة لا يتعداها، وجدن رسولا لجماعتين في وقت واحد كإبراهيم ولوط، وكإسحاق وإسماعيل.

٣ - ليس للدعوة في ذلك الحين كتب واضحة، وإنما هي بضع نصائح وقد توجد بعض ألواح أو صحف عامة.

٤ - ليست هناك تواريخ ولا تقريبية لأديان هذه المرحلة فمتى كانت ديانة نوح؟ ومتى كانت ديانة هود؟ وهل جاء هود قبل إبراهيم أو بعده؟ لا نعرف بوجه الدقة.

ويقف القسم الثاني (صبا الجنس البشري) بين بين، ففيه من القسم الأول بعض ملاحمه، ولكن له ملامح أكثر تعقيدا وشمولا، ومظاهر ذلك تبدو فيما يلي:

١ - اتسع نطاق الدعوة فشملت قبيلة متشعبة ذات فروع كبني إسرائيل (الأسباط).

٢ - دخلت الدعوة بعض التفاصيل والتشريعات، ففي سفر التثنية ما بلى:

- لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يقتل (١).

- إذا كانت خصومة بين أناس وتقدموا إلى القضاء ليقضي القضاة بينهم، فليبرروا البار وليحكموا على المذنب (٢).

- إذا سكن إخوة معا ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصير امرأة لليت إلى خارج لرجل أجنبي، أخو زوجها يتزوجها، والبكر الذي يلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحي اسمه من إسرائيل (٢)

---

(١) الأصحاح ٣٤ الفقرة ١٦.
(٢) ٢٥: ٢.
(٣) ٢٥: ٥ و ٦.

- لا يكن لك أوزان مختلفة ولا مكاييل مختلفة، بل وزن واحد صحيح ومكيال واحد صحيح (١).

٣ - أصبح للدعوة كتاب هو التوراة أو الإنجيل ولكن معانيهما فقط هي الموحى بها وصاغها البشر في عبارات، وقد مسها التحريف والضياع كما سبق القول عند الكلام عن اليهودية والمسيحية.

٤ - وقد وجدت في هذه المرحلة تواريخ ولكنها غير دقيقة تماما.

٥ - ولم يستطع بنو إسرائيل في أكثر عصور هذه المرحلة أن يفهموا التوحيد فهما واضحا، فحسب أكثرهم وحدانية الله على أن هناك إلها واحدا لبني إسرائيل، وبجانبه كانت هناك آلهة للشعوب يؤمن الإسرائيليون بوجودها، ولكنهم يحرمون عبادتها على أبناء جنسهم (٢).

وظلوا إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام ينسبون إلى الإله أعمال الإنسان وحركاته فذكروا أنه كان يتمشى في الجنة، وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ويغشى مركبات الجبال (٣).

أما القسم الثالث (شباب الجنس البشري) فله ملامح واضحة هي:

١ - اتضحت وحدانية الله وحطمت الأصنام، وفتح بالإسلام عهد جديد لا يقبل الشرك في أية صورة من صوره، فالصورة الإلهية في الإسلام " فكرة تامة " لا تسمح لعارض من عوارض الشرك والمشابهة، ولا تجعل لله مثيلا في الحس ولا في الضمير، بل له المثل الأعلى وليس كمثله شئ (٤).

٢ - أصبحت الدعوة عامة لكل البشرية، وأصبح محمد رسولا للعالمين: " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا (٤) ".

---

(١) ٢٥: ١٣ - ١٥.
(٢) الأستاذ عباس العقادة الله ص ١١٥.
(٣) المرجع السابق ص ١٠٤.
(٤) المرجع السابق ص ١١٥.
(٥) سورة سبأ الآية ٣٨.

والدليل على عموم رسالة محمد واضح تمام الواضح، فقد عمت رسالة محمد الخافقين وشملت الأبيض والأسود والأصفر ولم يحس أحد من هؤلاء أن الدعوة لا تناسبه، ولا أنها مستوردة إليه من صنف آخر من الناس، بل أحس كل واحد أن الدعوة له، وأنها تنظم كيانه وحياته.

٣ - ختمت الرسالات بدعوة محمد، والدليل على ذلك واضح للغاية أيضا، فقد مرت القرون تلو القرون بعد محمد، ولم يأت رسول بعد أن طلع على العالم محمد بن عبد الله، لقد كانت الرسالات قبله يتلو بعضها بعضا، بل كان بعضها يعاصر بعضا كما سبق القول، ثم طلع محمد بقوله إنه خاتم الأنبياء والرسل، وصدقه الواقع أربعة عشر قرنا وليس مثل ذلك دليل.

٤ - دعوة محمد لها كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فقد مرت السنون، وكثر أعداء الإسلام، ولكن القرآن بقي دون تحريف أو شبه تحريف " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (١) " " بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ (٢) " " ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين (٣) ".

٥ - يقين الرسول في هذه المرحلة ثابت كالطود الشامخ، لم تزعزعه الأحداث ولم تخطر له الشكوك والأوهام، وكان يهتف في الشدائد: رباه إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي.

٦ - حياة محمد وحياة دعوته كلها وضوح وضوء ونور، تواريخ محددة، وأحداث ثابتة، وتطور مستقيم راسخ.

---

(١) سورة الحجر الآية ٩.
(٢) سورة البروج الآيتان ٢١ - ٢٢.
(٣) سورة البقرة، الآية الثانية.

٧ – ديانة شاملة لأمور الدين وأمور الدنيا، صورت لنا الله تعالى في علاه، وصورت لنا جنته وناره، وأبرزت معالم الخير والشر، وراحت إلى أمور الدنيا تتحدى تفكير العالم بنظم رائعة في الميراث، والسياسة والاقتصاد، والبيع والشراء، والوصية والهبة، والسلم والحرب، وكل حاجات الإنسان، كما سنوضحه فيما بعد.

يقول الأستاذ العقاد في ذلك (١): " جاء الإسلام للناس بعد أن بلغوا من التطور في فهم الدين مرحلة واسعة، وميزوا بين هداية الضمير وبين فواصل الأمكنة والأنساب، فعرفوا أن الحق الإلهي محصول روحاني وليس بالمحصول الأرضي الذي يرتبط بالتربة كما ترتبط محاصيل الزروع والضروع.

" فالله في الإسلام هو رب العالمين، يتساوى عنده الناس ولا يتفاضلون بغير العلم الصالح ".

" والنبي في الإسلام هو المبشر بالهدى والمنذر بالضلال، وليس هو بالمنجم الذي يكشف الطوالع والأسرار، ولا بصاحب الخوارق والأعاجيب التي تشل العقول وتهول الضمائر وتخاطب الناس من حيث يخافون ويعجزون، ولا تخاطبهم من حيث يعقلون ويتأملون ويقدرون على التمييز ".

لقد تطور العالم، وأصبح جديرا أن يتلقى أسمى الرسالات فجاءته أسمى الرسالات، وهي موضوع حديثنا، وما أمتعه من حديث.

---

(١) ما يقال عن الإسلام ص ٥٣.

ليل الإنسانية الطويل

لقد أحاط بالبشرية ظلام حالك قبيل بعثة محمد، كان ظلاما مطبقا، وكان ليلا طويلا، نشطت فيه الخرافات وانزوت الأفكار الصالحة، ودب الجهل وانكمش العلم، وعم اليأس وقل الأمل، وأوشكت الإنسانية أن تفقد كل ما حققته الأجيال الطويلة من تقدم، وأن تتردى في هوة سحيقة هي إلى عالم الحيوان أقرب.

تعال بنا نجل جولة سريعة نصور فيها حياة الجنس البشري آنذاك.

اليهودية:

بنو إسرائيل خصهم الله بكثير من فضله، وأرسل منهم لهم عدة من الرسل ليكونوا مصدر هداية ومبعث ضوء ورحمة، ولكن طبيعة أكثرهم كانت إلى الشر أميل، فراحوا يعتدون ويفسقون دون رادع من ضمير أو خلق، واستمرءوا الفجور فأنزلوا بأنبيائهم ألوانا من الاعتداءات الأثيمة دونتها كتبهم المقدسة (١) وصورها القرآن الكريم بقوله: " كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون " (٢). وانتقم الله لأنبيائه ورسله من ضللة بني إسرائيل ومن نسلهم الذين يعلم الله أنهم سيسيرون كأسلافهم طغيانا وسوء سيرة، فجعلهم هدفا لمن ينزل بهم العذاب المهين إلى يوم الدين " وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب " (٣).

---

(١) أنظر صورا منها في كتاب " اليهودية " المؤلف.
(٢) سورة المائدة الآية ٨٠.
(٣) سورة الأعراف الآية ١٦٧.

ولم يستطع أنبياء بني إسرائيل أن يحملوا الهداية إلى أكثر هذه القلوب الغلف، وكان من اهتدى من بني إسرائيل يسرع إلى العودة للضلال كأنما كانت نفوسهم على وعد به، وعلى نفرة مع الرضوان والهداية، فالروايات تقص علينا خبر أولئك الذين اتبعوا موسى من بني إسرائيل وأنجاهم الله مما أنزله فرعون بهم من ذل ومهانة، ولكنهم سرعان ما تخطف أبصارهم أصنام لقوم يعبدونها فيقولون لنبيهم: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة (١).

ويدعهم موسى في رعاية أخيه هارون ويذهب ليتلقى الألواح من ربه، وفيها لهم نور من الله وهدى، ولكن سرعان ما يتخذ هؤلاء من حليهم عجلا جسدا له خوار، يعبدونه ويسجدون له من دون الله، وقد حكى القرآن ذلك في الآيات الكريمة " واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، اتخذوه وكانوا ظالمين، ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا، قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين، ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي، أعجلتم أمر ربكم؟ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه. قال: ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين. قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين. إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة من الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين " (٢).

وأراد موسى أن يستغفر لقومه وأن يطلب من الله الرحمة، فاختار

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٨.
(٢) سورة الأعراف الآيات ١٤٨ - ١٥٦.

سبعين رجلا من أتقيائهم، ولكن هؤلاء هتفوا به: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة (١).

تلك صور من ضلالات بني إسرائيل في حياة موسى وفي حياة هارون، أما ضلالاتهم بعد ذلك فتكاد تكون سلسلة من البغي، يقتلون فيها النبيين، ويحرفون الكلم عن مواضعه، وهكذا، حتى خلا التاريخ أو كاد من هداية روحية يقدمها رجل من بني إسرائيل إلى الجنس البشري، أو شعاع من الضوء النفسي يكون فيه للإنسانية هدى أو بصيرة.

المسيحية بين الشرق والغرب (*):

وجاءت المسيحية وقد تكالب اليهود على المادة، ورأوا فيها كل مقومات الحياة، وتفننوا في خلق الطرق للحصول على المال وتنميته، غير مبالين بالوسائل التي يصطنعونها لنجاحهم في ذلك، فهانت بهذا القوى الروحية والمثل العليا، فاتجهت المسيحية لمعالجة هذا الداء، واتجه السيد المسيح عليه السلام إلى الدعوة للصفاء الروحي والرحمة والتسامح والزهد، وخلت المسيحية إلا من لمحات ضئيلة عن النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية لا تكاد تذكر، وأولى المسيح عنايته لتطهير النفس والروح ومحاربة الجسم والمال، ومما أثر عنه في ذلك قوله:

- سمعتم أنه قيل عين بعين، وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم:

لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين (٢).

----

(١) سورة البقرة الآية ٥٥.

* عن المسيحية اقرأ كتاب " المسيحية " من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف.

(٢) إنجيل متي: الأصحاح الخامس: الفقرات ٣٨ - ٤٠.

- لا تقدرون أن تخدموا الله والمال، لذلك أقول لكم: لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وما تشربون، ولا لأجسامكم بما تلبسون (١).
- يعسر أن يدخل غنى ملكوت السماوات، وأقول لكم إن مرور جمل في ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى ملكوت الله (٢).
كان هذا هو اتجاه المسيحية في الشرق: العمل على التطهير الروح وتقوية الصلة بين الإنسان وخالقه، أما تنظيم الحياة الدنيا وإحكام الصلة بين الفرد والفرد، فلم ينل من المسيحية عناية تذكر، وعبرت هذه الديانة من الشرق إلى أوربا فواجهت هناك - مع تجردها من المادة - أناسا شغلتهم المادة، ولا تكاد تنقطع عندهم الحروب وحملات السلب والانتقام، ولما اعتنقها هؤلاء أو بعضهم لم يجدوا فيها عناصر كافية لتنظيم حياتهم المادية، فاتخذوها وسيلة لصلة العبد بربه، وبقيت صلة الفرد بالفرد خاضعة للقانون الأرضي الذي يضعه البشر.
وعلى هذا اتخذت المسيحية ثوب الزهد والتسامح وقنعت بهما، وكان شعارها " ما لقيصر لقيصر وما لله لله " واتجهت بكليتها إلى التطهير الروحي والتهذيب الوجداني، وصاغت نفسها على أساس أن الدين صلة بين العبد والرب وأن القانون صلة بين الفرد والفرد وبين الفرد والدولة.
غير أن ذلك لم يقنع رجال الدين في بعض العصور، فكثير منهم عشقوا السلطة والنفوذ، وعشقوا أن يدخلوا الحياة العامة لا لإصلاح الحياة العامة، وإنما ليستفيدوا هم من الجماهير الجاهلة، ولكن تدخلهم في الحياة العامة أثار

----

(١) إنجيل متى: الأصحاح السادس: الفقرة ٢٥.
(٢) إنجيل متي: الأصحاح ١٦ الفقرة ٢٣ وإنجيل لونا: الأصحاح ١٨ الفقرة ٢٠.

ثائرة الملوك والأمراء، وقام نزاع بين هاتين القوتين ثم تم الوفاق بينهما على حساب الدهماء، فأخذت الكنيسة سلطة بيع صكوك الغفران وإصدار قرارات الحرمان، وأصبح الملوك سادة يملكون الأرض ويملكون رقيق الأرض.

وقبيل بعثة محمد خبا ضوء الطهر والزهد من المسيحية، بما دخل عليها من خرافات وأباطيل حتى أصبحت ديانة وثنية. ويقول Sale العالم الإنجليزي عن نصارى القرن السادس الميلادي " أسرف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية، وجد خلاف عن طبيعة المسيح وما إذا كانت مزدوجة أو إلهية تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية كما تتلاشى قطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له ".

هذا فيما يتعلق بالمسيحية، أما غير الدين من الشؤون في الغرب فقد كان متدهورا إلى أبعد غاية، لقد كان نظام الاقطاع سائدا، وفي ظل الاقطاع كان هناك أمراء وعبيد، فالأمراء يملكون الأرض ورقيق الأرض، والعبيد يعملون دون أن تكون لهم حقوق أو يقام لهم وزن، وكانت الحروب لا تكاد تنقطع بين هؤلاء الأمراء بعضهم والبعض الآخر، وبذلك كانت أوربا تعيش في ظلام دامس في جميع نواحيها تقريبا.

الحياة في فارس:

كانت فارس حتى القرن السابع قبل الميلاد تتبع الفكر الطبيعي في الأديان، أي كان هناك من يعبد الشمس أو الأنهار أو الأشجار أو الأبطال، وجاء زرادشت (٦٦٠ – ٥٨٣ ق. م) مصلحا اجتماعيا، اتجه في تفكيره إلى إصلاح اتجاهات مواطنيه الدينية، فأدمج في ديانته طائفة من المعبودات

الفارسية القديمة بعد تهذيبها، وانتهى به التفكير الديني إلى القول بإلهين أو مجموعتين من الآلهة، المجموعة الأولى آلهة خيرة على رأسها " أهورا مازدا " والمجموعة الثانية مجموعة شريرة يتزعمها " أهرمان "، والنضال بين هاتين المجموعتين يمثل النضال بين الخير والشر في الحياة، ذلك النضال الذي لا ينقضي إلا بعد آلاف السنين حيث ينتصر الخير ويهزم " ما زدا " " أهرمان ".

واتجاه زرادشت فيه تعدد آلهة، وفيه ثنويه، ولكن كثيرا من الباحثين يعدون الزرادشتية دين توحيد، لأن ما زاد سيكون وحده في النهاية بعد أن ينتصر على آلهة الشر.

ورمز زرادشت لما زدا ببعض المواد الصافية كالنار، وقال بالبعث والحياة الأخرى والحساب، حيث ينتهي المرء لنعيم دائم أو عذاب مقيم.

تلك هي الخطوط الرئيسية في مذهب زرادشت، ولكن تعاليم زرادشت انهارت بعده، وأصبحت الثنائية أبرز مظاهرها، كما اتجه الفرس إلى النار يعبدونها ويرونها إلها، ويستعملونها في شعائرهم الدينية متناسين أنها كانت فقط رمزا للصفاء، حتى أصبحوا يعرفون بأنهم عبدة النار، وقد أتاح هذا للكهنة المجوس الذين كان لهم السلطان الديني قبل زرادشت أن يظهروا من جديد كواسطة بين الناس وبين الآلهة وكمسيطرين على وسائل التطهير، وكوسائل لإرضاء الآلهة، وسرعان ما أحيا الكهنة الطقوس التي كانت موجودة من قبل كعبادة الأصنام وتقديم القرابين وبخاصة للإله " مترى " الذي أصبح أبرز الآلهة.

ولما غزا الإسكندر المقدوني فارس في أواخر القرن الرابع ق. م اختفت الزرادشتية، وظلت مختفية مدة خمسة قرون، فلما قامت دولة الساسانيين

حاول هؤلاء العودة إلى الزرادشتية باعتبارها جزءا من تراث فارس، ولكن الزرادشتية الساسانية كانت بعيدة كل البعد عن اتجاهات زرادشت، وكانت تحقق أهداف الملوك وطغيان الكهنة.

وفي أواخر القرن الثالث المسيحي ظهر (مانى) في فارس، وكان ظهوره في عصر سادت فيه الشهوة، فاختط طريقا يحارب به هذه الشهوة الجامحة، فنادى بحياة العزوبة وعدم النكاح لحسم مادة الفساد والشر من العالم، وذلك بقطع النسل واستعجال الفناء، وقد قتله بهرام سنة ٢٧٦ م قائلا: إن هذا خرج لتخريب العالم، فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه. وذهب ماني ولكن تعاليمه بقيت بعده إلى ما بعد الفتح الإسلامي.

وظهر مزدك سنة ٤٨٧ م فأعلن أن الناس ولدوا سواء، لا فرق بينهم، وينبغي أن يعيشوا سواء، ولما كان المال والنساء من أهم الأسباب التي تخلق الفوارق وتسبب الكراهية، فقد قال مزدك بالشيوعية التامة فيهما، يقول الشهرستاني (١): أحل مزدك النساء وأباح الأموال وجعل النساء شركة بين الناس كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ، ولقيت هذه الدعوة قبولا لدى الشبان والمترفين والفجرة، بل أيدها القصر الإمبراطوري ويقول الطبري (٢): كاتف السفلة مزدك في دعوته وشايعوه، فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم، حتى كانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله، لا يستطيع الامتناع منهم، وحملوا قباذ على الموافقة على ذلك وتوعدوه إن رفض، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه، ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به.

---

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٨٦.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٨٨.

وادعى ملوك فارس أن دما إلهيا يجري في عروقهم، وأن في طبيعتهم عناصر علوية مقدسة، وصدق الفرس هذه الدعوى فأنزلوهم منزلة الآلهة، قدموا لهم القرابين، وأنشدوا لهم أناشيد الطاعة والعبودية، واعتقدوا أنهم وحدهم الذين يجوز لهم أن يلبسوا التاج، ويسيطروا على الناس أيا كانت سنهم أو كفاءتهم. وفيما عدا الأسرة المالكة كان هناك المجتمع الإيراني بطبقاته الكثيرة التي تقوم هوة واسعة بين كل اثنتين منها، وكان كل إنسان في طبقة لا يستطيع أن يتعداها إلى سواها من الطبقات مهما أوتي من كفاءة خاصة أو تجارب معينة (١).

الأدبار في الصين:

شهدت الصين في القرن السادس قبل الميلاد حكيمين شهيرين هما: " لاموتسي " الذي ينطق اسمه أحيانا " لوتس " و " كونغ فوتسي " الذي ينطق " كونفشيوس "، وأولهما أسن بحوالي خمسين سنة تقريبا، وقد تقابلا وكان " لاموتسي " في شيخوخته و " وكونغ فوتسي " في شبابه وتدارس الثاني مع الأول بضع مشكلات، ولكن كان لكل منهما اتجاه فافترقا، فقد كان الأول داعية قناعة وزهد وتسامح مطلق، دعا إلى مقابلة السيئة بالحسنة، على نحو ما نسب للمسيح فيما بعد، أما " كونفشيوس " فكان يدعو إلى العدالة والاستقامة، ومقابلة السيئة بمثلها، ومذهب الأول يعرف " بالتاوية أو الطاوية " أما مذهب الثاني فيعرف " بالكنفوشية " وهو أكثر انتشارا وذيوعا في الصين.

---

(١) أنظر كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للسيد أبو الحسن الندوى ص ٣٣.

ولم يقل كونفوشيوس أنه نبي ولا رسول، وإنما كان باحثا في الحكمة، وقد تناولت أبحاثه الحكومة والسياسة والأخلاق والمرأة، وكان شديد التأثر بعقائد قومه الأقدمين، فاتجه مثلهم إلى عدم القول بالجنة أو النار والعقاب والثواب، ولم يدرس مشكلة ما بعد الموت، معلنا أن مشكلات الحياة يصعب فهمها، فكيف بمشكلات ما بعد الحياة؟

وكان الصينيون القدماء يربطون بين الأحداث الكونية، وبين أخلاق الملوك وأخلاق الشعوب، فالعواصف والفيضانات والزلازل والأوبئة وما ماثلها، لبست عندهم إلا عقابا لانحراف الأمراء وانحراف الناس، وقد تبنى كونفوشيوس هذه الفكرة.

وكان كونفوشيوس ككل صيني – تخيفه الأحداث الكونية، فهو يرتجف من قصف الرعد، وعصف الرياح، وهطول الأمطار، وكسوف الشمس وخسوف القمر، وهو يقابل ذلك بالتعاويذ والقرابين، يحاول بها أن بقي نفسه شرور هذه الأحداث.

وكانت أفكاره حقا حافة بالدعوة للخير والرحمة والاخلاص وأداء الواجب، ولكن الصينيين من بعده انحرفوا بهذه الدعوة الخيرة واتجهوا إلى كونفوشيوس ينبون له الهياكل ويعبدونه، ويقدمون أمام تماثيله الذبائح والقرابين، ويركعون أمام تماثيله ويسجدون، وبالإضافة إلى هذا، شاعت بالصين قبيل الإسلام عبادة الأرواح وبخاصة أرواح الآباء والأجداد، إذ كان الصينيون يعتقدون أن هذه الأرواح تعيش معهم بعد وفاة أصحابها، والصينيون يحبون كثرة النسل، ولكنهم يمجدون الذكور، وعند ما يبشر أحدهم بابن يعلق القوس والنشاب على الباب، دليل مولد الذكر الذي يحمي

العشيرة ويزود عنها الردى، أما إذا بشر بأنثى علق على بابه مغزلا دليل الخنوع والضعف.

ومن أهم الأديان التي كانت سائدة في الصين بجانب الكونفوشية، الديانة البوذية، ولكن البوذية أيضا فقدت بساطتها، وتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبنى الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت، يقول الأستاذ أتريا: لقد قامت في ظل البوذية دولة تعني بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل.

الهند:

يقول السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي وكيل ندوة علماء الهند ما بلى:

اتفقت كلمة المؤلفين في تاريخ الهند على أن أحط أدوارها ديانة وخلقا واجتماعا كان ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادي، فقد شاركت الهند في التدهور الخلقي والاجتماعي الذي شمل الكرة الأرضية في هذه الحقبة من الزمن... وبلغت الوثنية أوجها، ووصل عدد الآلهة ٢٣٠ مليونا فقد أصبح كل شئ رائع، وكل شئ جذاب، وكل مرفق من مرافق الحياة إلها يعبد، وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة الحصر وأربت على العد، فمنها أشجار تاريخية، وأبطال تمثل فيهم الله، وجبال تجلى عليها بعض آلهتهم، ومعادن كالذهب والفضة ادعوا أن الله تجلى فيها، وأنهار وآلات حرب، وآلات تناسل وحيوانات أشهرها البقرة وغير ذلك، وقد ارتقت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد حتى فاق هذا العصر في ذلك جميع العصور الماضية، وقد عكفت الطبقات كلها وعكف أهل البلاد من الملك إلى الصعلوك

على عبادة الأوثان (١).
وظهر في الهند نظام الطبقات في أبشع صوره، فقد ازدهرت في الهند قبل المسيح بثلاثة قرون الحضارة البرهمية، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي، وألف فيه قانون مدني وسياسي أصبح رسميا ومرجعا دينيا في حياة البلاد ومدنيتها، وهو المعروف الآن ب " منو دهر ما ساسترا " ويقسم هذا الفانون السكان أربع طبقات هي:
١ - البراهمة: وهم طبقة الكهنة ورجال الدين.
٢ - الكشتريا: وهم رجال الحرب.
٣ - الوشيا: وهم التجار والصناع والزراع.
٤ - الشودرا: وهم طبقة الخدم والعبيد.
وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقا ألحقتهم بالآلهة، فجعلتهم صفوة الله وملوك الخلق، وملكتهم ما في العالم لأنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم الشودرا ما شاءوا، لأن العبد وما ملكت يده لسيده.
وقد حاولت البوذية القضاء على هذه الطبقات ولكنها فشلت، وسرعان ما انهارت البوذية كذلك، نقول دائرة المعارف البريطانية في ذلك ما يلي: لقد أصيبت البرهمية والبوذية بالانحطاط، ودخلت فيهما العادات الساقطة، وأصبح من العسير التمييز بينهما، لقد اندمجت البوذية في البرهمية وذابت فيها (٢) مادة بوذا.

---

(١) أنظر كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٣٨ - ٤١، واقرأ كذلك " أديان الهند الكبرى " للمؤلف ص ٥٤ - ٦١ من الطبعة الثانية.
(٢) اقرأ دائرة المعارف البريطانية: مادة بوذا وكتاب " أديان الهند الكبرى " للمؤلف.

العرب:
في صور من وأد البنات، وسبي النساء، وعبادة اللات والعزى ومناة، وفي حروب لا تنقطع، وغارات لا تهدأ، كان يعيش العرب قبل الإسلام، ولعل أدق تصوير وأقصره لحالة العرب في الجاهلية في ذلك الذي قرره جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي ملك الحبشة حينما سأله عن دين الإسلام وعن الرسول محمد، قال جعفر: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف (١).
تلك صورة سريعة مجملة للعالم قبيل شروق الإسلام، تلك الحالة التي وصفها الأستاذ Dinson في كتابه Emotions as the Basis of Civilizatiou بقوله: في القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدن على شفا جرف هار من الفوضى، لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة قد انهارت، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، إذ القبائل تتحارب وتتشاجر، لا قانون ولا نظام، أما النظم التي خلفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله، واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب.
وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي كان خير دواء لهذا الداء.

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢١٣.

مطلع الفجر

قبيل مولد محمد كان ليل البشرية قد طال، وكان الجنس البشري قد مر بألوان من التجارب والخبرات أوقفته حائرا أمام كثير من مشكلات الحياة ومشكلات ما بعد الحياة، ولكنها في الوقت نفسه هيأته ليتلقى رسالة تنظم له هذه الشؤون وتعالج له ما بدا من مشكلات، ووقفت الإنسانية ترقب مطلع الفجر، وأخذت تقلب وجهها ذات اليمين وذات الشمال، باحثة عن الأمل الذي يقود الإنسانية إلى الهدى، وباحثة عن شعاع الضوء الذي يزيل طبقات الظلام المتراكم.

وانبثق الفجر من هناك، من مكة، المدينة المقدسة التي تربض في منتصف الطريق الواصل بين شمالي الجزيرة العربية وجنوبيها تقريبا، ولم يكن أحد يعرف حينما ولد محمد أن هذا الوليد اليتيم سيكون ذلك الأمل الذي ترقبه الملايين، والذي سيهدي البشرية إلى سواء السبيل.

وولد محمد في ضوء التاريخ، لا شكوك حول أسرته، ولا غموض حول تاريخ مولده، ولا ظلام حول نشأته، ولا تردد حول بعثته ومبادئه، وإنما هي وضوح كلها، ويقين كلها، يؤمن به من يشاء، ويكفر به من يشاء، ولكنه على كل حال كفران ناشئ عن التحدي أو العصبية، أو سبب مماثل من الأسباب، وليس ناشئا عن الجهل أو الغموص. ويقول غوستاف لوبون (١) عن حياة محمد ووضوحها: إذا استثنينا محمدا لم نجدنا مطلعين على حياة مؤسس ديانة اطلاعا صحيحا.

تعال بنا نقص طرفا من سيرة محمد نستقصيها مما كتبناه عنه بتفصيل وإطناب في المظان التاريخية المخصصة لذلك (٢).

----

(١) حضارة الهند ص ٣٤٤.
(٢) اقرأ الجزء الأول من " موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية " للمؤلف.

انتقل السلطان في مكة من خزاعة إلى قريش سنة ٤٤٠ م وكان قصي الجد الرابع للرسول قد تزوج بفتاة من خزاعة كان لأبيها السلطان على مكة، فمهد له ذلك أن يستولي على السلطان بعد موت هذا الأب واضمحلال قوة خزاعة أمام قريش الناهضة.

وقصي هذا هو الذي بنى دار الندوة ليجتمع فيها أهل مكة للتشاور فيما بينهم تحت إشرافه، وهو الذي رتب وظائف الكعبة وحدد مدلولاتها، وهذه الوظائف هي السقاية والرفادة واللواء والحجابة (١).

وبعد قصي انحدرت وظائف الكعبة إلى أولاده فأحفاده، وكان هاشم ابن عبد مناف بن قصي من أكثر أحفاد قصي حظا، فقد آلت له السقاية والرفادة، وتولاها بعده أخوه المطلب تم عبد المطلب بن هاشم جد الرسول الذي عز شأنه وذاع صيته، وأصبح مرجع كل الأمور بمكة، وفي عهده كان عام الفيل حيث هجم أبرهة بالفيلة يريد تدمير البيت الحرام وتخريبه، ولكن الهزيمة حاقت به وكتب للكعبة النجاة. وفي هذا العام ولد محمد.

ومحمد حفيد عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وكان لعبد المطلب مجموعة من الأبناء تزيد عن العشرة، وكان من بينهم ابنه عبد الله أبو محمد، وكان عبد الله أحب أبناء عبد المطلب إليه، وكان شابا جميلا تغلب عليه الوداعة والخير، وقد زوجه والده في سن مبكرة من فتاة قرشية في ميعة الصبا، هي آمنة بنت وهب، والتقى الزوجان الشابان التقاء قصيرا تكونت فيه نطفة طفل قدر له أن يكون في قمة القادة والمشاهير، وافترق الزوجان افتراقا لم يتم بعده لقاء، فقد سافر عبد الله في تجارة أبيه إلى المدينة فالشام، ولما عاد سقط مريضا

---

(١) أنظر مدلولات هذه الوظائف في الجزء الأول من " موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية " للمؤلف ص ٦٨ – ٦٩ من الطبعة السادسة.

لقد كان حريا بقلب آمنة أن يتحطم، ولكن التاريخ يثبت لنا هدوء آمنة في غمرة الحزن، ورضاها مع الأسى، وقد وجدت آمنة سلواها في جنينها ثم ولدته فأنست به، وأصبح دنياها الذي نسيت له وبه كل شئ، ولكن آمنة سرعان ما ماتت وطفلها في السادسة من عمره، وكأنما أراد الله أن يتولى هو تنشئة الطفل، وقد عبر القرآن عن هذا المعنى بقوله: " ألم يجدك يتيما فآوى (١) " وعبر عنه الرسول بقوله: أدبني رب فأحسن تأديبي ".

وتولى عبد المطلب الإشراف على حفيده الحبيب، ولكن عبد المطلب أيضا مات بعد سنتين من آمنة فتولى أبو طالب بن عبد المطلب كفالة محمد.

وواجه محمد الحياة في ظل عمه أبي طالب، تربى في بيته، وساعده في أعماله التجارية، وسافر معه إلى الشام متاجرا قبل أن يبلغ الحلم، وعند ما كان في الرابعة عشرة من عمره وقعت حرب الفجار الرابعة، وقد حضرها الرسول، ويروى عنه قوله " كنت أنبل على أعمامي يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة ".

وتقدم محمد نحو الشباب، ولكنه كان طرازا وحيدا، لم يشرك أترابه فيما اعتادوه من لهو وعبث، فلم يشرب الخمر، ولم يغش مجالس الميسر، ولم يسجد لصنم قط، وكان حليف الأمانة وحليف الصدق حتى عرفه الناس بالصادق الأمين.

وتاجر محمد في مال خديجة بنت خويلد، وسافر في هذه التجارة إلى الشام، وصحبه ميسرة غلام خديجة، وقد ربحت هذه التجارة ربحا عظيما وكانت سبب ارتباط بين محمد وخديجة، وقد توج هذا الارتباط بزواجه منها وهو في الخامسة والعشرين وهي امرأة في الأربعين من عمرها تزوجت قبله مرتين.

---

(١) سورة الضحى الآية السادسة.

وقد هيأ مال خديجة للرسول فرصة ليتفرغ للفكر الذي كان يراوده، فقد كان محمد كثيرا ما يخلو لنفسه ويفكر في الكون ومبدئه ونهايته، ولكن السعي للمعاش كان يقطع عليه فكره ويحول دون استمراره في هذه اللذة العقلية التي كان ينعم بها، بيد أن حياته الجديدة مع خديجة الغنية ضمنت له فراغ الوقت، ومنحه تقدم سنه مزيدا من العمق، ومنحته أخلاقه الحسنة مزيدا من الصفاء، وشملته عناية الله فرأى أنه يخلو لله، وشجعته زوجته الصالحة على رغبته، فكانت تعد الطعام فيأخذه ويذهب إلى غار حراء، حيث يخلو ليفكر في الكون وخالقه، والموت ومصير الناس بعده، وهكذا، وصفت نفس الرسول فأصبحت رؤاه تتحقق ولا تكاد تتخلف.

بدء الوحي:

وظل محمد يخلو ويفكر حتى نزل عليه جبريل يوم الاثنين السابع عشر من شهر رمضان ودار بينهما هذا الحوار القصير:

- اقرأ.
- ما أنا بقارئ.
- اقرأ.
- ما أنا بقارئ.
- اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم (١).

وكانت هذه أول آيات من القرآن الكريم، ومن الملاحظ أن هذه الآيات

---

(١) سورة العلق الآيات ١ - ٥.

لم تكلف محمدا بدعوة، ولم تخبره برسالة، ولم تكن إلا شيئا غير عادي، لم يدرك محمد كنهه، ولذلك أسرع إلى البيت خائفا مذعورا.

وانقطع جبريل عن الرسول مدة بعد ذلك، وكان الرسول يترقبه في الغار وخارج الغار، وبعد فترة من الانتظار طالت على محمد، ظهر له جبريل مرة أخرى، وكان محمد سائرا بالقرب من منزله، فظهرت عليه رعدة وفزع، وسارع إلى بيته في حالة من الخشية، وقال لأهله: دثروني دثروني! فدثروه. ولكن جبريل جاءه وهو في هذه الحال وألقى إليه نداء ربه: " يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر (١) "، وأدرك محمد بهذه الآيات ما يراد منه، فهب ينذر الناس، وبدأت بهذه الآيات مراحل الدعوة للدين الجديد، وافتتحت هذه الآيات للإنسانية عصرا جديدا هو عصر النور وعصر السلام والإسلام.

وبدأ محمد دعوته بمكة، ولكن الدعوة تعثرت ووقفت قوى الشر في طريقها، ولكن محمدا بحث عن طريق آخر تنطلق منه دعوة الإسلام، فهاجر إلى يثرب، وحاولت القوة الغاشمة أن تلحق به وأن تحطم بالمدينة الدعوة المهاجرة من مكة، ولكن محمدا قاوم القوة بالقوة، وخاض معارك حاسمة مع المعتدين، كتب له في نهايتها النصر المبين، وعلا صوت الحق، ودخل الناس في الدين أفواجا، وعندما استكمل محمد الثالثة والستين كان علم الإسلام يخفق على الجزيرة العربية كلها، وأصبح لهذه الجزيرة التي كانت أشتاتا متنافرة دين واحد، ورئيس واحد، وغاية مثلي تقودها، وأفكار سامية توجهها، ثم انطلقت هذه القوة من حدود الجزيرة بعد وفاة محمد فاتجهت إلى أرقى الممالك التي عرفها ذلك التاريخ، فخرت هذه بسرعة مذهلة أمام الزحف الإسلامي الذي لم

---

(١) سورة المدثر الآيات ١ – ٧.

يطق الباطل أن يوقفه، ولم يمض قرن من الزمان حتى كان الإسلام يخفق في الأندلس ويرفرف على السند، ويشمل بخارى وينساب إلى قلب إفريقية، ويعم ما بين هذه البلاد من بقاع.

ولنعد إلى محمد نبي الإسلام لنذكر جملة أخرى من صفاته قبل أن نستمر في حديثنا عن موضوعات هذا الكتاب.

لقد بعث محمد وتبعه بعض الناس، وعاداه آخرون، ولكن أعداءه لم يستطيعوا أن يجدوا في أخلاقه مطعنا، ولم يستطيعوا أن يزعموا أن فيه نقيصة، أو ثلمة.

وعظم شأن الإسلام وانتشر، وكبر سلطان محمد باعتباره الرئيس الديني والرئيس السياسي، ولكن مظاهر السلطان لم تعرف طريقها إليه، فقد ظل يحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويأكل مع الخادم، ولم ير أصحابه فيه إلا رائدا وصديقا، كان ينهاهم عن الوقوف له إذا أقبل عليهم، وكان يجلس معهم كواحد منهم، وإذا قدم وهم جالسون اتخذ مكانه حيث انتهى به المجلس، وكان يمازحهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة (١).

ولم تقف سماحة نفسه عند أتباعه، بل امتدت إلى أهل الكتاب، فكان يقبل دعوتهم، ويحسن استقبالهم، وقد فرش عباءته لنصارى نجران عندما وفدوا عليه وطلب منهم الجلوس عليها، وكان يزور مرضاهم ويشيع جنازاتهم.

---

(١) أفاض الإمام الغزالي في وصفه الأخلاق الرسول في أكثر من موضع بكتاب الإحياء، أنظر كذلك زاد المعاد ١: ٣٤ - ٤٧.

وكان زاهدا في الدنيا، يؤثر على نفسه ولو كانت به خصاصة، وكان لا يدخر شيئا لغده، حتى لقد توفى وقد رهن درعه عند يهودي في قوت عياله، وكان شديد الزهد في الحياة المادية، اتخذ فراشا خشنا، وطعاما بسيطا، بل لقد عانى الجوع أكثر من مرة، وكان زهده في اللباس كزهده في الطعام.

وكان لامع الذكاء، عميق التفكير، سريع البديهة، وكانت تحيط به أحيانا مشكلات جسيمة ولكنه لم ينهزم أمام واحدة منها، بل كان يبحث عن الحلول في وقت تقف فيه العقول عن التفكير، وحسبك أن تذكر موقفه عندما حلت به الهزائم في غزوة أحد، وخر صفوة من أتباعه،، وتشتت شمل جيشه، ومسه هو الضر، وسقط في حفرة والدم ينزف منه، ونادى منادي قريش أن محمدا قد مات، فأراد أحد المسلمين أن يكذبه، وأن يصيح بأن محمدا لا يزال حيا، ولكن الرسول أسكته فقد أدرك – وهو في حاله تلك – أن خبر وفاته سيوقف نشاط المنتصرين، ويضمن السلامة لكثير من أتباعه، وهذا ما كان.

ومحمد – ككل مصلح وكل رسول – كان له أعداء، ولا يزال له أعداه، ولكن أحدا من هؤلاء لم يستطع أن يجرح أخلاقه، أو أن يجد في صفاته ما ينال منه. وكثير من السمتشرقين الحانقين على الإسلام يذكر أن نجاح محمد كان نتيجة – لا لصدق دعوته – بل لذكائه، وخلقه، وحسن معالجته للأمور، وتفوقه الذهني والخلقي على رجالات عصره.

ومن خصائص الدين الذي جاء على يد محمد التوحيد المطلق الذي لا هوادة فيه، وخلوه من التعقيدات اللاهوتية، وبعده عن الكهنة والقرابين، وقد

اتخذ محمد كل الاحتياط ليحول دون تأليهه بعد مماته، كما أن من أهم خصائص هذا الدين إصراره على أن المسلمين جميعا إخوة متساوون تماما، مهما اختلفت ألوانهم أو أجناسهم أو مراكزهم (١).

رحم الله محمدا! لقد كان نفحة سماوية أمدها الله بالتأييد، وحباها كريم الصفات ونبيل السجايا، ومنح العالم على يده دينا جديرا بأن يكون خاتم الأديان، لما يكفله لمعتنقيه من تنظيم أمور الدين وأمور الدنيا.

----

(١) Wells: موجز تاريخ العالم ص ٢٠٢.

دعوة في الميزان

قال محمد: إني رسول الله، أرسلني بشيرا ونذيرا.
وقال محمد: إن رسالتي تشمل البشرية كلها.
وقال محمد: إن رسالتي تنظم شؤون الدين وشؤون الدنيا، شؤون الروح وشؤون الجسم، شؤون الفرد وشؤون الجماعة.
هل صدق محمد فيما قال؟
وهل ملأ هذا الفراغ الكبير الذي قال إن دعوته ستشمله؟
تعال أولا نفترض عدم صدق محمد، وندعي مع من ادعوا أن محمد لم يكن صادقا وأن دعوته إنما هي من خلقه هو وليست رسالة من الله، ولكنا نسرع فنتساءل:
كيف يدعي رجل مثل هذه الدعوة الكاذبة وتعيش دعوته؟
ونتساءل ثانيا:
لماذا كذب محمد هذه الكذبة العريضة؟ ما هدفه وما آماله؟
ونسير في بحث السؤال الأول فنذكر أن كثيرين ادعو النبوة وحاولوا أن يأتوا بمعجزات، ادعاها الأسود العنسي، وادعاها طليحة، وادعتها سجاح، وادعاها في العصر الحديث أحمد القادياني، ولكن كلا من هؤلاء كانت دعوته مهلهلة أثارت الضحك والسخرية، وكان عمرها في عمر الزهور، وكثيرا ما تراجع صاحبها نفسه وسخر من نفسه مع الساخرين، لشئ واحد، هو أن النبوة عب ء ثقيل، حمله يرهق النفس البشرية، والنهوض به من أشق الصعوبات.

انزل بين جماعة وادع أنك طبيب ولست بطبيب، كم يمضي من الوقت قبل أن ينكشف أمرك ويظهر تضليلك؟

وانزل بين جماعة وادع أنك معلم أو مهندس أو رجل قانون، أو حتى زارع أو طباخ أو حلاق ولست كذلك، لا شك أن أمرك سينكشف بعد قليل، وسيطاردك أولئك الذين قد يخدعون بك في اللحظات الأولى.

هل النبوة أقل من ذلك؟

اللهم لا. إنها مسؤولية خطيرة، ودعوة عريضة، وهي امتحان قاس، هيهات أن يعبره كاذب أو مختلق.

إنها ليست كلمة تقال، أو دعوى تدعى، إنها فكرة، أو سلسلة من الأفكار، ونظام، أو حلقات من النظم، وهي عقيدة تبني، وشروح تعرض، ومشكلات تعالج، ولا يقوم بذلك إلا صادق أمين.

وتعال بنا إلى السؤال الثاني:

ما هدف محمد من هذه الدعوى العريضة على فرض وقوعها؟

من المحتمل أن يكذب إنسان وأن يدعي دعوى باطلة، ولكن الذي لا شك فيه أن الإنسان يرمي إلى شئ عندما يرتكب هذه الحماقة. ما الشئ الذي أراده محمد من هذه الدعوى؟

هل أراد المال؟ هل أراد الجاه؟ هل حصل على شئ لنفسه، أو لذويه؟

الإجابة عن ذلك واضحة يقصها علينا التاريخ الواضح، الذي لا يختلف فيه اثنان، فقد كان محمد غنيا قبل البعثة بمال زوجته الواسع وثرائها العريض، ولكن محمدا أفنى هذا المال وأنفق كل هذا الثراء حتى إذا مات كان مدينا، رهن درعه عند يهودي في قوت أهله، وقد أراده قومه على المال، وعرضوا

عليه أنفس ما يملكون لأنهم ظنوا أنه طالب مال، وعرضوا عليه الجاه والسؤدد وأرادوه ملكا عليهم، ولكن محمدا صاح صيحته الشهيرة: والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه (١).

وظنه الجدد من أتباعه ذا سلطان، فكانوا يقفون له إذا قدم عليهم، ولكنه هتف بهم: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، فلست بملك، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة.

وقاسى محمد من أجل النبوة ألوانا من العناء، عرف الجوع والطوى، وامتدت عليه الأيدي بالضرب والايذاء، وقاطعته قريش هو ومن تبعه أو نصره، واستمرت المقاطعة ثلاث سنوات، وشملت التجارة والمحادثة والتزاوج وغيرها من المعاملات، وكان من نتيجتها الضر البالغ لمحمد، ولبني هاشم جميعا، ثم تلا ذلك هجرة وغربة قاسية.

وماذا حصل محمد لذويه؟

إن كان محمد قد حصل شيئا لأولاده وذويه فذلك الشئ هو الحرمان، طالما بات مع أهله على الطوى، وطالما قنع وقنعوا معه بالثوب المرقع، والنعل المخصوف، ثم – وهو غاية الحرمان – لقد وضع محمد حدا لما قد يقال عن جلب النفع، فقال قبل موته: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة. وهكذا حرم أهله من ميراث يناله جميع الناس من موتاهم، وبرهن على أنه هو ليس لأهله وإنما للمسلمين جميعا، حياته لهم، وموته لهم، وكفاحه من أجلهم، دون هدف ذاتي أو منفعة خاصة.

وليس لمحمد ميراث أدبى كما أنه لم يكن له ميراث مادي، فالنبوة ليست ملكا ولا سلطانا يتوارثه الأهل، ولما مات محمد انتقل سلطانه إلى القبائل كما

يقضي الإسلام، ولم ينله غير الأكفاء من أهل محمد كبعض العباسيين والعلويين إلا في عهد اضمحلال التفكير الإسلامي، وتدهور الثقافات الإسلامية.
وفي حجة الوداع كان خطاب محمد حاسما، كان حسابا واضحا قدمه لقومه، قال لهم: أيها الناس، من كنت أخذت له مالا، فهذا مالي فليأخذ منه، ومن كنت ضربت له ظهرا فهذا ظهري فليضربه، أيها الناس: كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى.
حياة واضحة ونهاية واضحة، حياة فيها الحرمان والضنى واللوعة له ولأهله، فلما مات لم ينل منه ذووه شيئا، وكان للمسلمين جميعا تراثه المادي والأدبي.
وهكذا عند حساب الأرباح والخسائر نجد محمدا لم ينل شيئا لنفسه ولا لذويه، وإنما دفع من ماله وجهده وجاهه، وما لمثل هذا يسعى كذاب مختلق.
وأكثر من هذا، فالضر الذي نزل بمحمد لم يكن مفاجأة له، ولم يكن يسعى للخير فأخطأه التوفيق ونزل به الضر، لا، فإن محمدا كان يتوقع الشر منذ جاءته الرسالة، ومنذ بدأ دعوته، فقد روى أنه عقب أن تلقى أمر ربه ناله الفزع والخوف، فدعته خديجة لينال شيئا من الراحة فأجابها: يا خديجة مضى عهد النوم والراحة، وجاء عهد الكفاح والعناء.
إذا لا نستطيع أن نفترض عدم صدق محمد، ففرض كهذا لا يجيزه منطق ولا يقره فكر سليم.
لا، نريد مرة أخرى أن نعود إلى هذا الافتراض الأبله، فنعرض الادعاء بأن محمدا لم يكن صادقا، وأن دعوته إنما هي من خلقه، وقرآنه إنما هو من صنعه، ولكن سرعان ما يعرض علينا هذا القرآن صورا تذيب هذا الادعاء وتمحوه من أساسه، اقرأ معي:

" عبس وتولى، أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنفعه الذكرى، أما من استغنى، فأنت له تصدى، وما عليك ألا يزكى، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى. كلا، إنها تذكرة (١) ".
قصة جماعة يدعوهم الرسول إلى الإسلام، ورجل أعمى مسلم يقتحم على الرسول جلسته ليسأل عن شئ غمض عليه، ولكن الرسول يستمر في اهتمامه بهذه الجماعة رجاء أن يجذبها إلى نطاق الإسلام، أما هذا السائل المسلم فيعرض عنه الرسول مؤقتا فلن يفوت شئ إذا أجل الرسول الإجابة عن سؤاله.
ولكن القرآن لا يترك هذا التصرف لمحمد، وتنزل عليه هذه الآيات التي يقرؤها الملايين. هل هي من صنع محمد؟ وكيف جاز لمحمد أن يلوم نفسه هذا اللوم، وأن يجعل هذا التقريع قرآنا يحفظه الناس ويتلونه على مر الزمن؟
وفي هذه الآيات - بالإضافة إلى العتاب واللوم - معان سامية، واتجاهات رفيعة، إذ لا يمكن أن يعارض محمد نفسه لو كانت الدعوة من خلقه، والقرآن من صنعته، لأن الآيات تسأل بتهكم: لماذا تتصدى لتعلم من استغنى عنك وعن الأفكار التي تدعو لها؟ وماذا يضيرك أن يبقى هؤلاء في ضلالهم....؟
كلا، لا تفعل ذلك مرة أخرى.
هذا أدب الله وتلك سياسة القوى العليا التي لا يصل إلى غايتها فكر البشر، فالفكر البشري يحب الحوار، والالحاح به، والظفر فيه، ولا يرى في ذلك عيبا، وأشهد لقد حصل لي حادث مماثل سأذكره هنا، وليرِ القارئ رأيه فيه:
في جاكرتا عاصمة إندونيسيا كان يعيش - وأنا هناك - رجل عربي مسلم هاجر إلى إندونيسيا من نابلس بفلسطين منذ حوالي ثلاثين سنة، وتزوج في جاكرتا بفتاة مسيحية هولندية، وأنجب منها بعض أطفال.

----
(١) سورة عبس الآيات ١ - ١١.

وكان هناك حوار يدور أحيانا بين الزوجين عن بعض المبادئ الإسلامية، ولم يكن الزوج المسلم ذا ثقافة إسلامية واسعة يستطيع بها أن يدافع عن الإسلام، فقرر أن يدعوني لجلسة تثير زوجته فيها تلك الشبهات العالقة بنفسها عن الإسلام، وتمت هذه الجلسة بحضور مستشار سفارة مصر، ودار حديث طويل باللغة الإنجليزية بيني وبين السيدة المسيحية، وعرضت هذه السيدة المسيحية شبهاتها: تعدد الزوجات في الإسلام – الطلاق – نظام الميراث...

وأخذت أشرح وجهة نظر الإسلام في هذه المسائل، وطاب الحديث، وظهر أنني مسيطر على الموقف، ولانت المرأة وأبدت إعجابها بكثير من الاتجاهات الإسلامية، وكان زوجها يذكرها ببعض المسائل التي تعودت أن تتساءل عنها، فتثيرها، وأجيب، وفي وسط هذا النصر واللذة التي تصحبه كان المستشار يتدخل سائلا بعض أسئلة، ولكني كنت أعرض عنه وأؤجل الإجابة عن تساؤله.

والمهم – الذي أشهد الله عليه وأستغفره منه إن كان ذنبا – أنني كنت وأنا أتجه للمرأة المسيحية داعيا وأعرض عن المسلم السائل، كنت أتذكر حادثة الرسول آنفة الذكر، التي أعرض فيها عن المسلم واتجه يدعو جماعة إلى الإسلام، كنت أتذكرها تماما، ومع هذا ظللت أدعو المرأة المسيحية وأشرح لها، وظللت أعرض عن المسلم المتسائل، لأن اجتماعي بهذه السيدة في جلسة كهذه كان فرصة فريدة، أما اجتماعي بالسيد المستشار فكان يتم كل يوم تقريبا، والفرص عنده واسعة ليسأل عما يريد.

ذلك فيما يبدو اتجاه النفس البشرية، حرص على الدعوة وعلى تحقيق لذة الانتصار، وضم جماعة آخرين للدين الذي يعتنقه الداعي، ولكن اتجاه السماء مغاير، يصعب أن تسمو النفس الإنسانية إليه، إنه اتجاه تبينه الآيات الكريمة:

– فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم تؤمنوا بهذا الحديث أسفا (١).
– لو يشاء الله لهدى الناس جميعا (٢).
مرة أخرى لا يمكن أن تكون سورة عبس من صنع محمد، فلا يعقل قط أن يتصرف محمد هذا التصرف العادي، ثم يعود فيلوم نفسه هذا اللوم القاسي، ويجعل لومه قرآنا يتلى.
وليست هذه السورة فقط هي التي اتخذت هذا الاتجاه، فهناك آيات أخرى لا نقل عن سورة عبس إن لم تكن أشد منها وأقسى، اقرأ معي هذه الآيات:
– عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين (٣).
– ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم (٤).
– ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة؟ (٥).
– لولا كتاب من الله سبق، لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم (٦).
– لا تقل إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله، واذكر ربك إذا نسيت، وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا (٧).
– وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه (٨).
– لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن (٩).
– فاعلم أنه لا اله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات (١٠).
– لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك (١١).

---

(١) سورة الكهف الآية ٦.
(٢) سورة الرعد الآية ٣١.
(٣) سورة التوبة الآية ٤٣.
(٤) سورة التوبة الآية ١١٣
(٥) سورة الأنفال الآية ٦٧.
(٦) سورة الأنفال الآية ٦٨
(٧) سورة الكهف الآية ٢٤
(٨) سورة الأحزاب الآية ٣٧.
(٩) سورة الأحزاب الآية ٥٢.
(١٠) سورة محمد الآية ١٩.
(١١) سورة التحريم الآية الأولى.

وهكذا تصرفات من محمد لم يقرها العزيز الحكيم، فأنزل فيها سبحانه آيات من قرآنه يلوم بها ويوجه، ويقود فيها رسوله إلى المثل العليا ويعلمه بها ما لم يكن يعلم. إنها دلائل واضحة على أن محمدا لم يكن مدعيا وأنه كان رسول الله، وأن القرآن الذي جاء به كلام الله.

ولدينا دليل آخر على أن القرآن كلام الله وأنه ليس من كلام محمد، ذلك أن محمدا كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه، بحيث لو كان الأمر إليه لوجد لها مقالا ومجالا، ولكن كانت تمضي الليالي والأيام، تتبعها الليالي والأيام، ولا يجد في شأنها، قرآنا يقرؤه على الناس.

ألم يرجف المرجفون بحادث الإفك عن زوجه عائشة رضي الله عنها؟ وأبطأ الوحي، وطال الأمد، والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس " إني لا أعلم عنها إلا خيرا " ثم - بعد وقت طال وامتد - نزلت الآيات الكريمة: " إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم، لا تحسبوه شرا لكم بل هو خيرا لكم، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم... (١) ".

فماذا كان يمنعه - لو كان أمر القرآن إليه - أن يتقول هذه العبارات أو الآيات الحاسمة من أول الأمر، ليحمي بها عرضه، أو يذب بها عن عرينه، وينفي عن أحب زوجاته قول السوء (٢).

على أن محمدا لم يكنف بهذا وذاك دليلا على كون القرآن من عند الله، بل راح يعلن على المعاندين تحدي القرآن لهم أن يتأتوا بمثله أو بسورة من مثله، اقرأ معي هذه الآيات:

----

(١) سورة النور الآية ١١ وما بعدها.

(٢) المرحوم الدكتور عبد الله دراز: النبأ العظيم ص ١.

- أم يقولون تقوله، بل لا يؤمنون، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين (١).
- قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (٢).
- أم يقولون افتراه؟ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (٣).
- أم يقولون افتراه؟ قل فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (٤).
- وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين (٥).

وهكذا نجد ذلك التحدي متدرجا، يطلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن، فإذا ظهر عجزهم انتقل التحدي إلى عشر سور، فإذا عجزوا مرة أخرى تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة، وفي سور القرآن ما هو سطر واحد، ولكنهم حتى في هذا يعجزون. وتحدى العرب أن يأتوا بسورة قصيرة تحد مهين، فليس للعرب ثقافة إلا البلاغة، وثروتهم الفكرية محصورة في مجال الشعر والنثر والفصاحة والبيان، فإذا عجزوا في هذا البيان رغم التحدي السافر ورغم تعاونهم الذي وجههم إليه القرآن فذلك هو الخزي المبين، ولكن هيهات أن تصل قوى البشر إلى أن تقف وجها لوجه أمام قوى الله.

مرة أخرى نجدنا لا نستطيع أن نفترض عدم صدق محمد، ففرض كهذا لا ينتج إلا عن فكر سقيم ونظر كليل.

---

(١) سورة الطور الآية ٣٣ - ٣٤.
(٢) سورة الإسراء الآية ٨٨.
(٣) سورة هود الآية ١٣.
(٤) سورة يونس الآية ٣٨.
(٥) سورة البقرة الآية ٢٣.

ولكن ليس هذا فقط هو كل ما عندنا لإثبات صحة رسالة محمد، فإن محمدا أثبت لنا بما لا يحتمل ترددا أنه يحمل رسالة نظمتها قوة أسمى من قوى البشر، أتى لنا بأفكار وضحت لنا ما عجزت الإنسانية عن فهمه عبر القرون فيما يتعلق بما وراء الكون، وأتى لنا بنظم لشؤون دنيانا تكفل لمعتنقيها السعادة في مختلف الأزمنة والأمكنة.

قال لي زميل بجامعة كمبردج: قدم لي الإسلام وأثبت لي أنه رسالة من عند الله.

قلت له: لقد طلبت شيئا يسيرا، لو كنت عربيا لوضعت القرآن بين يديك لترى إعجاز نسجه وإعجاز أفكاره، ولدفعك هذا كما دفع كثيرين من العرب الإيمان برسالة محمد، ولكن رسالة محمد ليست للعرب فقط، إنها للناس جميعا وفيها براهينها لكل الناس، وهاك بيان ذلك:

محمد رجل أمي، لم يعرف القراءة ولا الكتابة " وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك " (١)، وهو قليل الثقافة، وبيئته كذلك محدودة الثقافة، ولكن رجلا كهذا جاء بنظام للميراث عاش أربعة عشر قرنا ولا يزال في ميعة الصبا، وعبر هذا النظام حدود الجزيرة العربية إلى عدة أقطار، واصطدم بمدنيات وثقافات متعددة، وقورن بأفكار البشر في رحلته الطويلة، ولكن رجحها ولا يزال يرجحها، تعال معي نقارنه بالنظام الإنجليزي الذي يعطي الميراث للابن الأكبر ويدع من سواه من الأبناء والبنات، وتعال نقارنه بالنظام الهولندي الذي يعطي نصف الثروة للزوجة ثم يقسم الباقي بالتساوي بين الأولاد والبنات والزوجة مرة أخرى، وتعال نقارنه بالنظم التي تعطي البنين وتحرم البنات كما كان متبعا لدى كثير من قبائل العرب ولدى السكان بشمالي

----

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٨.

إفريقية، وتعال نقارنه ببعض النظم التي تجعل الميراث لابنة الخالة الكبرى وتحرم من سواها، كبعض الأنحاء بإندونيسيا، تعال نقارنه بالنظم القديمة والحديثة وسنجده يرجح الجميع دون شك وباعتراف المفكرين المخلصين.

هذه واحدة، وجاء هذا الرجل الأمي بنظام للزواج، وبنظام للطلاق، ونظام للرق، ونظام للعبادات، ونظام للسياسة، ونظام للاقتصاد، وتنظيم للحرب، ولما بعد الحرب من مشكلات، وتنظيم لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي، وتحدث هذا الرجل عن موضوع اهتزت فيه عقول البشر مدى التاريخ وهو الله، وبين من هو الله في التفكير الإسلامي، وتحدث هذا الرجل عن ما وراء الكون فجلى كثيرا من النقاط (وسنشرح هذه الأشياء كلها أو أهمها في هذا الكتاب).

قلت لمحدثي: ترى أيمكن أن تكون كل هذه الأشياء من صنع محمد؟ أو أنها تعاليم تلقاها عن قوة أسمى من قوة البشر، من الله سبحانه وتعالى؟

وقبل أن يجيب محدثي كان هناك مسلم آخر يصغي باهتمام لما أبديه من شروح وإيضاحات، وسمعني هذا بعد هذه الشروح أسأل محدثي السؤال السابق، فسارع يجيب قائلا: إن كانت هذه الأشياء من صنع محمد فمحمد ليس بشرا، إن هذه التنظيمات وهذه الآراء تعجز عن القيام بها لجان كثيرة لها ثقافات عالية، وتخصصات عميقة، مهما أتيح لها من المراجع والدراسات والوقت.

قلت لمحدثي: ما رأيك؟

قال في يقين وثبات: نفس الرأي الذي قاله صديقنا، وأشهد أن رجلا أيا كانت عبقريته، وأيا كانت ثقافته، ليعجز عن أن يأتي بتنظيم في مسألة

واحدة من هذه المسائل، فما بالك بكلها مع تنوعها وتلون اتجاهاتها، واعتنق هذا الزميل الإسلام، وسمى نفسه محمدا تيمنا بالرجل الذي جاء هذا الخير على يديه، ولا يزال حتى الآن يزداد حبه للإسلام وإعجابه بنبي الإسلام.

تلك هي دعوة الإسلام، تضعها في الميزان فترجح، تختبرها فتزداد فيها يقينا وبها إعجابا، وتناقشها بالعقل والمنطق فتساير العقل والمنطق، وتبحثها بالحكمة والتؤدة فتصل إلى القول الفصل. لقد صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما قال، جاء برسالة من عند ربه، أبانت لنا كل الشؤون، وضمنت لنا خير الدارين، فاعتنقناها، لا لأن آباءنا سبقونا إليها، لا، لا، بل لأنا درسناها في عناد أحيانا وتؤدة أحيانا فغلبتنا في كل حين، وأبانت لنا أنها جمعت كل ما في الرسالات السابقة من خير، وأنها أضافت إليها ما يناسب تقدم البشرية، وما يضمن للجنس البشري في رحلته التي لا يزال يقطعها الاستقرار والسلامة، إنها رسالة اليسر والبساطة، تدخلها دون عناء أو طقوس، وتصلي حيث تكون، وحدك أو مع جماعة، إذ جعلت الأرض كلها مسجدا للمسلمين، وليس بين المسلم وربه وسيط يعمده، أو يجيز زواجه أو يتلقى اعترافه، أو يبيع له جنات الخلد، إنها رسالة الحرية والسلم، رسالة العقل والقلب، رسالة المادة والروح، رسالة التعاطف والقوانين. فلنسر معا نبسط أبرز المسائل التي شرحها هذا الدين، وأتى بها محمد من عند ربه بفصل الخطاب.

الله

ما أظلم الإنسان وأقساه، كيف يحاول في ضعفه وجهله أن يتحدث عن الله؟

ولكن الله رب العالمين الذي أجله قوم وعبدوه، وسجدوا له وأحبوه، ينكره آخرون ولا يعترفون به، ولا يدركون آلاءه، ولا يشهدون بهاءه.

لماذا أنكره هؤلاء؟

وكيف السبيل لقيادتهم إلى النور ولرفع الشكوك من نفوسهم والغشاوة عن قلوبهم؟

هذا ما سنحاول أن نجليه هنا، ولكن حديثنا على كل حال لن يكون مقصورا على من أنكر وشط عن الهدى، بل سنتجه بحديثنا أيضا إلى قوم وقفوا حيارى، يطلبون سواء السبيل فلا يصلون إليه، لأن خبراتهم ومعارفهم لا تصل بهم إلى هذه الغاية، وسنتجه بحديثنا أيضا إلى قوم لم ينكروا الله ولكنهم أيضا لم يعرفوه لأنهم لم يطلبوا هذه المعرفة، ثم سنتجه بحديثنا كذلك إلى قوم آمنوا بالله واعترفوا به إيمان تسليم وإذعان فقط، لعلنا نرفع مستوى ذلك الإيمان فنجعله إيمانا عن فكر ودراسة ويقين به وكم يكون سرورنا بالغا إذا قدمنا بحديثنا هنا للعارف بالله زادا جديدا يقوى به إيمانه، ويزيده ثقة ويقينا.

وسيشمل حديثنا عن الله جل جلاله ثلاثة مباحث هي: وجوده، ووحدانيته، وصفاته.

وجود الله:

نعود للسؤال الذي سألناه من قبل وهو، لماذا لا يعترف كثير من الناس بالله ولا يؤمنون بوجوده؟

الجواب عن ذلك سهل يسير، هو أنهم ماديون والله ليس مادة.

والحقيقة أن مادية الإنسان متسلطة عليه، مسيطرة على قواه، وكثير من

الناس يخضعون لهذه المادية ويرونها فلسفتهم ويبنون تفكيرهم على توجيهها وإرشاداتها، وكثير آخرون يقاومون هذه المادية في نفوسهم وينعشون بذور الروحانية فيهم، وهؤلاء درجات متفاوتة، أعتقد أني لا أظلم الناس لو قلت إن قليلين جدا هم الذين سموا بروحانيتهم إلى الطبقة العليا.
وبعض الفقهاء مع ورعهم لا يخلو حديثهم من اتجاه مادي فيما يتعلق بالله جل وعلا، فتراهم عندما يتحدثون عن الإسراء والمعراج – وهو قطعا بالروح والجسد فيما يتعلق بالرسول – يبدو في حديثهم اتجاه مادي فيما يتصل بالله، فهم يتخيلونه جالسا في أعلى عليين، ويصورون محمدا صاعدا إليه سماء بعد سماء، مع أنهم يعرفون الاتجاه السليم الذي يرى أن الله ليس له مكان، أو أنه سبحانه في كل مكان، ويقرأون في ذلك قوله تعالى " وسع كرسيه السماوات والأرض (١) ".
أيها القارئ، أيا كان اتجاهك الديني، هل تنكر أنك مادي؟
إن كنت تنكر ذلك فإني سأسرد لك من حياتك اليومية صورا بسيطة ساذجة لتمتحن بها ماديتك وروحانيتك:
أنت – أغلب الظن – تستعمل معجون أسنان وفرشاة، وعند ما تنفد أنبوبة المعجون تذهب توا لشراء أنبوبة أخرى، ولكن اسأل نفسك: متى تشتري فرشاة أخرى؟ إن نصائح أطباء الأسنان تقضي بأن الفرشاة يلزم أن يستبدل بها غيرها من حين إلى آخر، لأنها تصبح غير صالحة للاستعمال بعد فترة من الزمن، وإن كانت لا تزال تحمل الشعيرات وتبدو كأنها سليمة.
فأنت لا تتأخر عن شراء أنبوبة المعجون يوما واحدا لأن انتهاء صلاحيتها شئ مادي، ولكنك غالبا تؤجل شراء الفرشاة لأن انتهاء صلاحيتها ليس واضح المادية وإن كان لا يخلو منها.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

وأنت تمرض جسمانيا فتسارع للطبيب لأن مرض الجسم شئ مادي تحس به، فإذا أرشدك الطبيب لدواء اتبعت تعليماته بكل دقة، ولكنك تمرض نفسيا أمراضا بأشد فتكا من أمراض الجسم وأشأم أثرا، وتحس بهذه الأمراض وتدرك خطرها عليك وعلى الناس. فهل تسارع لطلب الدواء للخلاص من هذا الداء؟

هل تحس أنك حسود؟ أو تكره الناس؟ أو لا تميل إلى التعاون؟

وهل تحس بالكبر وعدم أداء الواجب؟

كل هذه أمراض فتاكة تنزل بالإنسان، وقل من يحاول أن يجد لها العلاج، وقل من يقبع سبل العلاج إن حصلت له، لماذا؟ لأن الإنسان مادي يعيش للمادة ولا يهتم كثيرا بالروحانيات.

وأنت تشتري قلم الرصاص وتشتري معه مبراة، ويصغر القلم رويدا رويدا حتى لا تستطيع أن تمسك به فتلقى به جانبا وتسرع فتشتري قلما آخر، ولكنك لا تشتري مبراة أخرى مع أنها في الحقيقة قد انتهت صلاحيتها للعمل كما انتهت صلاحية القلم، ولكن انتهاء القلم مادي فقد صغر وصغر، أما انتهاء صلاحية المبراة فليس واضح المادية ولذلك تحاول استعمالها مرة أخرى ومرات، وهي لا تستجيب لك، وربما أفسدت لك الأقلام، ولكنك تظل تلح عليها لأنك لا تريد أن تدرك غير المادة.

وأنت أيها المسلم تصلي وتتجه إلى البيت الحرام، وأنت أيها المسيحي تتجه أيام الآحاد إلى الكنيسة، ويتجه البوذي والهندوكي وغيرهما إلى المعابد، ويصلي كل من هؤلاء صلاته، يقرأ ويدعو ويركع ويسجد. ولكني أسألك:

هل كنت متجها إلي إلهك بقلبك وأنت تصلي؟

وهل كنت تحس بأنك تكلمه وتعيش معه وتناجيه؟ أو أنك مادي ينطق لسانك وتتحرك أعضاء جسمك، وقلبك في شغل عن هذه الصلاة؟

إن كنت تفعل ذلك فأنت تؤدي من الصلاة جانبها المادي وتفقد حلاوة روحانيتها.

وهكذا تتجه حياة الإنسان، كلها مادة، والجانب الروحي فيها ضئيل مغلوب على أمره، فإذا قيل للإنسان شئ عن الله. أسرعت المادية إلى نفسه أو إلى لسانه، ففكر أو سأل: أين يسكن الله؟ وما شكله؟ وما لونه؟ وأين كان قبل أن توجد السماوات والأرض، أو بعبارة أخرى اتجه بالله اتجاها ماديا، فإذا لم يره بعينه أو لم يمسه بيده، أنكره، وربما هاجمه.

قال لي محدثي وهو من هؤلاء - وكنا نتكلم عن الله - لماذا لا يظهر الله للناس ويريهم سلطانه وعظمته ليؤمنوا به وليدينوا له بالطاعة؟

ودهشت لهذا السؤال ولكني تمالكت نفسي وبدأت أجيب:

قلت له: إنك لا تؤمن إلا بما ترى، فهل تؤمن بروحك التي تتسلط على أعضائك لأنك لا ترى هذه الروح؟ ثم إنك يا محدثي تريد أن يظهر الله، وهل اختفى حتى تتطلب ظهوره؟

إنه " الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم (١) ".

إنه " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (٢) " إنه " الله لا إله إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السماوات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السماوات والأرض، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم " (٣).

إنه الله الذي " لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء " (٤).

وقلت له: ولكنك يا محدثي إنسان مادي تريده جسما والله ليس بجسم،

---

(١) سورة الحديد الآية الثالثة.

(٢) سورة غافر الآية ١٩.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(٤) سورة آل عمران الآية الخامسة.

تريده مادة وهيهات أن يكون الله مادة، ثم يا محدثي الأجل كيف تريده أن يظهر؟ أتريده انسانا ضخم الجثة، مهيب الوجه، يأمر الريح فتهدأ، والميت فيحيا، والبحر فيجف؟ هل يكفيك هذا لتؤمن به؟ ولكن هل نسيت يا محدثي أن عيسى أحيى الموتى وشفا المجذوم، وأن البحر جف لما ضربه موسى بالعصا، ومع هذا فقد ضل أتباع هذا وذاك؟ فأهمل أتباع موسى إلهه الذي كان يدعو إليه وراحوا يعبدون عجل السامري، وحكم قوم عيسى عليه بالقتل صلبا، وعملوا على تنفيذ حكمهم فيه؟

وإذا جاءك الله بجلاله ودخل بيتك وأقام لك المعجزات لتؤمن به، فهل تريده أن يطوف بكل الدور في الدنيا الواسعة وأن يقف بكل منها وقفة يثبت ألوهيته ويقيم عليها الأدلة والبراهين؟ وما رأيك في أنه عندما ينتقل من قرية إلى قرية سيدع في القرية التي خلفها ألوانا من الشكوك والريب، وسيقول قوم: إنه ساحر، وسيقول آخرون: إنه مفتر أثيم؟

لا يا محدثي، المسألة أنك مادي، عميق الجذور في المادية، والطريق الوحيد لتدرك الله أن تقوي جانبك الروحي والفكري.

وقال لي محدث آخر: إذا كان الله موجودا وخالقا للخلق وعادلا فلماذا لا ينصر المظلوم؟.

قلت له: إن انتصار الله للمظلوم دليل نتخذه لوجود الله، ونعتقد أن الظالم لا بد أن يثأر منه، وأنه ليس هناك حجاب بين الله وبين دعوة المظلوم، ولكنك يا صديقي مادي أيضا تتصور الله شرطيا يهتف به المظلوم فيسعى له الله في الحال وينزل بظالمه العقاب، والله يا سيدي ليس شرطيا، إنه يدبر الأمور بعمق أكثر مما تتصور، وينزل العقاب حينما وكيفما يرى ذلك.

وقد يكون من الحكمة أن يمهل الله الظالم فترة، حتى إذا تجمعت ألوان الظلم التي يوقعها بالآخرين أنزل الله به سخطه وعقابه. قال تعالى: " إنما نملي لهم ليزدادوا إثما " (١).

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٨.

وأنت يا محدثي تحدد المظلوم وتشفق عليه، مع أنك لا تعرف المظلوم حقيقة ولا تعرف من قصته إلا ما تراه، ألا يمكن أن يكون من تراه مظلوما هو في الحقيقة ظالم، ولكنه يتظاهر بأنه مظلوم ليخدعك بدمعه أو صراخه؟ ألا يمكن أن يكون ما يقع عليه من ظلم تراه، هو في الحقيقة انتقام لظلم أوقعه هذا الباكي بسواه من قبل وأنت لا تعرف؟ اقرأ معي هذه الآيات:

- ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض (١).
- ولكن الله يسلط رسله على من يشاء (٢).
- وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون (٣).

وتحضرني قصة عربية ليست بعيدة عما خطر لك يا محدثي الفاضل أسردها لك لترى تدبيرك وتدبير الآخرين: تروي كتب الأدب أنه – في نقائض جرير والفرزدق – هتف جرير يهدد صاحبه:

ذاك ابن عمي في دمشق خليفه * لو شئت ساقكم إلى قطينا

وكان الخليفة ابن عم جرير حقيقة، فماذا فعل الخليفة؟ هل انتصر للشاعر ابن العم؟ هل خذله؟ الجواب أن الخليفة قال لابن عمه الشاعر: إنك ما زدت عن أن جعلتني شرطيا، ولو قلت: لو شاء ساقكم إلى قطينا، لسقتهم إليك. هذا هو الخليفة الأموي لم يرض أن يكون شرطيا لابن عمه الشاعر، فهل تريد الله في جلاله وجبروته أن يكون شرطيا لمن تراه أو لمن يرى نفسه مظلوما؟ وتريد الله أن يسرع للظالم ويمسك بتلابيبه؟ الإجابة مرة أخرى إنك مادي، ومعرفة الله تحتاج إلى جانب روحي لأن الله ليس بمادة.

ومحدث ثالث صرخ في وجهي ينكر الله ويقول: لو كان هناك إله ما خلق طفلا أعمى أو أخرس أو مشوه الخلقة، لأن هذا الطفل لا ذنب له فيما وقع به من سوء.

---

(١) سورة الحج الآية ٤٠.
(٢) صورة الحشر الآية السادسة.
(٣) سورة الأنعام الآية ١٢٩.

قلت له: يا سيدي إنك مادي تقيس الأمور بمقياس المادة وهو مقياس ضئيل لا يصل بصاحبه إلى غاية محمودة، اسمع يا سيدي – وكان الحديث يجري في إنجلترا عقب الحرب العالمية الثانية – ما رأيك فيمن أكلتهم الحرب أو شوهتهم وسلبت عيونهم؟

قال: لقد ضحوا ليسعد الآخرون.

قلت: ولماذا لا تعتقد أن ألوف الآباء سيحسون بالسعادة وينطقون بالشكر لسلامة أبنائهم عندما يرون المشوهين؟ ولماذا تنسى أن هذه العاهة قد تكون مصدر خير على صاحبها؟ والذي لا أشك فيه أن بعض العميان وصلوا إلى مكانة ما كان من الممكن أن يصلوا إليها لو كانوا مبصرين. ولماذا لا تعتقد إنه لولا هذه العاهة لكان من الممكن أن يكون هذا الإنسان مصدر شر وبيل على الإنسانية؟ ولماذا تنسى الملايين الذين خلقهم الله فأحسن حلقهم ثم تنكر وجوده لهذا الشئ النادر الذي لا بد أن يكون لحكمة نستطيع أن ندركها حينا، ولا نستطيع أن ندركها حينا آخر، بسبب اتجاهاتنا المادية وضعف الناحية الروحانية فينا؟

الفطرة والوجدان:

تلك صور من المادة والماديين، على أن هؤلاء في وسط ضلالاتهم وماديتهم يعترفون بالله بفطرتهم، فالفطرة في ذاتها سليمة " ولا يكاد يوجد فوق الأرض مخلوق لا ينطوي على شئ من الشوق الروحاني، أو شعور باطن مبهم بأن هناك قوة عليا يتوجه إليها بفطرته " (١) وهذه الفطرة السليمة يتراكم عليها الصدأ في كثير من الأحوال بسبب الاتجاهات المادية وقلة الثقافة الروحية، ولكن الفطرة تتغلب على الصدأ أحيانا تحت تأثير منظر رائع، أو نجاح خارق، أو هزيمة قوي أمام ضعيف،

----

(١) مجلة المختار: أكتوبر ١٩٤٤.

أو ما شابه ذلك، فإذا بالوجدان يتيقظ، وإذا بالفطرة تعود، وإذا بالإنسان الذي كان ضالا يهتف: يا سبحان الله!! لا قوة إلا بالله.

ومعرفة الله هكذا عن طريق الفطرة والوجدان والضمير معرفة لا تحتاج إلى دليل، إنها صحوة لهذا الوجدان، ويقظة للجانب الروحي، ومن الواضح أن هذا الجانب متفاوت في الإنسان، ولذلك فدرجات يقظته تتناسب مع درجات وجوده، ولكن الجانب الروحي موجود على كل حال. ومن الأسباب التي تزيل الصدأ عن الوجدان وتنعش ما ضعف من الجانب الروحي،، الشدائد والكوارث التي تنزل بالإنسان، وكلما كثرت الشدائد وقل المعين كلما تساقط الصدأ وبدأ الوجدان يطهر وينشط، اقرأ معي هذه الآيات لا على أنها قرآن مجيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بل على أنها تصوير دقيق للنفس البشرية لا يستطيع أحد جحوده. قال تعالى:

- وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه (١).
- هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها، جاءتها ريح عاصف، وجاءهم الموج من كل مكان، وظنوا أنهم أحيط بهم، دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين (٢).
- وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه (٣).
- وما بكم من نعمة فمن الله، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون (٤).

---

(١) سورة يونس الآية ١٢.
(٢) سورة يونس الآية ٢٢.
(٣) سورة الروم الآية ٣٣.
(٤) سورة النحل الآية ٥٣.

على أن الماديين قد منوا بهزيمة ساحقة قوضت عليهم البنيان المادي الذي شيدوه، لقد اتخذوا العالم على أنه مادة، ولادة وحياة ثم موت وفناء، وإذا بالأبحاث تثبت وجود الروح بعد موت صاحبها وهو اتجاه الإسلام في شأن الروح وقد قال عنه الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ما يلي: والذي ترشد إليه الآثار الدينية أن الروح تخرج من بدن الإنسان فيكون الموت، وأنها تبقى ذات إدراك، تسمع السلام عليها، وتعرف من يزور قبر صاحبها، وتدرك لذة النعيم وألم الجحيم، وأن مقرها يختلف بعد مفارقة البدن بتفاوت درجاتها عند الله (١).

وقد أجريت تجارب لتحضير الأرواح حضرت بعضها بنفسي، ولست أستطيع أن أنفيها ولا أثبتها، فالنظم التي اتبعت في تحضير الروح أمامي كانت إلى البدائية أقرب، فلم تصل بي إلى درجة اليقين، وإن كنت كما قلت لا أستطيع أن أنفيها لأن مظاهر حصلت أمامي لا أعتقد أنها من الخداع أو الترهات، وإذا كان هذا موقفي فإن كثيرين من الباحثين أتيحت لهم فرص أوسع، شهدوا فيها ما جعلهم يؤكدون أن الروح كائن حي وأنه يمكن الاتصال بها بعد موت صاحبها.

والماديون أكثر حاجة لدراسة هذا الموضوع لعلهم بعد أن يدركوا شأن الروح، تنهار المادية المتسلطة عليهم.

وعن طريق الفطرة والوجدان الذي سبق أن تحدثنا عنه والذي يقودنا إلى الاعتراف بالله دون حاجة إلى دليل أو برهان، عن هذا الطريق يقول برودن: إن ضمائرنا قد شهدت لنا بوجود الله قبل أن تكتشفه عقولنا.

ويقول الأستاذ العقاد (٢): في رأينا أن مسألة وجود الله مسألة " وعي " قبل كل شئ، فالإنسان له " وعي " يقيني بوجوده الخاص

---

(١) الفتاوى ص ١٥.
(٢) الله ص ٢١١.

وحقيقته الذاتية، ولا يخلو من " وعي " يقيني بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية.

وبجوار هذا الدليل هناك أدلة أخرى نستطيع أن نعتمد عليها للتدليل على وجود الله سبحانه وتعالى، وهذه الأدلة هي: الدليل العقلي والدليل النقلي والتجربة الشخصية، وعن كل منها سنتحدث حديثا خاصا هو – حتى ما يتعلق بالدليل النقلي – إلى الاتجاه العلمي أقرب منه إلى الاتجاه الديني، كما سيبدو فيما بعد

الدليل العقلي:

كثيرون من الناس يطلبون الدليل العقلي على وجود الله، ولدينا هذا الدليل العقلي الذي عقدنا له هذا الجزء من الحديث، والحقيقة أن القرآن الكريم – كما سيأتي – حث الناس على استعمال عقولهم ليعرفوا الله خلال ذلك، ولكنا نريد أولا أن نوضح غرور الناس بعقولهم، وكيف وصل كثير منهم إلى الهاوية بسبب هذه العقول، وفي المثل الريفي الذي سمعته منذ نعومة الأظفار بقرانا في مصر: " كل واحد راض عن عقله وساخط على جيبه " وهذه حقيقة واضحة، فأغلب الناس أو كلهم يعتقدون أنهم أذكياء، وفي غاية الفطنة، وقلما يعترف واحد منهم بقصور عقله أو بتفوق شخص آخر عليه في القريحة والمواهب، وقد جلب هذا الوضع الشقاء للناس، أي أنهم تعسوا بعقولهم وكان عليهم أن ينعموا بها، وسبب تعاستهم بهذه العقول أنهم تعرضوا لأشياء تقصر عقولهم عن الوصول إليها، تعال معي لتختبر عقلك:

أنت ترى بعينيك، فهل تعرف كيف ترى؟

وأنت تسمع بأذنيك، فهل تدرك كيف تسمع؟

وتحمل في جسمك آلات من أنواع مختلفة، بعضها يتبع الدورة الدموية، وبعضها يتبع الدورة الغذائية.. فماذا تعرف عن هذه الآلات؟

وفي يدك ساعة تدرك بها الوقت، فهل تعرف كيف تعمل هذه الساعة؟

وفي بيتك مذياع وجهاز تلفزيون، فهل تدرك كيف تلتقط الأحاديث والصور وتنقل إليك؟

وألم يحصل لك أن قرأت كتابا ثم عجزت عن فهمه أو فهم سطور منه؟

وألم تشتر مرة قماشا بعد اختبار واختيار، ثم تبين لك أن عقلك قد خدعك، أو ضعف عن حسن الاختيار فأعدت القماش أو كرهته؟

وهكذا أستطيع أنا وتستطيع أنت أن نعد مئات الأمثلة عجز فيها عقلك عن فهم أمس الأمور به وأسهلها تناولا، وهي أمور معروفة لكثيرين من الناس، فطبيب العيون يعرف كيف ترى العين، وطبيب الأذن يعرف كيف تسمع الأذن، وصانع الساعات يعرف كيف تعمل الساعة، وهكذا، فطبيعة هذه الأشياء أن يدركها العقل، ومع هذا عجزت عقول الأغلبية عن فهمها، واكتفت هذه الأغلبية بفهم المختصين لهذه الأمور، فإذا مرضت عين شخص أسرع للطبيب وسلمه قياده، وإذا فسد المذياع حملناه إلى المختص وتركناه بين يديه، ومن أجل هذا أسألك أن تكون كذلك في ميدان معرفة الله عن طريق العقل، أي أنك إذا أحسست قصورا فحذار أن تنكر الله، ولكن سارع فأعط القيادة ربانها، واتبع من سبقوك في معرفة الله بسمو مواهبهم.

إما إذا أحسست أن عقلك من الفطنة بحيث يصل إلى هذا المستوى السامي فلا بد أن تستعمله ليكون إيمانك أوثق وأعمق، وقد حثك القرآن على استعمال عقلك كما سبق القول، وقدم لك مادة تستطيع خلالها – إن كنت موهوبا – أن تثبت يقينك في الله، اقرأ هذه الآيات:

- هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون، وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون، وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حليه تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون، وعلامات وبالنجم هم يهتدون، أفمن يخلق كمن لا يخلق؟ أفلا تذكرون؟، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم (١).

- والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير، فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون (٢).

- والذي خلق الأزواج كلها، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون، لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه، وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (٣).

ويجدر بنا أن نعلق تعليقا سريعا على هذه الآيات التي توضح أن الله سخر لنا ذوات قوى كان من الممكن أن تطغى علينا بما بها من قوة وجلال وصلابة، وليتذكر القارئ ضخامة الجبل وعظمة البحر، وقوة الجمل

---

(١) سورة النحل الآيات ١٠ - ١٨.
(٢) سورة الحج الآية ٣٦.
(٣) سورة الزخرف الآيات ١٢ - ٣.

والثور والحصان، ومع هذا فإن الله قد ذللها لنا فأسكن الجبل والبحر، وجعل الحيوانات القوية تذل للولد الصغير، بضربها ويركبها ويحمل عليه، وما كان البشر بمستطيع ذلك لولا قوة الله التي طمأنت من جبروت هذه المخلوقات وأخضعتها لمصالح الإنسان.

ومن أجل هذا يوضح الله في الآيات السابقة أن على البشر أن يشكروا الله أن سخر لهم هذه القوى، وما كانوا بدون ذلك بمستطيعين أن يتغلبوا عليها وينتفعوا بها، ولا يزال الإنسان من حين إلى آخر يرى البحر يثور، والجبال تهتز، والحيوان يشرد ويتمرد، ويقف الإنسان ضئيلا أمام هذه القوى، ويبدو على حقيقته من الخور والضعف حتى يأتيه عون الله فيعيد هذه الكائنات إلى الخضوع والاستكانة، ويعيد للإنسان القدرة على السيطرة عليها، وما كانت هذه الثورة العارضة إلا تذكيرا للإنسان بحقيقة قواه وحقيقة القوى المسخرة له.

ولنعد إلى اقتباس مزيد من الآيات القرآنية التي تحت على استعمال العقل لمعرفة الله:

- وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك الآيات لقوم يعقلون (١).
- أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شئ بصير (٢).
- ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم (٣).

ويقول الأستاذ الإمام محمد عبده: وللإسلام دعوتان: دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده، ودعوة إلى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم،

----

(١) سورة الرعد الآية ٤.
(٢) سورة الملك الآية ١٩.
(٣) سورة الروم الآية ٢٢.

فأما الدعوة الأولى فلم يعول فيها إلا على تنبيه العقل البشري، وتوجيه النظر في الكون، واستعمال القياس الصحيح، والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب، وتعاقب الأسباب والمسببات، ليصل بذلك إلى أن للكون صانعا، واجب الوجود، عالما حكيما قادرا (١).

وقد حصلت لي تجربة خاصة في التدليل على وجود الله، سأقصها هنا كما حدثت مع شئ من الايجاز بقدر الطاقة.

كنت في زيارة رسمية لأحد أقاليم إندونيسيا حيث أمضيت عشرة أيام، وقد نظم لي مكتب الوزارة عدة اجتماعات خاصة وعامة لإلقاء محاضرات على المدرسين والهيئات والجماهير، وفي ذلك الإقليم كانت هناك رابطة للذين تلقوا علومهم في الغرب، أو اتجهوا بأفكارهم إلى الثقافة الغربية، وخلال الأيام الأولى لزيارتي لم يهتم أفراد هذه الرابطة بمحاضراتي ولم ينضموا للجماهير الغفيرة التي كانت تحضرها، وحجتهم في مقاطعة هذه المحاضرات اعتقادهم أن المحاضر يتحدث عن الدين كما تعود كثير من الشيوخ أن يفعلوا، يرغبون في طاعة الله، ويحثون على العبادة، وهكذا، ومستوى مثل هذه المحاضرات التي تخيلوها لم يكن يناسب ثقافتهم ومعارفهم.

غير أن هؤلاء المثقفين عرفوا بعد أيام من زيارتي أن الأحاديث التي كنت ألقيها عالية المستوى كما قالوا لي فيما بعد، وقد أغراهم ذلك بالاتصال بي، فأرسلوا لي مندوبا عنم يسألني عما إذا كنت مستعدا أن ألقى محاضرة بناديهم تكون عبارة عن إجابات لشكوك دينية أصبحت لديهم حقائق أو عقائد، وأجبت على الفور بالقبول، وكانت ليلة طويلة حضرها هؤلاء المثقفون، وحضرها جماعات غفيرة سواهم ليروا هذا اللقاء وينظروا نتائجه.

----

(١) رسالة التوحيد ص ٥٢.

وقدمني رئيس الرابطة تقديما رائعا كله تقدير واحترام، وشكرت فأطنبت، ثم بدأت أتكلم، ورغبة في تشجيع المتشككين ليظهروا شكوكهم، ذكرت أنني شخصيا مرت علي في حياتي بعض صور من الشكوك والغموض، وربما مرت هذه الصور أو شطر منها بمن هو أرقى منا درجة في المعرفة، فالقرآن الكريم يحدثنا عن إبراهيم وكيف سأل ربه: رب أرني كيف تحيي الموتى. قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي (١). وكيف سأل موسى ربه: رب أرني أنظر إليك (٢).

وانطلق القوم بعد ذلك يسألون، وانطلقت أجيب: ومن إسناد الفضل لمانحه أن أقرر أن عونا ضخما جاءني من الله، وأن فيضا من عرفانه طاف بي وأمدني ذلك المساء، والذي يهمنا هنا من ذلك الموضوع أن من بين الأسئلة سؤالا أثاره واحد منهم، وكان تعبيرا عما يدور بخلد الجميع، قال:

أنا أنكر أن للكون إلها، وأعتقد أن الناس عمل الطبيعة، ولدوا وعاشوا ثم يموتون، فهل عندك دليل واضح على وجود الله؟

وأجبته في حزم ويقين: إن عندي من الأدلة ما يجعل اللبيب يرى الله ويوقن به أكثر من يقينه أنه إنسان، ولكن السؤال الذي يهمني هو: هل أنت جاهل تريد أن تتعلم أو جاحد تريد أن تناقش وتناضل وترد كل دليل يلقى إليك دون فكر ولا روية؟ إن كنت جاهلا فأنا قمين أن أعلمك، وإن كنت جاحدا فلست أستطيع لك الهداية، فلتبق بعيدا عن الله وليبق بعيدا عنك هدى الله، ولن يضيره شئ أن تنكره.

---

(١) سورة البقرة الآية. ٢٦

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٣.

قال: أنا جاهل أريد أن أتعلم.
قلت: جميل، ولكن لتدرك وليدرك منك أصحابنا الجالسون معنا أن المرض الذي ألم بك مرض خطير، وأن علاجه يحتاج إلى وقت ليس بالقصير، فلنصطنع الصبر، وأنا كفيل بالنتيجة هذا المساء على كل حال.
ما الدواء الذي قدمته للحاضرين؟ إنه نقاط مما ورد ويرد ذكره في هذا البحث ولكني اعتمدت أكثر الاعتماد على آية من الآيات السابقة التي ساقها الله جل جلاله دليلا على وجوده وعظمته، تلك هي قوله تعالى: " ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم " (١).
قلت للحاضرين وفي قمتهم أعضاء هذه الرابطة: هل فيكم مهندسون متخصصون في العمارة؟ فأشار خمسة منهم بالايجاب، فأعطيت كلا من الخمسة ورقة،
وقلت لهم إن عندي قطعة أرض طولها ثلاثون مترا وعرضها عشرون، وأود أن أقيم بها مسكنا لي، أمامه حديقة صغيرة، فأرجو أن يعمل كل منكم تخطيطا تقريبيا لهذا المنزل، وفكر الجميع وخططوا، وبعد فترة قدموا لي نتائج عملهم، فنظرت فيها وقلت: آسف، لا تعجبني هذه الاقتراحات، فأرجو أن تحاولوا مرة أخرى. وحاولوا مرة أخرى، ثم مرة ثالثة، وعرضت هذه الاقتراحات على الحاضرين فظهر أن بعضها مكرر مرة أو أكثر من مرة، وسألت ماذا لو طلبت منكم أن تعملوا عشرة رسوم أو عشرين؟ فأجاب أحدهم: إن التكرار سيوجد قطعا ويزيد، وستتقارب رسوم أخرى إلى درجة كبيرة.
قلت: قارنوا هذا بخلق الله، الذي خلق ملايين البشر، واستطاع في هذه المساحة الصغيرة التي هي الوجه أن يميز بين هذه الملايين بحيث لم تختلط

---

(١) سورة الروم الآية ٢٢.

ولم يكرر فيها قط، بل جعل في كل منها شيئا ليس في الآخرين، يتميز به كل إنسان عن الباقين، وكما فعل الله تعالى في الأشكال فعل في الأصوات، فملايين الناس يتكلمون اللغة العربية، وملايين يتكلمون الإندونيسية، ومئات الملايين يتكلمون الإنجليزية، وهكذا، ولكن الله جعل لكل إنسان بحة خاصة وصوتا معينا، بحث لا تختلط هذه البحة ولا ذلك الصوت بشخص آخر، فإذا سمعنا صوتا ألفناه، عرفنا صاحبه قبل أن نراه، ولا نستطيع أن نقول: إن هذا صوته غليظ وذلك صوته أجش، لا، ولكن هناك شيئا ميز الله به بين الأصوات، وذلك الشئ لا ندري كنهه، ولكنه موجود على كل حال، وبه نفرق بين أصوات الناس كما فرقنا من قبل بين أشكالهم.

ومثل هذا يقال عن اختلاف الخطوط واختلاف البصمات، فلكل إنسان طابع خاص في خطه، فلا تكاد ترى خطا أليفا لك حتى تعرف كاتبه.

أما البصمات، فقد أثبتت كل الأبحاث العلمية أنها تختلف اختلافا واضحا من شخص إلى آخر، وأصبحت في الأبحاث الجنائية عظيمة القيمة، لهذا السبب.

ولو قارنا هذا بما يصنعه الإنسان لوجدنا البون شاسعا، فالأبواب في العمارة الواحدة متماثلة تماما، والسيارات أو الأسرة أو المراوح الكهربائية التي تنتجها شركة معينة، متماثلة تماما مما يبرز الفرق بين صنع الله وصنع الإنسان.

وانتهت هذه الجلسة بعد سهرة طويلة، قدمت فيها ما عرفت ما ذكرت ومما سأذكر، وخرج هؤلاء المثقفون وهم أقرب إلى اليقين، أو قل: وهم ينعمون بحلاوة اليقين إلا من طمس الله على قلبه، وأعتقد أنهم كانوا قلائل.

وهناك محادثة مماثلة جرت بين سقراط وبين أريستوديم الذي ينكر الألوهية، وسأقتبس موجزا لهذه المحادثة من الأستاذ محمد فريد وجدي (١):

سقراط: أيوجد رجال تعجب بمهارتهم وجمال صنائعهم؟

أريستوديم: نعم، أعجب في الشعر القصصي بهومير، وفي التصوير بزوكسيس، وفى صناعة التماثيل ببوليكتيت.

سقراط: أي الصناع أولى بالأعجاب، الذي يخلق صورا بلا عقل ولا حراك، أم الذي يبدع كائنات ذات عقل وحياة؟

أريستوديم: طبعا الذي يبدع الكائنات المتمتعة بالعقل والحياة، إذا لم تكن تلك من نتائج الاتفاق.

سقراط: وهل يمكن أن يكون من الإنفاق أن تعطي الأعضاء لمقاصد وغايات خاصة؟ عين ترى، وأذن تسمع، وأنف يشم، ولسان يتذوق، والعين تحاط بحراسة لحساسيتها وضعفها، فتقفل عند النوم أو عند الحاجة، وتحس بالرموش والحواجب، ويجعل الأذن جهاز خارجي يجمع لها الصوت، هل يمكن أن يكون كل ذلك من نتائج الاتفاق؟ والميل المودع في النفوس للتناسل، والحنان المخلوق في قلوب الأمهات بالنسبة الأولاد، مع ندرة أن ينفع ولد أباه أو أمه، والطفل الذي يلهم الرضاعة بمجرد ولادته... هل يمكن أن يكون ذلك كله من نتائج الاتفاق؟

---

(١) دائرة المعارف، مادة إله ج ١ ص ٤٨٦ – ٤٨٨.

أريستوديم: لا، إن ذلك يدل على الابداع، وعلى أن الخالق عظيم يحب الكائن الحي، ولكن لماذا لا نرى الخالق؟
سقراط: وأنت أيضا لا ترى روحك التي تتسلط على أعضائك فهل معنى هذا أن تقول إن أفعالك صادرة عن اتفاق وبدون إدراك؟

وانتهت هذه المحادثة بإيمان أريستوديم.

ويقول الأستاذ مومنيه: إذا افترضنا بطريقة تعلو عن متناول العقل أن الكون خلق اتفاقا بلا فاعل مريد مختار، وأن الاتفاقات المتكررة توصلت إلى تكوين رجل، فهل يعقل أن الاتفاقات أو المصادفات تكون كائنا آخر مماثلا له تماما في الشكل الظاهري، ومباينا له في التركيب الداخلي وهو المرأة بقصد عمارة الأرض بالناس وإدامة النسل فيها (١)؟

ويقول المشير أحمد عزت (٢): إن النظام المحير للعقول، المشاهد في حركات الأجرام التي تتألف منها المجموعة الشمسية لا يمكن أن يحمل على التصادف... وما الشئ الذي ندعوه التصادف إلا نتائج القوة الغيبية التي تحيط بنا، فلا بد من الاعتراف بوجود سبب أصلي عام منظم لهذا النظام الدقيق.

والقرآن الكريم يتحدث عن المقاييس الدقيقة التي وضعت لهذه المجموعة الشمسية، قال تعالى:

- والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم (٣).
- والشمس والقمر بحسبان (٤).

---

(١) دائرة المعارف مادة إله - ج ١ ص ٤٨٦.
(٢) الدين والعلم ص ٢١
(٣) سورة يس الآيتان ٣٨ - ٣٩.
(٤) سورة الرحمن الآية الخامسة.

ويعلق مولانا محمد علي على هذه الآيات بقوله: إن العلم يسير وفق نظام محدد، وبتدبير محكم، وكل كوكب فيه يسير في طريقه المرسوم (١).
بقي أن نقول إنه غير معقول إطلاقا أن تسير آلة أيا كان نوعها وأيا كانت جودتها دون أن يكون هناك من يراقبها ويلاحظ سيرها، وأية آلة تشبه هذا الكون الواسع البديع بما فيه من نظم وترتيب؟ والذي يدل عليه العقل السليم أن عين الله لو غفلت لحظة عن هذا الكون لا ختلت نظمه واضطرب سيره، ولكنه جل شأنه: " وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم (٢) ".
ولما كانت نظم الكون واضحة الدلالة على وجود الله، ولما كان الإنسان بما فيه من حواس ومواهب من أكبر الأدلة على الخالق الأعلى، كان أولئك الباحثون في الكون ونظمه، وفي الإنسان وخلقه، من أسبق الناس لمعرفة الله والإيمان به، لأنهم أكثر عمقا في بحوث الكون والإنسان، ولأنهم لا يقفون على هامش الحياة، بل تدفعهم أبحاثهم ليقفوا وجها لوجه أمام المعجزات الكبرى التي يخرون لها سجدا، معترفين اعترافا كاملا بالخالق العظيم، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: " إنما يخشى الله من عباده العلماء " (٣).
وقد نشر الدكتور دينرت. Dennert الألماني بحثا حلل فيه الآراء الفلسفية لأكابر العلماء بقصد أن يعرف عقائدهم، فتبين له من دراسة ٢٩٠ عالما أنهم بالنسبة للعقيدة الدينية كما يلي:

----

(١). ٩٨. The Religion of Islam Vol. l. p
(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٥.
(٣) سورة فاطر الآية ٣٨.

٢٤٢ من هؤلاء أعلنوا إيمانهم الكامل بالله.
٢٨ لم يصلوا إلى عقيدة.
٢٠ لم يهتموا بالتفكير (١).

وهكذا نجد أغلبية ساحقة تزيد عن ٩٠ % يعلنون إيمانهم بالله عن طريق أبحاثهم العلمية، ونجد من سواهم لا يزالون في تردد أو لم يهتموا بالعقيدة الدينية في أبحاثهم، وأغلب الظن أن المترددين سيصلون يوما، وأن الآخرين الذين لم يهدهم العلم لساحة الله يعانون نقصا لو تخلصوا منه لو صلوا.

ونختتم هذا البحث عن الدليل العقلي على وجود الله بأقوال بعض مشاهير العلماء والفلاسفة.

يقول هرشل العالم الفلكي الإنجليزي: كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلي لا حد لقدرته ولا نهاية، فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده (٢).

ويقول الدكتور وتز الكيماوي الفرنسي: إذا أحسست في حين من الأحيان أن عقيدتي في الله قد تزعزعت وجهت وجهي إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها (٣).

ويقول فولتير ساخرا: لماذا تشككون في الله، ولولاه لخانتني زوجتي وسرقني خادمي.

----

(١) نقلا عن مجلة الأزهر المجلد ١٩.
(٢) دائرة معارف وجدي مادة إله ج ١ ص ٥٠٣.
(٣) مجلة الأزهر المجلد ١٩.

الدليل النقلي (*):
حفل القرآن الكريم بآيات كثيرة تتحدث عن الله، عن وجوده ووحدانيته وصفاته، وقد كانت السور المكية واسعة الاهتمام بالحديث عن الله وإظهار جلاله وكماله، ولنأخذ سورة واحدة منها نموذجا لذلك، قال تعالى في سورة الأنعام:

- الحمد الله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، هو الذي خلقكم من طين، ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده، ثم أنتم تمترون، وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون (١).

- إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ذلكم الله فأنى تؤفكون، فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا، ذلك تقدير العزيز العليم، وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون، وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون، وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذ أثمر وينعه، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون (٢).

---

* أوردنا عند الكلام على الدليل العقلي آيات من القرآن، وكان الاستشهاد بها من ناحية أنها تحث على التفكير في الله وصنعه فكانت بذلك جزءا من التدليل بالعقل على وجود الله. وهذا يختلف عن الاستشهاد بالآيات هنا كما سنرى.

(١) سورة الأنعام ١ - ٤.

(٢) سورة الأنعام الآيات ٩٥ - ٩٩.

وهناك آية أخرى فيها وعد وفيها قوة يجدر بنا أن نوردها هنا، وهي قوله تعالى: " وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون " (١).

ولا شك أن الدليل النقلي له احترامه وإجلاله عند المؤمنين، ولكنا نريد مع هذا أن نستدل به بطريق آخر، فقد سبق أن تحدثنا عن محمد، وعن الأدلة التي أثبتت نبوته، ووضحنا أن منها الملموس المحسوس الذي لا يتطرق إليه شك عند المنصفين، كأن يأتي وهو رجل أمي بهذه النظم الخالدة في الميراث والزواج والطلاق والسياسة والاقتصاد وغيرها، وكأن يقول: إني آخر الأنبياء، ثم تمر القرون تلو القرون دون أن يجئ نبي بعده، فإذا صدقنا دعوة محمد بعد هذا البحث وتلك الدراسة، وآمنا أن محمد رسول الله بلا شك، كان على العاقل – فيما أرى – أن يؤمن بما جاء به محمد ما اتضح له وما لم يتضح، ما دام قد آمن بصدق محمد، فإذا قصر فكره عن فهم الإسراء والمعراج مثلا فليؤمن بهذه الحادثة إيمان يقين، تصديق لمحمد الذي آمن برسالته بعد تمحيص وبحث، وإذا قصر فكره عن سبب ركعات الصلوات، فليقبل ذلك قبول إيمان من الرسول الذي صدق به واعتنق الدعوة التي جاء بها، وإذا قصر فكره وخياله عن واهب الوجود الفرد الصمد، وفليؤمن به إيمان يقين لأن القرآن المعجز تحدث عنه، ولأن محمدا الذي صدقناه والذي هو أكثر منا صفاء وأسمى مكانة حدثنا عنه وعلمنا جلاله وجبروته، والاعتراف بالله أسمى ما جاء به الأنبياء.

أما إذا ظل الإنسان بعد إيمانه يبحث في مواضع الشبه، وكان عقله قاصرا عن فهمها، فإنه يوشك أن يزل، وهذا يسبب لعقيدته الاهتزاز لتعرضها لأحداث أسمى من مستواه.

----

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦.

تعال بنا نقارن ذلك بصور عادية من حياة الإنسان، إذا كنت مثلا تريد أن تذهب إلى طبيب فإن لك أن تبحث عن طبيب ماهر، وتسأل الناس عنه، وتتأكد من مقدرته وإجادته للطب، فإذا تم لك اختياره وذهبت إليه، فليس لك أن تسأله عن الدواء الذي سيصفه إليك ومناسبته للمرض، والعناصر التي يتكون منها، ونسبة هذه العناصر فيه، ولو ذهبت تسأله عن ذلك لضاق بك ولما استطعت أن تفهم ما يقول.

وإذا كنت تريد أن تتزوج، فإن من حق أن تبحث صفات المرأة التي ستتزوجها، ابحث جمالها وخلقها ودينها وكل مطالبك فيها، فإذا كانت نتيجة البحث اطمئنانك ورضاك وتم بذلك الزواج، فهل من الخير بعد ذلك أن تستمر في البحث والاختبار؟ وهل تقبل زوجتك أن تمتحن دائما عفتها وشرفها؟ أغلب الظن أنها لن تقبل، وأن هذا سيسبب اهتزاز للحياة الزوجية، فانعدام الثقة يعتبر بدء النهاية.

وكذلك الحال إذا أردت أن تشتري سيارة أو بيتا، لك أن تختبر وتبحث فإذا استقر رأيك على الشراء واشتريت، فلا تواصل بحثك وإنما عليك أن تدبر أمرك وأن تنظم لنفسك حياة استقرار ودعة.

وقد قلت في كتابي: " تاريخ التربية الإسلامية " عند الحديث عن الإجازات العلمية (١)، إنه منذ مئات السنين كان على من يريد أن يعمل مدرسا أن يعلن ذلك، ويحدد اليوم الذي سيبدأ فيه إلقاء دروسه، وكان الطلاب يجتمعون إليه ويعدون له الأسئلة المعقدة، ويجري حوار بينه وبينهم، فإن استطاع أن يشرح لهم ما أرادوه ثبتت قدمه، واعتبر ذلك إجازة له ليشتغل بالتدريس حتى ولو أخطأ بعد ذلك، أما إذا عجز عن الإجابة فإنه يقوم معهم

(١) أنظر هذه الفصل ص ٢٦٠ وما بعدها من الطبعة الرابعة.

ويلتحق مرة أخرى بإحدى حلقات الشيوخ، ومر الزمن وأصبحت هناك امتحانات وإجازات دراسية، ولكن الطلاب لا يزالون حتى اليوم يسيرون على نهج السابقين تقريبا، فإنني أذكر أنه كلما دخلت جامعة لا علم فيها لأول مرة، تنهال على أسئلة الطلاب وأرى في عيونهم التحفز ومحاولة التعجيز، فإذا أقنعتهم بكفاءتي ووضحت لهم ما غمض عليهم سلسوا لي وألقوا إلى الزمام.
والخلاصة أنك إذا قبلت الإسلام دينا، وارتضيت محمدا رسولا، كان عليك أن تعتقد بما جاء به، حتى بتلك النقاط التي لم يتضح لك كنهها وتظهر أسبابها، والقرآن الكريم هو قمة ما جاء به محمد، فليكن نورا نهتدي به، وشعاعا يبين لنا الطريق.
التجربة الشخصية:
هناك طريق آخر لمعرفة الله، وللايمان بأن للعالم خالقا يدبره وينظمه، وذلك الطريق هو التجربة الشخصية، وطريق التجربة الشخصية طويل، يحتاج إلى شئ من الدقة والصبر، ولكنه يؤدي إلى غاية دقيقة لا تحتمل الشك ولا التردد، وقد قال بهذا الطريق بعض مشاهير العلماء وفي قمتهم الإمام الغزالي، ولا يقصدون أن يقدموا لك دليلا على وجود الله وصفاته، بل أن يصفوا لك طريقا لتجد أنت خلاله الدليل، وحينئذ لا تجادل ولا تناضل.
والتجربة الشخصية يمكن أن يقوم بها شخص واحد، ويمكن أن تقوم بها نخبة محدودة من الأصدقاء، وفحواها أن يثبت الإنسان أدق الأحداث التي تمر به أو تحدث أمامه، ويؤكد القائلون بهذا الرأي أنه بعد فترة ليست طويلة ستجد ألا مناص لك من الإيمان بالله والاعتراف به، فستدرك أن الأحداث التي مرت بك ليست من المصادفات إطلاقا، وإنما هي ترتيب محكم دبره صانع حكيم.

وليس لدي ما أقوله أكثر من هذا عن طريق التجربة الشخصية، لأن هذا الطريق متروك لك أنت، وبمقدار صفاء نفسك ورغبتك في المعرفة، وبمقدار الدقة وبعد النظر في فهم التجارب التي تمر بك، بمقدار ذلك ستكون النتيجة سريعة أو بطيئة.

لقد اتبعت أنا نفسي هذه الطريقة وعرفت بها الله معرفة يقين لا يعرف الشك، هل تريدني أن أقص عليك بعض تجاربي في هذا المجال؟ سأفعل، ولكن لا لأدفعك بها إلى الإيمان، بل لأذكر لك أنها دعمت إيماني وزادتني يقينا، ولأذكر لك كذلك أن هذه نماذج لتجارب قد تواجه أنت أقوى منها:

في قرانا بريف مصر تزوج شاب قليل الثقافة يشتغل بالزراعة من إحدى فتيات القرية، وكان عمرهما متقاربا يزيد الشاب عن العشرين قليلا وتنقص الفتاة عن العشرين سنة أو سنتين، وحملت الفتاة بعد الزواج بسرعة كعادة أغلب الريفيات حيث لا تعرف وسأل تأجيل الحمل أو التحكم فيه، وبعد انتهاء دمة الحمل ولدت طفلين، ومرت فترة قصيرة حملت بعدها أيضا ثم وضعت طفلين كذلك، ومعنى ذلك أنه في أقل من سنتين أصبح في البيت أربعة أطفال، وسرعان ما حملت للمرة الثالثة، فاستشاط زوجها غضبا، وخاف أن تلد طفلين للمرة الثالثة فتجعل في بيته الصغير ستة أطفال في مدة وجيزة، وهو رجل رقيق الحال، وأقسم وهو في ثورة غضبه أنها طالق إذا ولدت هذه المرة طفلين أيضا، وبكت المرأة، وسخر الناس، وتمت أشهر الحمل فولدت المرأة.. ولدت ثلاثة أطفال، ومعنى ذلك أن يمين الطلاق لا يقع لأنه أقسم على اثنين فجاء ثلاثة، ثم كيف يتحدى الخالق؟ فلتكن الهزيمة عليه، إنه لا يريد اثنين، فلتلد المرأة ثلاثة، وصدمت التجربة هذا الرجل فاستغفر الله وتاب، وأغدق الله

عليه من الرزق، وفاضت عليه خيراته، والعجيب أن المرأة توقفت عن الحمل بعد ذلك، كأنما أخرجت كل ما كان في رحمها وفرغت من الحمل والولادة.

هذه تجربة، وإليك تجربة أخرى:

في أسرة غنية حملت سيدة من سيدات الطبقة العليا، وولدت طفلا ذكرا جميلا، ولكن في إحدى يديه إصبع زائدة، ولما اغتمت الأم لذلك هدموا روعها واستدعوا أمهر الأطباء حيث قطعوا تلك الإصبع، ومر الزمن وحملت السيدة مرة أخرى وولدت، ولكن طفلها هذه المرة كان بإحدى يديه أربع أصابع فقط!!! يالله كأن هتافا يصيح بهم: إذا كنتم استطعتم أن تقطعوا الإصبع الزائدة بسرعة فهل تستطيعون أن تضيفوا الإصبع الناقصة؟

وإليك تجربة ثالثة:

كان عمدة من عمد الريف المصري، وكان كأغلب العمد يفتح بيته لجلسات الريف حيث يتحاكم المتنازعون وتفض المنازعات، واشتهر الرجل بحب التوفيق بين الناس فكان يستدعى لمثل هذه الجلسات بالقرى المجاورة، أو كانت منازعات تلك القرى تأتي إليه.

وكان لهذا العمدة ابن تدرج في التعليم حتى دخل كلية الحقوق ثم تخرج منها واشتغل بالمحاماة، وكانت هذه الحادثة نقطة تحول في تاريخ الرجل، فلم يعد الرجل يحب فض المنازعات بل ربما أثار الخصومات، وكان يقصد بذلك أن يدفع لابنه المال عن طريق القضايا التي أصبحت ترسل للمحاكم، بعد أن كانت لا تتجاوز دوار العمدة المسكين.

ولكن الرجل لم يفرج بابنه ولم يدفع له الثراء، وإنما جلب على ابنه

سخط الناس، فذبل الابن وسقط مريضا، وأنفق الرجل على ابنه أضعاف ما دفع إليه من مال.

وتجربة رابعة:

أحد باشوات العهد الماضي كان يبعث بابنه إلى المدارس، وكان الابن يركب السيارة الفاخرة كل يوم في ذهابه وغدوه، وكان للباشا طباخ له ابن في عمر ابن الباشا، تقريبا، وقد التحق ابن الطباخ بالمدارس الابتدائية فأظهر استعدادا طيبا، ثم ألحقه أبوه بالمدارس الإعدادية، ولكن الباشا صاح في وجهه: إذا كان ابنك يريد أن يتعلم فمن سيكون طباخ ابني؟ وأوشك الطباخ أن يخضع لرغبة الباشا، وما كان له إلا أن يفعل، ورسم لابنه أن يتعلم الطبخ ليصبح طباخ ابن الباشا في المستقبل، ولكن الود كان يقرأ في غفلة من الباشا ومن ابن الباشا، وكان يستعمل كتب ابن الباشا، وشجعه على ذلك مدرس صغير لمح ذكاءه، وتقدم ابن الطباخ للشهادة الإعدادية من الخارج فحصل على مجموع كبير يضمن له المجانية في التعليم الثانوي، وتمرد ابن الطباخ على أبيه وأصر على أن يتعلم، وهجر بيت الباشا إلى بيوت أخواله والتحق بالمدرسة، وعانى ابن الطباخ حياة مرة فقيرة ولكنه صبر، وكان يكتفي بمصباح ضئيل يستذكر عليه دروسه، وأتم دراسته الجامعية وكان أول الناجحين فأرسلته الجامعة مبعوثا على نفقتها للحصول على الدكتوراه في الخارج.

وبدأ الحظ يلمع لابن الطباخ وعاد دكتورا في الهندسة، وفتح أمامة الباب، وبدأ يكون ثروة ليست بعيدة عن منطقة نفوذ الباشا، وجاء العهد الجديد لمصر، وألغيت الألقاب وحددت الملكية، واضطر الباشا أن يبيع

من أملاكه ما زاد عن القدر المسموح به، فاشترى ابن الطباخ أو الدكتور المهندس بعض هذه الأطيان، ثم مات الباشا واقتسم أبناءوه ثروته فأصبحوا إلى الفقر أقرب منهم إلى الغنى، وأصبح للدكتور مكانة أسمى وعدد من الطباخين، ولكنه لم يخطر بباله قط أن يعتقد أن ابن الطباخ لا بد أن يكون طباخا لابنه، لأنه انتفع بالدرس الذي عاشه وعاناه.

وتجربة خامسة:

تزوج شاب متوسط الثقافة والثراء من فتاة أحلامه، وبعد فترة رزق منها بطفلة سمحة كانت مبعث سرور أبويها، ثم حملت الزوجة مرة أخرى ووضعت طفلة، ولم يحسن الأب استقبال الطفلة الثانية فقد كان يتمنى أن يرزق طفلا، وحملت المرأة للمرة الثالثة ووضعت طفلة كذلك، وهنا أظهر الرجل من سخطه ما كان قد كتمه في المرة السابقة، ولم يرض بقضاء الله، وربما أهمل بعض مطالب الفتيات الصغيرات، وأصبح شغفه بابن ذكر حديث الناس، وحملت المرأة للمرة الرابعة، وأخذ قلبها يدق ويضطرب، وأخذت الهواجس تلعب بنفس الرجل الذي نفد صبره، ووضعت المرأة ذكرا هذه المرة، وقامت الزينات ودقت الطبول، واتجهت كل العناية للطفل الذكر، وفي غمرة الفرح اكتشف الطبيب أن خلق الطفل ليس سويا، وأن بإحدى رجليه عرجا واضحا...

ومرت سنون رأى الأب فيها ابنه مصدر شقاء له ومبعث ألم لانحراف صحته وعدم استواء عوده، أما الفتيات فكان مرور الأيام يزيدهن روعة وجمالا، وكن لأبيهن مصدر اليمن والسعادة والنعيم.

وتجربة سادسة:

شاب في مقتل العمر، تزوج فتاة أحلامه، وكان يعمل مدرسا، وكانت زوجته تشتغل أيضا بالتدريس، وأنجبا طفلا فرحا به أشد الفرح، ولكن

سرعان ما أحسا بالعناء الشديد لصعوبة الجمع بين رعايته وبين عمل أمه، وكان يمرض أحيانا، أو كانت الخادم تتغيب أو تنقطع، فيضطر الأب أو الأم للتخلف عن العمل، أو يتركان الطفل في رعاية بعض الأقارب أو الأصدقاء، وفكر الأب أو تتوقف الأم عن العمل، ولكن ظروفهما الاقتصادية كانت ترغمهما على طرح هذه الفكرة.

وفوجئ الزوجان بأعراض الحمل تظهر على الزوجة، وجن جنونهما، فقد ناءا بطفل فكيف باثنين، وأسرعا لطبيب ليساعدهما على التخلص من الجنين، ولكن الطبيب رفض أن يقوم بإسقاط الحمل، وإزاء ضغطهما نصحهما بأن تجري الزوجة وتقوم ببعض الجهد الجسماني ليتم الاجهاض، وقبل الزوجان نصيحة الطبيب، وراحا يصعدان الهرم ويهبطان، وجريا شوطا بعيدا، ثم اتجها عائدين إلى البيت ينتظران التخلص من الحمل، وفي البيت اصطدما بعاصفة مريرة، فقد وجدا طفلهما قد فارق الحياة إثر سقطة من فوق سلم كان يصعده في غفلة من الخادم.

ولم يضع الزوجان وقتا في النحيب، بل سارعا للطبيب الذي كانا عنده منذ ساعات يطلبان عونه – هذه المرة – ليوقف الاجهاض، ومرة أخرى قال الطبيب: لا أستطيع، وليس إلا الله يستطيع عونكما، وانطلق دعاء الزوجين أن يرفق الله بهما، فاستجاب الله للدعاء ورعا الجنين الذي أصبح أملا لهما، وكان منذ ساعات شرا يحاولان التخلص منه.

تلك نماذج من تجاربي لا أريد أن أطيل عليك بسرد سواها، ولكني دعوك أن تبدأ تجاربك الشخصية التي تقودك قطعا لاعتقاد جازم أن للكون مالكا سبحانه، خلقه ويدبر أمره ويرعاه.

وبعد، لماذا ينكرون الله وهو ملجأهم عند الهزيمة، وملاذهم إذا أصابهم الفشل؟ وطالما نسمع الشخص عند الاخفاق ينسب إخفاقه إلى إرادة الله، ومعنى هذا عدم يأسه، ومعناه كذلك أن يحاول العمل من جديد رجاء أن يكون عون الله معه في الجولة الأخرى، والإنسان دائما ينجح ويفشل، ويعلو وينخفض، ومن الخير أن يظل على صلة بالله يدعوه عند الشدة ويستعين به عند العجز، فلا يحس أنه وحده في الشدائد، ولا يضعف أمام الصعاب لأنه يؤمن أن الله معه، ومن كانت معه قوة الله استسهل الصعاب واستهان بالمشكلات.

وحدانية الله:

وحدانية الله في التفكير الإسلامي تشمل الوحدة في الوجود، أي أنه إله واحد فليس في الإسلام تعدد آلهة بأية صورة من الصور، وتشمل كذلك الوحدة في التركيب، فليس الله مكونا من أجزاء، وتشمل ثالثا الوحدة في العبادة فليس هناك معبود إلا الله، وليس هناك صاحب سلطان مطلق يصرف الأمر كله، ونتجه له خاضعين ساجدين إلا الله الواحد القهار.

والتوحيد بهذا المعنى عظيم الفائدة للجنس البشري، لأنه يجمع البشر حول إله واحد، وفي ذلك توحيد اتجاههم وغرس نظام الأخوة بينهم، أما تفرق الآلهة فمعناه تفرق البشر، وذهاب كل فريق إلى التعصب لما وجه قلبه إليه، وفي ذلك فساد النظام وخسارة للبشرية (١).

ومن فوائد عبادة الله وحده عبادة مباشرة دون وساطة ودون زلفى، تحرير الفكر البشري من الخضوع لغير الله من إنسان أو حيوان أو جماد،

---

(١) أنظر رسالة لتوحيد للإمام محمد عبده ص ٧٦ – ٧٧.

ومن نبات وأجرام سماوية وقوى طبيعية، ومعنى ذلك ألا يعبد الإنسان الإنسان، ففي عبادة الإنسان للإنسان ذل وطبقية لا يعرفها التفكير الإسلامي، ومعنى ذلك أيضا ألا يعبد الإنسان ما سخره الله للإنسان من حيوان أو نبات أو غيرهما ففي تخليص الإنسان من هذه العبادة وضع له في مكانه الطبيعي، سيدا لما سخر له، لا بعدا أمام مخلوق ينقص في تكوينه عن مستوى الإنسان (١).

وتوحيد الله وعبادته دون سواه تكسب المسلم الآنفة والعزة والشجاعة، ما دام يدرك أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له " قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا (٢) " وما دام يدرك أن موته وحياته بيد الله لا سلطان لمخلوق على ذلك " وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا " (٣) وأن الرزق منحة الله لا منحة غيره " الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر " (٤).

وتوحيد الله وضع طبيعي، حتى أنه يلجأ إليه من يقولون بالتعدد، إذ يظل هؤلاء في صراع بين التوحيد الذي تجذبهم له طبيعة الألوهية، وبين اتجاهاتهم التي هي تعدد بصورة من الصور، ثم ينتهي بهم الأمر إلى التوحيد أو عقيدة قريبة منه، فنجد المسيحيين يضيقون بالتعدد، ويدركون ضرورة هزيمته أمام العقل فليجئون إلى القول بأن اعتقادهم هو: وحدة في تثليث أو تثليث في وحدة، والمصريون القدماء تتعدد عندهم الآلهة ولكنهم يؤمنون بإله أعظم، هو سيد الآلهة وكبيرهم، ويرى المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز أنه لا يقول بالتعدد إلا العقل القانع المتعجل الذي يقف عند

---

(١). ٥١. p. I. The Religion of Islam Vol: Ali. Mawlana Muh

(٢) سورة التوبة الآية ٥١.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٤٥.

(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٢ (أنظر روح الدين الإسلامي للأستاذ عفيف طبارة ص ٦٥).

أدنى مبادئ الغيب وغاياته، فيرى أن وراء كل فصيلة من الظواهر الكونية ما يدفعها وينظمها، فيقوده ذلك إلى الاعتقاد بوجود إله للريح وإله للشعر وإله للحرب وهكذا، أما العقول الواعية الطليقة المتسامية، فإنها ترى أن خلف هذا كله قوة واحدة أسمى وأعظم، تصرف جميع الشؤون، فهي لا ترضى بآحاد القوانين، ولكنها تسمو إلى قانون القوانين وتستشرف إلى اليد التي جمعت تلك القوانين ونسقتها (١).

ولما كان التوحيد ضروريا فإنه كان قاعدة الأديان السماوية كلها قبل أن تفسدها الأفكار الطارئة الضالة، قال تعالى " وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون " (٢).

وقد لجأ القرآن الكريم للعقل يحكمه في مسألة التوحيد والتعدد، ويثبت بأسلوب منطقي أن خالق الكون ومدبره لا بد أن يكون واحدا، كما أن لكل دولة رئيسا واحدا، وللسيارة سائق واحد، وللمدرسة ناظر واحد، وهكذا، اقرأ معي هذه الآيات:

- لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا (٣).
- ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، إذا لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض (٤).
- ولا تدع مع الله إلها آخر، لا إله إلا هو، كل شئ هالك إلا وجهه (٥).

---

(١) أنظر " الدين " ص ٨٩.
(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٥.
(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٢.
(٤) سورة المؤمنون الآية ٩١.
(٥) سورة القصص الآية ٨٨.

ويقدم علماء الكلام على توحيد الله دليلا سهلا قاطعا هو: إذا كان هناك تعدد آلهة فهل كل إله يستطيع أن يعمل وحده كل شئ أو أنه عاجز وحده عن ذلك؟ فإذا كان يستطيع وحده أن يعمل كل شئ فما فائدة الآلهة الآخرين؟ وإن عجز وحده عن ذلك كان بعيدا عن طبقة الألوهية، فالإله لا يمكن أن يكون عاجزا ولا أن تتوقف قوته على سواه.

صفات الله:

قصدنا بهذا العنوان " صفات الله " أن نوضح أن ذات الله توصف ولا تدرك، فالله سبحانه وتعالى خالق الكون، وطبيعة الخالق مخالفة لطبيعة المخلوق، كما يختلف النجار عن الباب الذي يصنعه، وعلى هذا يرشدنا القرآن إلى معرفة الله بآثاره الدالة على صفاته، وكمال جلاله وجماله، وتنزهه عن المماثلة لخلقه، أو الاتحاد، أو الحلول في شئ مما خلق، وأوصد أمام الإنسان باب التطلع إلى معرفة حقيقته وذاته، وصرفه عن محاولة التفكير في هذا الباب...

والعجز عن إدراك حقيقة الذات الأقدس عقيدة من عقائد الإيمان بالله، وهو نفسه برهان على سمو الألوهية الحقة عن الدخول في دائرة التفكير العقلي المحدود بطبيعته، والذي لا يجد مجالا لتخطي ما وراء الكون (١).

ويقول الإمام محمد عبده إن النظر في صفات الخالق يهدي بالضرورة إلى المنافع الدنيوية، ويضئ للنفس طريقها إلى معرفة من هذه آثاره، وعليها تجلت أنواره... وأما الفكر في ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة،

وهو ممتنع على العقل البشري، لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين، ولاستحالة التركيب في ذاته، وتطاول إلى ما لم تبلغه القوة البشرية من جهة

---

(١) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة ص ٢٠.

أخرى، فهو عبث ومهلكة لأنه يؤدي إلى الخبط في الاعتقاد، ولأنه تحديد لما لا يجوز تحديده، وحصر لما لا يصح حصره (١).

وقد قال القرآن الكريم موضحا ذلك المعنى " ليس كمثله شئ " (٢) وقال " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير " (٣) وقال " ولا يحيطون به علما " (٤) وقال صلى الله عليه وسلم (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله) وقال أيضا (تفكروا في كل شئ ولا تفكروا في ذات الله).

أما صفات الله كما يراها الإسلام فإن مصدرها القرآن الكريم، وهي في مجموعها تصور الكمال المطلق، وليس للمسلم أن يناجي ربه باسم أو صفة لم يضعه الله لنفسه، فهو أعلم بما يدل على ذاته وآثاره وصفاته (٥) وعلى هذا فالإسلام لا يوافق على كلمات الأغنية التي تقول " الله محبة " لأن الله لم يصف نفسه في القرآن بذلك، وإليك آيات من القرآن الكريم تحمل بعض صفات الله.

- بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين (٦).
- ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها (٧).
- تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير (٨).
- يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (٩).

____

(١) رسالة التوحيد ٤٨ - ٤٩.
(٢) سورة الشورى الآية ١١.
(٣) سورة الأنعام الآية ١٠٣.
(٤) سورة طه الآية ١١٠.
(٥) الشيخ محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة ص ١٩.
(٦) سورة الفاتحة الآيات ١ - ٤.
(٧) سورة الأعراف الآية ١٨٠.
(٨) سورة غافر الآيتان ٢ - ٣.
(٩) سورة غافر الآية ١٩.

- هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (١).

- إن بطش ربك لشديد، إنه هو يبدئ ويعيد، وهو الغفور الودود، ذو العرش المجيد فعال لما يريده (٢).

- وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق، ويوم يقول كن فيكون، قوله الحق، وله الملك يوم ينفخ في الصور، عالم الغيب والشهادة، وهو الحكيم الخبير (٣).

سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، والذي أخرج المرعى (٤).

- ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم (٥).

وبعد، فالإيمان بالله على النحو الذي وصفنا، قمة العقائد الإسلامية، ويجئ بعد الإيمان بالله، الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بأن محمدا خاتم الرسل، ولا شك أن من آمن بالله آمن بكلامه ووعده ووعيده، فأصبح سهلا عليه أن يؤمن بما جاء به رسل الله من توجيه وتعليم، ولا شك أن العقل السليم يقنع دون تردد أنه لا بد من معاد، وأن الحياة الدنيا لا يمكن أن تكون نهاية الكون، ولو كانت كذلك لطغى

---

(١) سورة الحشر الآيات ٢٢ - ٢٤.
(٢) سوره البروج الآيات ١٢ - ١٦.
(٣) سورة الأنعام الآية ٧٣.
(٤) سورة الأعلى الآيات ١ - ٦.
(٥) سورة السجدة الآية ٦.

الناس فيها وبغوا، ونالوا ما أحبوا أن ينالوه بأية وسيلة من الوسائل غير هيابين ولا خائفين، ولكن النفس البشرية من تلقاء نفسها تدرك أن بعد هذه الحياة حياة، وأن بعد العمل حسابا.

ويتضح من مبادئ الدين الإسلامي سماحته مع أتباع كل الديانات، إنه يجمع الناس جميعا على إله واحد، ويجعل من مبادئه الاعتراف بالرسل السابقين وبكتبهم، فهو يمد يده لأتباع الديانات السماوية ليلتفوا حوله، ويمد يده لمن لا دين له ليدخل حظيرة النور.

ومن مفاخر الدين الإسلامي أنه سوى بين الناس، ولم يجعل لجنس على جنس مزية فكان بذلك دينا يقاوم الطبقات ويقام تسلط الشعوب على الشعوب، ويقول أستاذنا الإمام محمد عبده (١) في ذلك الموضوع: رفع الإسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية، وقرر لكل فطرة شرف النسبة إلى الله في الخلقة، وشرف اندراجها في النوع الإنساني في الجنس والفصل والخاصة، وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها، على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم، فأماتوا بذلك الأرواح في معظم الأمم، وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحا.

----

(١) رسالة التوحيد ص ١٥٩ - ١٦٠.

النبوة

الحاجة إلى الرسل (*):

يتفق الناس على أن من الأعمال ما هو نافع ومنها ما هو ضار، وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح، ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج السليم منهم من يمكنه إصابة وجه الحق في معرفة ذلك، ولكنهم يختلفون بالنظر إلى كل عمل بعينه، فبعض الناس يرى العدل مثلا فضيلة وبعضهم يرى الظلم دليل قوة والعدل دليل ضعف، وعلى هذا فالعقل البشري وحده ليس في استطاعته في الغالب أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته في هذه الحياة.

وجمهور الناس لا تساعدهم عقولهم لمعرفة بعض الغيبيات، كمعرفة الله والتحقق من الحياة الآخرة، ومعرفة الملائكة والجن، كما لا تستطيع عقولهم أن تقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه في الدنيا والآخرة، فعقوبة السارق، وعقوبة قاطع الطريق، وثواب الصبر والاحتساب، وثواب الصلاة والزكاة، كل هذا مما يعجز العقل العام أن يصل إليه ويحدده.

---

* (ا) من أهم المراجع عند الحديث عن الحاجة إلى الرسل كتاب " رسالة التوحيد " لأستاذنا الإمام محمد عبده، وقد أقبسنا منه بتصرف بعض العبارات في هذه المقدمة (أنظر ص ٧٦ – ١٠٠).

(ب) النبئ بالهمز ويخفف، هو من يتلقى نبأ من الله، وقد يكون النبي رسولا فهو نبي في تلقي النبأ، ورسول في تبليغ الرسالة، وقد يستعمل اللفظان أحدهما مكان الآخر، وقد يستعملان مجتمعين (أنظر كتاب الدين الإسلامي لمولانا محمد علي ص ١٥٢).

وحياة الإنسان قصيرة، ويقضي شطر كبير منها بين ضعف الطفولة وجهلها، فليس لدى الإنسان فرصة كافية للتجارب والمحاولات والخطأ والصواب.
وجمهور الناس يحبون اللذة المادية، ويهملون لذة أدوم وأعمق وهي اللذة الروحية، فطبيعة الإنسان أن يسعد بالطعام اللذيذ، والفراش الوثير، والمرح والحبور، أكثر من سعادته بالوفاء، وعون الضعيف، وكلمة الحق لنصرة المظلوم.
ومن طبيعة الإنسان كذلك حبه لنفسه، وتقديمه الأقربين إليه على
الأبعدين عنه، وفي ظل هذه الأنانية لا يستقيم المجتمع الإنساني ولا يسير قدما إلى النجاح.
لهذه الأشياء وسواها من نظائرها جاء الرسل: جاءوا ليرشدوا العقل
إلى الخير والشر، ولوصف النعيم الذي ينتظر للطيع، والعقاب الذي
سينزل بالعاصي.
جاءوا ليرشدوا العقل إلى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته،
وليبينوا كذلك أن ذات الله ليست موضع بحث ولا يصل إليها عرفان.
جاءوا ليعلموا الناس من أنباء الغيب من أذن الله لعبادة في العلم به
كالملائكة والجن وأحوال الآخرة، مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف به.
جاءوا ليبلغوا الناس أوامر الله ونهيه، ووعده ووعيده، وليشرحوا لهم
ما فرضه الله عليهم من عبادات وما قرره من وسائل للمعاملات.
جاءوا " لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " (١).

----
(١) سورة النساء الآية ١٦٥.

جاءوا لئلا يقول الناس " ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى " (١).

جاءوا ليدعوا الناس إلى تحويل اهتمامهم من اللذائذ الفانية إلى الرغائب السامية، من عبادة المادة إلى التمتع بالروحانيات، ليضعوا بذلك الأسس لمجتمعات صالحة فيها تعاون وإيثار.

جاءوا على العموم لتحقيق خير الناس في دنياهم وآخرتهم، على أن يحملوا للناس ما تحتمله عقول الناس من إرشادات.

ومن الواضح أنه ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات، فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب، ولا بيان ما اختلف من حركاتها، ولا ما استكن من طبقات الأرض، ولا مقادير الطول فيها والعرض، ولا ما تحتاج إليه النباتات في نموها، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات في بقاء أشخاصها وأنواعها، وغير ذلك مما وضعت له العلوم وتسابقت في الوصول إلى دقائقه الفهوم، فإن ذلك كله من وسائل الكسب والبحث، هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الادراك والعقول، وكل دخل الأديان في ذلك هو حراسة العقول حتى لا تشط أو تزل، فتحدث بأبحاثها ريبا في الاعتقاد بالأساس العام لهذا الكون، وهو تقدير إله واحد خالق له، متصف بكل صفات الكمال، وإذا كان قد ورد في كل الأنبياء بعض إشارات للكون وأحوال الأفلاك، فالمقصود توجيه النظر إلى حكمة المبدع وقدرة الصانع، أما التفاصيل العلمية للكون والأفلاك فأبحاث يطلبها من استطاع من مجالاتها العلمية.

----

(١) سورة طه الآية ١٣٤.

الرسالات الخاصة والرسالة العاصة:

عند حديثنا في مطلع هذا الكتاب عن " تطور الرسالات " وضحنا أن الرسالات كلها من عند الله، وهي تتفق في الأصول العامة المهمة كتوحيد الله وترك عبادة الأوثان، ثم تتطور بعد ذلك يتطور الجنس البشري واستعداده فتحمل تفاصيل أوسع ودراسات أعمق وتبعات أكثر، وعن الرسالات التي سبقت الإسلام، يقول القرآن الكريم:

- وإن من أمة إلا خلا فيها نذير (١).
- ولكن أمة رسول، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون (٢).
- ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت (٣).
- ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات (٤).
- وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون (٥).
- قال (نوح): يا قوم إني لكم نذير مبين، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون (٦).

وهكذا كانت الرسالات التي سبقت الإسلام غير شاملة، بالنسبة للدعوة نفسها، فلم تكن الدعوة كاملة التفاصيل، وإنما حوت ما يستطيع العقل آنذاك هضمه وفهمه، وكانت كذلك غير شاملة للبشرية، فقد كانت الرسالة

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٤.
(٢) سورة يونس الآية ٤٧.
(٣) سورة النحل الآية ٣٦.
(٤) سورة الروم الآية ٤٧.
(٥) سورة الأنبياء الآية ٢٥.
(٦) سورة نوح الآيتان ٢ - ٣.

محددة لقوم معينين، وجاءت رسالة الإسلام، وهي خاتمة الرسالات ومن هنا تحتم أن يوجد فيها من العناصر ما يجعلها تناسب كل زمان ومكان، ومن أهم هذه العناصر: شمولها لألوان واسعة من التعاليم في الميادين المختلفة كنظام الميراث والزواج والطلاق والسياسة والاقتصاد وغيرها، ومنها كذلك وجود الاجتهاد فيها، وإباحته للعلماء الذين يصلون إلى مستواه من أي جنس وأي لون ليشرحوا لأقوامهم ما يجد من أحداث داخل الإطار العام الذي نظمه الإسلام، ثم كان من عناصر هذه الرسالة أن تعترف بالرسالات السماوية السابق، وبما جاء به هؤلاء الرسل من كتب، وذلك وضع طبيعي، فكل هذه الرسالات من الله، وتلك الكتب تعليمات منه ما لم يمسها تحريف، فإذا جاءت الرسالة الأخيرة فمن الطبيعي أنها تحوي الرسالات السابقة وتزيد عليها.

وعلى هذا نص القرآن الكريم على أنه يجب على المسلم أن يعترف بالرسل السابقين، وبكتبهم الصحيحة، وبما جاءوا به من مبادئ، قال تعالى:

- قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون (١).

- آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله (٢).

وهكذا يتضح من هذه الآيات أن الإيمان برسالات الرسل السابقين جزء من الإسلام، كما يتضح من الآية الأخيرة أن الإسلام يحتم على المسلم ألا يفرق بين

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٦.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٥.

الرسل، وعلى هذا يدخل الناس جميعا الإسلام وكل يعرف أن دينه موضع احترام، وأن نبيه مكان إجلال، والكتاب الصحيح الذي أنزل على رسوله لا يزال موضع تقدير.

بيد أن الإيمان بماء جاء به الرسل السابقون يحتم أن نصل إلى حقيقة ما جاءوا به، وذلك يقتضي أن نزيل الخرافات والترهات التي أدخلها بعض أتباع هذه الديانات على دياناتهم.

لماذا كانت رسالات السابقين خاصة؟ وجاءت رسالة محمد عامة؟

الإجابة على هذا السؤال سهلة، فقد كان من الطبيعي أن تتعد الرسالات السابقة، وأن يكون كل منها لجماعة محدودة، وذلك للسببين الآتيين:

١ - كان الاتصال بين الأمم السابقة غير موجود، وكانت كل أمة تعيش في عزلة أو شبه عزلة عن الأمم الأخرى لعدم وجود المواصلات والروابط غالبا، ولاختلاف العادات وطرق الحياة، ثم لتعدد اللغات وقلة الذين عنوا بتعلم لغات أجنبية، ومن ثم أرسل الله لك أمة رسولا، وما كان رسول واحد يستطيع أن يوفي بالغرض من الرسالات.

٢ - سببت العزلة التي تحدثنا عنها آنفا اختلافا في درجة الثقافة، فأصبح ما يلائم جماعة من البشر لا يلائم جماعة أخرى.

ولهذين السببين أرسل الله لكل أمة رسولا يعلمهم المبدأ الديني العام وهو توحيد الله والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر... ثم يعالج

أمراضهم المتفشية بينهم، أما رسالة محمد فقد كان من الطبيعي أن تكون عامة، إذ انتفى السببان السابقان فلم يعد العالم مجزأ إلى أقاليم يعيش كل إقليم في عزلة، بل امتدت المواصلات بين أجزاء العالم، وكثر تعلم للغات الأجنبية فاتصلت الأمم، وأصبح سهلا أن تعم رسالة واحدة جميع البشر، ثم أن درجة الثقافة قربت بين أكثر الأمم، إذ انتشرت الطباعة وانتقل المدرسون والطلاب والكتب بين أطراف العالم بسبب سهولة المواصلات، فتبودلت بذلك الثقافات ولم تعد الهوة واسعة في الفكر والثقافة بين أمم العالم، وكان ذلك إيذانا بإرسال رسول واحد لجميع البشر (١).

وقد جاءت آيات كثيرة من القرآن الكريم تقرر عموم رسالة محمد، وتقرر أنها خاتمة الرسالات، اقرأ قوله تعالى:

- وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا (٢).
- يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا (٣).
- تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا (٤).

---

(١) لا نزال نرى في عالما الحاضر بلادا تتخلف كثرا في حضارتها عن بلاد أخرى، ولكن هذا التخلف عمل صناعي اقتضاه الاستعمار. ولو لم يوجد الاستعمار لأمكن للدول المتخلفة أن تلحق بركب الحضارة فتتقارب الثقافات بين أطراف العالم، وهذا يلاحظ في التطور السريع التي تصل إليه الدول بعد أن تتخلص من الاستعمار أو شبه الاستعمار، ولنذكر في هذا المجال جمهورية الصين وانتقالها السريع من حال إلى حال.

(٢) سورة سبأ الآية ٢٠٨.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٥٧.

(٤) سورة الفرقان الآية الأولى.

– وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (١).
– ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين (٢).
وقد سبق أن ذكرنا أن الزمن أكد عموم رسالة محمد وأنه خاتم النبيين، فقد سارت رسالته بنجاح عبر جوانب الأرض كما قلنا من قبل، ومرت القرون تلو القرون دون أن يجئ للعالم رسول بعد محمد وقد كان الرسل قبل محمد متقاربين أو متحدين في الزمن.
ويقول مولانا محمد علي (٣): لم يرسل محمد إلى الناس كافة ورحمة للعالمين فحسب، وإنما جاء ليبشر بدين واحد للناس، أساسه الإيمان برسول كل أمة من أمم الأرض، وهذا أمر لا يدفعه الناس حيث أنه يدعو إلى المساواة والوحدة بين جميع الأمم.
الإسلام والأدبار السابقة:
يعترف الإسلام بالأديان السماوية التي سبقته كما ذكرنا من قبل، ويوجب على أتباعه أن يعترفوا بهذه الرسالات، وبالرسل الذين حملوها إلى أقوامهم، ولكن ذلك الالتزام مرتبط بالماضي أي الاعتراف بأن هذا الرسول كان نبي الله إلى قومه، وأن مبادئه كانت كذا وكذا.
أما فيما يتعلق بالحاضر والمستقبل فإن رسالة الإسلام جبت ما قبلها، قال تعالى " إن الدين عند الله الإسلام (٤) " وقال " ومن يتبغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه (٥) " وقد حوت رسالة الإسلام ما في الرسالات السابقة من مبادئ، وزادت عليها ما تحتاجه البشرية في كل جوانب الحياة طوال مسيرتها المديدة إلى يوم الدين قال تعالى:

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.
(٢) سورة الأحزاب الآية ٤٠.
(٣). ١٦١. P. 1. The Religion of Islam Vol
(٤) سورة آل عمران الآية ١٩.
(٥) سورة آل عمران الآية ٨٥.

- شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا، والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى (١).
- وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه (٢).
- هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا (٣).

ويقول المفسرون في تفسير الآية الأولى من هذه الآيات: إن الله شرع للمسلمين دينا يحوي ما جاء به الأنبياء من نوح إلى عيسى (٤).

ويقولون في تفسير الآية الثانية، إن القرآن هو الصورة الأخيرة لكتاب الله الواحد، المتحد الأصل والوجهة، المساير لحاجات البشر، حتى إذا كشف للناس عن الحقائق الكبرى التي تقوم عليها أسس الحياة، انقطع الوحي ليتصرف العقل البشري في حدود تلك الحقائق الكبرى، بلا خوف من الزلل ما دام يرعى تلك الحدود، ومن ثم فكل الحكم يجب أن يرجع إلى هذا الكتاب الأخير الذي يتضمن الباقي من شريعة الله كلها في كل كتاب ويضعها في الصورة الأخيرة الباقية إلى يوم القيامة (٥).

ويقولون في تفسير الآية الثلاثة إن الله أرسل محمدا بالاسلام دين التوحيد والحق الخالد ليعلو على كل الأديان والمعتقدات، بأن يحوي أحسن ما فيها وأن يضيف إلى ذلك ما فيه خير الإنسان في الدنيا والآخرة (٦).

ومن أجل هذا شمل الإسلام من المبادئ ما لم يرد مثله في مختلف الأديان،

---

(١) سورة الشورى الآية ١٣.
(٢) سورة المائدة الآية ٤٨.
(٣) سورة الفتح الآية ٢٨.
(٤) البيضاوي ص ٤٨٥.
(٥) في ظلال القرآن ص ٦ ج ٦٦ - ٦٧.
(٦) أنظر النسفي والقرطبي والكشاف.

إذ قد تقدمت البشرية وأصبح ضروريا، أن تعرف حكم الله فيما يعترضها من شؤون، ولهذا حفل التفكير الإسلامي بأفانين من القول في كل مشكلات الحياة التي تحتاج لتوجيه السماء كالنظم السياسة والنظم الاقتصادية والنظم الاجتماعية والنظم العسكرية والعلاقات الدولية وغيرها مما شرحناه بإفاضة في الأجزاء الستة التي تشملها " موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ".

صفات الرسل في التفكير الإسلامي:

يتصف الرسل بعلو الفطرة، وصحة العقول، والصدق في القول، والأمانة في تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه، والعصمة من كل ما يشوه السيرة البشرية، وسلامة الأبدان مما تنبو عنه الأبصار، وتنفر منه الأذواق السليمة، ويلزم الاعتقاد بأن الرسل ممدودة أرواحهم بمدد من الجلال الإلهي لا يمكن معه لنفس انسانية أن تسطو عليهم سطوة روحانية.

وإنما لزمت لهم هذه الصفات لأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم، أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخرى، أو مس عقولهم شئ من الضعف، لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الإلهي الذي يفوق كل اختصاص، وهو اختصاصهم بالوحي، والكشف لهم عن أسرار علم الله. ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر في إنكار دعواهم، ولو كذبوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ولكانوا مضلين لا مرشدين، فتذهب الحكمة من بعثهم، والأمر كذلك فيما يتعلق بنسيان ما عهد إليهم تبليغه من العقائد والأحكام.

أما فيما عدا ذلك فالرسل بشر يعتريهم ما يعتري سائر أفراد البشر، يأكلون ويشربون وينامون ويسهرون، وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام، ويمرضون، وتمتد إليهم أيدي الظلمة، وينالهم الاضطهاد، وقد يقتلون (١).

والسبب في كون الرسل بشرا أن حكمة الله اقتضت أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم، حتى يكونوا أكثر صلة بالناس وأعرف بمشاعرهم وأحاسيسهم، وحتى يكونوا قدوة للناس في تنفيذ ما يبلغونه من تعليمات وإرشادات، وفي بشرية الرسل يقول القرآن الكريم:

- ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين، فأرسلنا فيهم رسولا منهم (٢).
- وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم (٣).
- ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية (٤).
- وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم (٥).

ويحمل الملك رسالة الله إلى الرسول فيبلغها الرسول إلى المرسل إليهم قال تعالى: " الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس " (٦) ولا يحمل الملك الرسالات إلى الناس مباشرة لأن عالم الملائكة يختلف عن عالم الإنسان في طبيعته، وصدق الله حين قال " لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا (٧) ".

---

(١) الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد: مقتبسات من ص ٧٩ - ٨٢ مع تقديم وتأخير
(٢) سورة المؤمنون الآيتان ٣١ - ٣٢.
(٣) سورة يوسف الآية ١٠٩ وسورة الأنبياء الآية ٧.
(٤) سورة الرعد الآية ٣٨.
(٥) سورة إبراهيم الآية ٤.
(٦) سورة الحج الآية ٧٥.
(٧) سورة الإسراء الآية ٩٥.

ومسألة بشرية الرسل مسألة هامة في التفكير الإسلامي، ولعل العناية الكبرى التي وجهت في الإسلام لإيضاح هذه المسألة تسببت عن الضلالات التي سبقت الإسلام، وهي تأليه الأنبياء أو حتى تأليه النابهين من المفكرين، فقد أله المسيحيون عيسى وأله البوذيون بوذا وهكذا، ولذا نجد محمدا – كما يقول المستشرقون – يقفل كل باب يظن أنه يوما ما يكون مسلكا لتأليهه أو حتى فيه شبهة التأليه، فإذا وقف له بعض أتباعه صاح بهم: لا تقفوا كما تقف الأعاجم، فلست بملك، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة، ويختار مكانا ليعسكر فيه في غزوة بدر، ثم يشير عليه أحد الصحابة بمكان أفضل فيقبل رأيه وينتقل إليه، أما القرآن الكريم وفي هذا الموضوع وجلاه، فلم تقم شكوك من أي نوع حول بشرية محمد، إنما أصبحت بشريته حقيقة واضحة مسلما بها، اقرأ هذه الآيات:

- قل إنما أنا بشر مثلكم (١).
- قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء (٢).
- قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا (٣).
- قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا (٤).
- قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله (٥).
- وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟ (٦).

____

(١) سورة فصلت الآية ٦ وسورة الكهف ١١١.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٨.
(٣) سورة الجن الآية ٢١.
(٤) سورة الجن الآية ٢٢.
(٥) سورة يونس الآية ٤٩.
(٦) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

الأنبياء والعصمة:

بقي موضوع يتصل ببشرية الرسل أيضا، وهو جواز الخطأ على الأنبياء، وهذا الموضوع دقيق للغاية، وأغلب الكتاب يتحرزون من الخوض فيه خشية القول بجواز الخطأ على الأنبياء. ومنهم من خاض فيه باحثا عن البراهين التي تساعده على القول بعصمة الأنبياء، وعدم إمكان وقوع الخطأ منهم، وفي قمة هؤلاء، الشيعة الذين يثبتون عصمة الأنبياء وعصمة الأئمة أيضا، ويرون أن الرسول لو لم يكن معصوما من الزلل لقلت الثقة به ولانتفت فائدة البعثة (١).

وهناك كتب خصصها الشيعة لبحث ذلك الموضوع ولتأويل كل ما يحتمل خلاف العصمة، ومن أهم هذه الكتب كتاب " تنزيه الأنبياء " للسيد الشريف المرتضى، وفي هذا الكتاب يقرر المؤلف أن الشيعة يرون أنه لا يجوز على الأنبياء شئ من المعاصي والذنوب كبيرا أو صغيرا لا قبل النبوة ولا بعدها، ويقولون في الأئمة مثل ذلك (٢).

والعجيب أن قول الشيعة بعصمة الأنبياء تسرب إلى أهل السنة، وأصبح رأي جمهور المسلمين، ولم يجد هذه الاتجاه معارضة تذكر من العلماء والباحثين المسلمين المحدثين، لأنه موضوع يتصل بالأنبياء، ويدفع الورع أغلب الباحثين فلا يتعرضون لرد ما قال به الجمهور، ولذلك نجد أستاذنا الإمام محمد عبده يذكر رأي الجمهور ويعلق بقوله: " ومن العسير إقامة الدليل العقلي أو إصابة دليل شرعي يقطع بما ذهب إليه الجمهور (٣).

---

(١) السيد محمد صادق الصدر الشيعة ص ١١٧.

(٢) اقرأ كتاب تنزيه الأنبياء في أمكنة متعددة واقرأ كذلك تاريخ التربية الإسلامية للمؤلف ص ٣٩٣ - ٣٩٥ من الطبعة الرابعة.

(٣) رسالة التوحيد ص ٨٣.

تعالى بنا نبحث الموضوع بشئ من الانطلاق لنحق الحق، والذي أراه
أن هناك أمورا مسلما بها هي:
١ - يلزم الاجماع على عصمة الأنبياء في التبليغ، وقد سبق الحديث
عن ذلك.
٢ - يلزم الاجماع على أنهم بعد الرسالة لا يرتكبون الكبائر قط
ولا الصغائر عمدا، قال تعالى " وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا " (١)، والأئمة
والهداة لا يمكن أن يعملوا الكبائر أو يتعمدوا الصغائر.
٣ - يلزم الاجماع على أنهم قبل البعثة نخبة مصطفاة من أحسن معاصريهم
سيرة وخلقا، قال تعالى: " الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس (٢) "
والآية واضحة في أن الرسل صفوة الخلق وخيارهم، وقوله تعالى " الله أعلم حيث
يجعل رسالته (٣) " مما يدل على أن الرسالة يختار لها خير رجال العصر وقد هتف
قوم صالح به يقولون فيما رواه القرآن الكريم: " يا صالح قد كنت فينا مرجوا
قبل هذا " (٤) مما يدل على سمو مكانة الأنبياء بين ذويهم قبل بعثتهم.
٤ - يلزم أن نتذكر حقيقة هامة يقررها القول الشائع " حسنات الأبرار
سيئات المقربين "، فإذا قلنا ببشرية الأنبياء وجواز الخطأ عليهم في غير ما تلزم
العصمة فيه، فليس معنى هذا أن الأنبياء يخطئون كما تخطئ نحن، فمن الواضح
أن العالم لا يرتكب الخطأ الذي يقع فيه الجاهل، فكذلك لا يمكن أن
يتساوى الأنبياء مع بقية البشر في نوع الخطيئة، أي أنهم إن أخطئوا فزلات
بسيطة وهفوات يسيرة لأنهم بطبيعة الحال أكثر دقة وهداية ورعاية من الله.

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٧٣.
(٢) سورة الحج الآية ٧٣.
(٣) سورة الأنعام الآية ١٢٤.
(٤) سورة هود الآية ٦٢.

ويحدد النسفي (١) ذنوب الأنبياء بقوله: إن ذنوبهم ترك الأفضل دون مباشرة القبيح، وذنوبنا مباشرة القبائح.

فإذا قارنا هذه المبادئ ببشرية الرسل التي تحدثنا عنها آنفا، جاز لنا أن نثبت أن الرسول عندما يتحدث أو يعمل كرسول، أي مبلغا أو داعيا أو معلما فهو معصوم، أما إذا كان يتحدث أو يعمل من عند نفسه في الأمور العامة التي ليست جزءا من الرسالة، فهو بشر، يمكن أن يخطئ ويغلب أن يصيب، وقد وضح الرسول ذلك بقوله في الحديث الذي رواه رافع بن خديج: إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشئ من أمر دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشئ من رأيي فإنما أنا بشر " وفي الحديث الذي رواه البخاري: " أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون " (٢) وكان المسلمون في الصدر الأول للإسلام يفرقون بين محمد النبي ومحمد الإنسان، ويتضح ذلك من المثال الذي أشرنا إليه آنفا والذي حدث في غزوة بدر، فإن الرسول اختار مكانا ليهيئ فيه جنده للقتال، فسأله أحد قادة المسلمين سؤالا واضحا هو: هو هذا الاختيار وحي من الله أو اجتهاد من عندك؟ وأجاب الرسول: بل اجتهاد من عندي. فقال الرجل: إذا كان الأمر كذلك فهناك مكان أصلح من هذا. ودرس الرسول رأي الرجل وانتقل إلى المكان الذي أشار به (٣).

وقد سبق أن ذكرنا (٤) الآيات التي فيها عتاب للرسول على بعض تصرفات

---

(١) تفسير النسفي ج ٤ ص ١١٦.

(٢) البخاري: كتاب الصلاة.

(٣) أنظر أمثلة أخي مماثلة في " السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي " للمؤلف ص ٥٧ - ٥٩ من الطبعة الثانية.

(٤) عند الكلام عن " دعوة في الميزان ".

لم يقرها العزيز الحكيم، وهي كما رأيت هنات خفيفة وزلات سهلة، وهي كذلك صادرة من محمد الإنسان لا من محمد الرسول، ويقول فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت في ذلك الموضوع: أما في غير ما يبلغونه عن الله من الآراء أو الأحكام أو الأفعال الشخصية، فهم - كغيرهم - يصيبون ويخطئون، وقد عاتب الله نبيه محمدا على بعض تصرفات فعلها من تلقاء نفسه قال تعالى: " عبس وتولى أن جاءه الأعمى... " (١).

وتميل كتب التفسير إلى هذا الاتجاه ففي البيضاوي عند قوله تعالى:

" عفا الله عنك، لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين (٢) ".

يقول المؤلف: عفا الله عنك: كناية عن خطئه فإن العفو من روادفه (٣).

ويقول مفسر آخر عند تفسير هذه الآية ما نصه: إنه لطف الله برسوله، فهو يعجل له بالعفو قبل العتاب (٤). وهذا هو الاتجاه العام في أكثر التفاسير عند الحديث عن أمثال هذه الآيات.

وإذا اتضح هذا مع محمد وهو خاتم الرسل وأشرفهم، فهو مع سواه أوضح، والتوراة تنسب لبعض الأنبياء انحرافات بالغة (٥)، ونحن لا نوافق على ما جاء في التوراة الموجودة بين أيدينا لقسوة ما تنال من الأنبياء، ونلجأ للقرآن الكريم الذي بشير إلى بعض ما حدث من الأنبياء مما يخالف العصمة، قال تعالى:

- وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى (٦).

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة ص ٣٤.

(٢) سورة التوبة ص ٤٢.

(٣) تفسير البيضاوي ص ١٩٥.

(٤) في ظلال القرآن ج ١٠ ص ٧٠.

(٥) اقرأ التوراة في أمكنة متعددة عند الحديث عن أنبياء بني إسرائيل، واقرأ الباب الثالث من كتاب " اليهودية " للمؤلف.

(٦) سورة طه الآية ١٢١.

- رب أرني كيف تحيي الموتى؟ قال: أو لم تؤمن؟ قال: بل ولكن ليطمئن قلبي (١).
- ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء (٢).
- وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين (٣).
- رب أرني أنظر إليك. قال: لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا، وخر موسى صعقا، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك (٤).
- وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب. فغفرنا له ذلك (٥).
- وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان (٦).

ونحن نعرف أن من يقولون بالعصمة يحاولون تأويل هذه الآيات، ولكن هذه المحاولات تظل قاصرة، وفي تقديرنا أنه لا داعي لها.

وهناك نقطة مهمة ينساها أولئك الذين يقولون بعصمة الأنبياء، فلو أن النبي معصوم ما كان له من فضل فيما يأتي به أو يدع، ولكن نقاء حياة الرسول بدون عصمة ترفع من شأنه، وتدل على نجاحه في جهاده لنفسه، وفهمه للأفضل، واتباعه للأخير.

معجزات الرسل:

المعجزة أمر خارق للعادة يعجز البشر عن الاتيان بمثله، يجئ على

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٦٠.
(٢) سورة يوسف الآيات ٢٢ - ٢٤.
(٣) سورة يوسف الآية ٣٣.
(٤) سورة الأعراف الآية ١٤٢.
(٥) سورة ص الآية ٢٤ - ٢٦.
(٦) سورة الأنبياء الآيتان ٧٨ - ٧٩.

يد رسول من رسل الله. ويقدم الرسول المعجزة دليلا على صدقه، وكان على الناس أن يتبعوه إذ أن المعجزة تحمل معنى قول الله تعالى: صدق عبدي فيما يبلغه عني.

وتتناسب المعجزة مع الدعوة، فأديان المرحلة الأولى التي سبق أن تحدثنا عنها، أي الأديان التي تدعو لتوحيد الله وترك عبادة الأوثان، لا تحتاج إلى معجزة، فالتوحيد وترك الأوثان هدف طبيعي يصل إليه العقل بذاته، ولذلك فالأدلة التي يقدمها أنبياء هذه المرحلة عبارة عن حث الناس على استعمال عقولهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وتخويفهم من عذابه، وتهديدهم إن تمادوا أن ينزل بهم ما نزل بأمثالهم من السابقين الضالين، وقد روى لنا القرآن الكريم صورا مما قدمه أنبياء هذه المرحلة لأقوامهم، ونحن نقتطف فيما يلي بعضها.

* من قول نوح:

استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدارا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا، ما لكم لا ترجون لله وقارا، وقد خلقكم أطوارا، ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا، وجعل الشمس سراجا، والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا، والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا (١).

* من قول هود:

- واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح (٢).
- فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به ويستخلف ربي قوما غيركم. (٣)

----

(١) سورة نوح الآيات ١٠ - ٢٠.
(٢) سورة الأعراف الآية ٦٩.
(٣) سورة هود الآية ٥٨.

- واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (١).

* من قول صالح:

- أتتركون فيها هاهنا آمنين، في جنات وعيون، وزروع ونخل طلعها هضيم، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين، فاتقوا الله وأطيعون (٢).

* من قول إبراهيم:

- واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون؟ قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين، قال: هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين، الذي خلقني فهو يهدين، والذي هو يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين، والذي يميتني ثم يحيين، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (٣).

وقد توجد معجزة في أديان هذه المرحلة، وذلك إذا طلبها أصحاب الرسول، كقوم صالح الذين هتفوا به:

- ما أنت إلا بشر مثلنا، فأت بآية إن كنت من الصادقين (٤).

فجاءتهم الناقة معجزة لهم.

أما أديان المرحلتين الثانية والثالثة فالمعجزة ضرورية فيها، ولذلك تأتي المعجزة مع الدعوة بدون طلب، وذلك لأن في أديان هاتين المرحلتين تكاليف يتوقف تصديقها واتباعها على المعجزة المقدمة، ففي أديان بني إسرائيل تشريع

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٣٢ - ١٣٥.
(٢) سورة الشعراء الآيات ١٤٦ - ١٥٠.
(٣) سورة الشعراء الآيات ٦٨ - ٨٢.
(٤) سورة الشعراء الآية ١٥٤.

كما سبق أن أوضحنا، ودين الإسلام انقلاب اجتماعي وفكري لما كانت عليه البشرية قبله، فلا بد من تقديم معجزة لتكون دليلا للناس على صدق النبي.
على أنه يمكن أن يقال أن الإسلام مر بمرحلتين، كان قبل الهجرة قليل التشريعات والتكاليف فاتجه للدعوة للتوحيد وترك عبادة الأوثان، فسار على نمط أديان المرحلة الأولى من الحث على استعمال العقل والتخويف والانذار:
قال تعالى:
- أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت، فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر (١).
- إن سعيكم لشتى، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغني عنه ماله إذا تردى (٢).
وبعد الهجرة - حيث التشريعات الواسعة - برزت معجزات الإسلام التي تحدثنا عنها عند الكلام عن " دعوة في الميزان " وسنزيدها هنا وضوحا.
وقد تجئ المعجزة أمرا خارقا للعادة على العموم كمعجزة إبراهيم إذ لم تحرقه النار، وكناقة صالح التي قال بعض المفسرين إنها خرجت من الصخرة أو التي كان لها شرب ولهم شرب يوم معلوم كما ورد في القرآن الكريم، وقد تجئ المعجزة من جنس شئ اشتهر في عهد المرسل إليهم كاشتهار السحر في عهد موسى، والبلاغة في عهد محمد، ولذلك تجئ معجزة موسى أشبه بالسحر

---

(١) سورة الغاشية الآيات ١٧ - ٢١.
(٢) سورة الليل الآيات ٤ - ١١.

ولكنها أعلى مستوى، ويجئ القرآن معجزة لمحمد، وهو في أعلى درجات البلاغة، أو قل في درجة من البلاغة لا يعرفها مستوى البشر.

وتتناسب المعجزات مع طبيعة الرسالة، فالرسالات التي سبقت الإسلام كانت لأقوام معينين، كما كانت مؤقتة، ولذلك جاءت المعجزات من جنس ما اشتهر عند هذه الأقوام، كما كانت المعجزة نفسها مؤقتة، فهي تحدث مرة أو عدة مرات، ويكفي أن يراها المرسل إليهم ليعترفوا بالرسل إذا كان الله قد كتب لهم الهداية. أما الإسلام وهو دين عام ودائم، فقد جاء معجزته مناسبة لهذا الوضع أي جاءت عامة ودائمة، فالقرآن الكريم لا يزال بأسلوبه ومعانيه معجزا، ولا يزال متجددا يقيم الدليل كل يوم على صحة رسالة محمد، وقد سمعته الأجيال الأولى فدهشت له، من آمن منهم ومن لم يؤمن، حتى كان قادة المشركين يتسللون ليلا خفية ليتسمعوا لمحمد وهو يتلو القرآن (١)، وسمعته بعد ذلك أجيال وأجيال، ونسمعه حتى اليوم ونقرؤه، فيخر البلغاء له ساجدين، ويعترفون بأنه نسيج وحده، وأن له نسقا لا يطاول ولا يدانى (٢).

وبالإضافة إلى القرآن الكريم، هناك أيضا تلك النظم الخالدة التي أشرنا إليها عند حديثنا عن " دعوة في الميزان " وقد انبثقت هذه النظم من القرآن الكريم، ومن الحديث الصحيح، فكيف لمحمد الأمي أن يضع في حقبة قصيرة من الزمن ألوانا من التشريعات عبرت القرون والأقطار وهي حية نامية

---

(١) اقرأ هذا الموضوع كاملا في كتاب " موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية " للمؤلف ح ١ ص ٢٧١ – ٢٧٢ من الطبعة السادسة.

(٢) هناك كتب كثيرة فصلت القول في موضوع إعجاز القرآن، ونكتفي بالإشارة إليها هنا ليرجع إليها من يشاء، وأهمها: إعجاز القرآن للباقلاني، وإعجاز القرآن للرافعي، والقرآن والعلم الحديث لحديث لعبد الرزاق نوفل، ومجازات القرآن لمحمد عبد الغني حسن.

تتفق مع كل زمان ومكان؟ يالله!! إن لجانا علمية ضخمة تجتمع لبحث مشكلة واحدة، وتنفض وتجتمع، وتقرأ وتدرس، ثم تقترح، ويعدل اقتراحها عدة مرات، ثم تصدر قراراتها، ويعد سنين قليلة يلحظ الناس أن هذا التشريع لم يعد يناسب العهد الذي جد، فتجتمع لجان أخرى وتبحث من جديد وهكذا دواليك. أين هذا من الشؤون التي نظمها محمد في عشر سنوات فجاءت مع تنوعها وهي فصل الخطاب؟

والجديد كذلك في معجزات محمد أنها – بالإضافة إلى خلودها – ليست عصا تنقلب ثعبانا ولا ناقة تشرب النهر، إنما هي من طبيعة عمل الرسول، فإذا جاء رجل يدعي الطب، فإن خير دليل يدعم به دعواه طبه ودواؤه الناجح، وإذا جاء مدرس يدعي الإحاطة بعلم الفلسفة فإن خير برهان يقدمه هو أن يقف محاضرا فيعرض أفانين من الفلسفات، وكذلك محمد قال إنه نبي جاء برسالة تنظم شؤون الدين والدنيا، شؤون الروح والجسد، ثم برهن على ذلك بأن نظم وقنن القوانين وأتى بالتشريعات التي حققت ما قال، ولا تزال تحققه حتى العهد الذي نعيش فيه، وأي معجزة أكبر وأقوى من تلك المعجزة الخالدة؟

وأخيرا فهناك اتجاه جديد أيضا في معجزات محمد، ذلك الاتجاه هو استعمال العقل بيسر وهدوء، فقد كانت المعجزات السابقة تشده العقول وتفحم، فلا تتيح للإنسان فرصة التفكير، من ذا الذي يستطيع أن ينجو من نار ألقي فيها؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يجعل عصاه ثعبانا يلقف الثعابين؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يحيي الموتى أو يبرئ الأكمه دون دواء؟ ولكن هذه العقول سرعان ما تعود إلى نفسها وتفكر فيما رأت، فتعتقد أو يعتقد أكثرها

أن ما شاهدت إنما هو ضروب من السحر والكهانة فتكذب الرسول في دعواه، وهذا المعنى هو الذي عبر عنه القرآن بالآية: " وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون " (١). أما معجزات محمد فاتجاه آخر، إنها معجزات فيها تحد ولكن في يسر وهدوء، فاذهب إلى بيتك واخل إلى نفسك أو اجتمع بصديق، وخذ معك القرآن، أو استعرض النظم التي جاء بها محمد في مختلف الشؤون، وناقش تلك المعجزات، وتذكر أن التحدي لا يزال قائما، هل تستطيع ومعك أساطين البلاغة أن تأتوا بسورة من مثله؟ هل تستطيع - ولا تخصص لك، أو حتى مع التخصص - أن تضع أمثال هذه النظم أو تخطيطا خالدا لتنظيم في مسألة واحدة؟ فكر وتدبر أمرك بهدوء وتأن فإذا عجزت كما عجز الملايين قبلك فالإسلام يمد لك يده، ويفتح إليك بابه، ويرحب بك لتدخل في زمرة أتباعه.

وقريب من هذا ما يقوله الأستاذ العقاد (١): والنبي في الإسلام ليس بصاحب الخوارق والأعاجيب التي تشل العقول، وتهول الضمائر، وتخاطب الناس من حيث يخافون ويعجزون، ولا تخاطبهم من حيث يعقلون ويتأملون ويقدرون على التمييز.

إن معجزات الإسلام لا تزال تعيش حتى اليوم، وستظل تعيش إلى يوم الدين، وهي معجزات من طبيعة تختلف عن طبيعة المعجزات التي جاء بها الأنبياء من قبل.

---

(١) سورة الإسراء الآية ٥٩.

الروح والمادة في التفكير الإسلامي

هناك شخص يتطلع للذة ويعيش لها، حياته كلها صراع ليحقق مالا وفيرا ومنزلا فخما، وطعاما شهيا، ومركبا فاخرا، وغير ذلك من ملذات الحياة، وهناك شخص، أهمل الدنيا، وقتل رغبات الجسم، وهجر الحياة بما فيها من خير وشر ولجأ إلى كهف أو معبد يمضي به حياته في عبادة تكاد تكون متصلة.

ومثل ذلك تكون المجتمعات، فهناك مجتمعات اتجهت لعبادة المادة وعنيت بها، وأنكرت الحياة الروحية وسخرت منها، كما تعيش الدول الرأسمالية والشيوعية جميعا، وعلى العكس من هذه المجتمعات، دعوة المسيحية التي ترى أن دخول الجمل في سم الخياط أسهل من دخول الغني ملكوت الله، والتي تدفع الناس للرهبانية وهجر الحياة الدنيا وملذاتها.

كلا الاتجاهين لا يقره الإسلام لا في الفرد ولا في الجماعة، ذلك لأن الإسلام دين الفطرة، والفطرة التي خلق الله الإنسان عليها هي أنه جسم وروح فيلزم – لإسعاده – العناية بهما جميعا، ومن أجل هذا اتجهت ثقافة الإسلام إلى تربية جسم الشخص وتربية روحه، والجماعات عبارة عن مجموعة من الأفراد، فسلامة الفرد جسما وروحا معناه سلامة المجتمع جسميا وروحانيا كذلك.

ومن اهتمام الإسلام بالناحية المادية في المسلم أن أحل له الطيبات وحثه على التمتع بزينة الحياة الدنيا، وأوجب عليه المحافظة على الصحة، وحبب إليه العمل لخير الدنيا لنفسه ولذويه، والآيات والأحاديث في هذا المضمار عديدة واضحة نذكر منها:

- يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق (١).
- كلوا من طيبات ما رزقناكم (٢).
- والأنعام خلقها لكم فيها دف ء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون (٣).
- هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه (٤).
- هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا (٥).
- يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم (٦).
- إن لبدنك عليك حقا.
- المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير.

وهناك حديث يرويه أستاذنا الإمام " محمد عبده " بعد مقدمة، فيها مقارنة رائعة، قال رحمه الله تعالى: وصاحب هذا الدين صلى الله عليه وسلم لم يقل: " بع ما تملك واتبعني "، ولكن قال لسعد بن أبي وقاص وقد أراد

---

(١) سورة الأعراف الآيات ٣١ - ٣٢.
(٢) سورة البقرة الآية ٥٨.
(٣) سورة النحل الآيات ٥ - ٨.
(٤) سورة الملك الآية ١٥.
(٥) سورة البقرة الآية ٢٩.
(٦) سورة المائدة الآية ٨٧.

أن يتصدق بثلثي ماله، أو بماله كله: " الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس (١) ".
وسنتكلم فيما بعد عن العبادات، وأنه أريد بها خدمة الجسد والروح، لهذا فإن المسلم يعفى منها أو تخفف عنه طريقة أدائها، إذا كان في أدائها على الوجه العادي ما يمكن أن يسبب ضررا للجسم، فالوضوء والغسل يسقطان عن المسلم إذا خيف الضرر، أو إذا عرضت مشقة في تحصيل الماء ولا يجب صوم رمضان على الحامل، أو المريض، أو المسافر، ولا يلزم القيام في الصلاة لمن يشق ذلك عليه، ولا يلزم السعي لصلاة الجمعة إذا كان هناك وحل أو مطر يضران بالساعي، وهكذا تتحقق القاعدة: " صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان ".
ومن النظم التي وضعها الإسلام للوقاية، ولحفظ الجسم من الأمراض أو حث المسلم على الاستياك، وقص الأظافر والشعر، والاستنجاء، والنظافة عامة بالوضوء أو الغسل.
ومنها أن حرم عليه أكل ما يضر، أو شرب ما يؤذي الصحة، فحرم أكل الدم والميتة، وما أكل السبع، وحرم لحم الخنزير، وشربا الخمور، وما ماثلها من مواد تؤثر على العقل والجسم، كالحشيش والأفيون بل والدخان في رأي بعض العلماء، كما حرم وطء الحائض، وحرم الزنا، وألزم التعجيل بدفن الميت، وغير هذا من الأشياء التي لو حللناها واحدا واحدا لوجدنا السبب الرئيسي فيها هو المحافظة على الجسم ووقايته من الأمراض التي أكد الطب الحديث حدوثها لو أهملت هذه التعاليم (٢).

---

(١) الإسلامية والنصرانية مع العلم والمدينة ص ٧٨.
(٢) اقرأ " كتاب الإسلام والطب الحديث " للدكتور عبد العزيز إسماعيل، وكتاب " الطب الحديث يترسم خطا الإسلام " للدكتور حامد الغوابي.

ومن رعاية الإسلام للجسم، أن أباح للمسلم الجائع أن يأخذ ما فضل عند صاحبه، رضى صاحب الفضل أو لم يرض، قاتل المحتاج لذلك فله الحق، فإن قتل مات شهيدا، وعلى قاتله القود، وإن قتل صاحب الطعام فلا قود على القاتل (١).

ومن رعاية الإسلام للأبدان كذلك أن حث على الرياضة، وقد وردت أنواع منها في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد روي عنه قوله:

- ألا إن القوة في الرمي.
- حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي.
- ما روته عائشة: سابقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته، ثم سابقني فسبقني، فقال: " هذه بتلك ".

ووردت أحاديث أخرى تحث على المبارزة بالحراب، والمصارعة، وغيرهما من أنواع الرياضة، والمقصود منها جميعا هو تنمية قوة الأجسام، والمحافظة على نشاطها.

أما اهتمام الإسلام بالروح فقد بلغ الغاية، وقد كان من الواضح في التفكير الإسلامي أن حضر الاهتمام بالجسم وبالقوى المادية لن ينتج تقدما للعالم بقدر ما ينتج الدمار له.

وقد قلت في كتابي " المجتمع الإسلامي " (٢) إن النهضة العلمية التي وصل

---

(١) ابن حزم الأندلسي: المحلى ج ٦ ص ١٥٩.

(٢) المجتمع الإسلامي: أسس تكوينه، أسباب تدهوره، الطريق إلى إصلاحه، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ من الطبعة الرابعة.

إليها الغرب هي في الحقيقة نهضة مدمرة، تهدد العالم كله بالفناء، وتتركه قبل الفناء يعيش في خوف ووجل، متوقعا الخراب والدمار، وبعبارة أخرى:
يعيش يترقب الفناء، مئات الملايين من الجنيهات يمكن أن تسعد البشر، ولكنها بدلا من ذلك تنفق لإنتاج القنابل الذرية والهيدروجينية التي تعد للقضاء على البشر، وكل ذلك لأن هذه المدينة ملحدة، مدينة بنيت على نظام اقتصادي، وأباحت للإنسان أن يقتل أخاه الإنسان ليحصل على ما في يده من طعام أو كساء، ولم يدخلها عنصر الأخلاق ولا عنصر الإيمان. ومن هنا فهي سراب يضئ، ولكنه ضوء خداع.
لقد بلغت النهضة الصناعية في ألمانيا غايتها قبل الحرب العالمية الثانية، وكانت ألمانيا في المقدمة بين دول العالم مدنية وحضارة، ولكن هذه المدنية المدمرة كلفت العالم ملايين البشر يخرون صرعي وجرحى في الحرب التي شنتها ألمانيا أو التي دفعت إليها ألمانيا من الدول المماثلة.
وكان تفتيت الذرة أرقى ما وصل له الفكر الإنساني، ولكن سرعان ما دمر وأفنى في اليابان قبل أن يعرف الناس من خيره قليلا أو كثيرا.
ومن أجل هذا عنى الإسلام بالروح عنايته بالجسم، ووضعهما في كفتي ميزان بحيث لا ترجح إحداهم الأخرى، فحث الإنسان على الإيمان بالله الواحد الأحد، وعلمه ألوانا من الخلق السامي، وكره إليه رذائل الأخلاق، وامتدح التعاون وألزمه، وحبب للمسلم الايثار، والتآخي في الإسلام، وفرض ألوانا من العبادات التي تهذب الروح، ووضع نظما أخلاقية نادرة تكسب النفس صفاء، وتهب الروح سماحة ونبلا، اقرأ معي هذه الآيات:

- وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان (١).
- ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (٢).
- إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم (٣).
- واذكر ربك إذا نسيت (٤).
- لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون (٥).
- ولا تستوى الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٦).
- خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (٧).
- ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا (٨).
- وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين (٩).
- يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب (١٠).
- يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا (١١).

---

(١) سورة المائدة الآية ٣.
(٢) سورة الحشر الآية ٩.
(٣) سورة الحجرات الآية ١٠.
(٤) سورة الكهف الآية ٢٤.
(٥) سورة آل عمران الآية ٩٢.
(٦) سورة فصلت الآية ٣٤.
(٧) سورة الأعراف الآية ٢٠٠.
(٨) سورة الإسراء الآية ٣٦.
(٩) سورة الإسراء الآيتين ٢٦ - ٢٧.
(١٠) سورة الحجرات الآية ١١.
(١١) سورة الحجرات الآية ١٢.

– يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم (١).

هذا ويكثر في الإسلام أن ترى الآية أو الحديث تجمع بين فوائد الدنيا والآخرة، بين صحة البدن وسلامة الروح، لأن كلا منهما ككفة الميزان إن رجحت فعلى حساب الأخرى، اقرأ قول الله وقول الرسول.

– وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا (٢).

– فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق، ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، أولئك لهم نصيب مما كسبوا (٣).

– يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله (٤).

– اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا.

وهكذا يوفق الإسلام بين المادة والروح دون أن يدع أحدا منهما يطغى على الآخر أو يتغلب عليه، فإذا تغلبت المادة على الروح في المسلم هتف به القرآن الكريم.

– من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون (٥).

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.
(٢) سورة القصص الآية ٧٧.
(٣) سورة البقرة الآيات ٢٠٠ – ٢٠٢.
(٤) سورة الجمعة الآيتان ٩ – ١٠.
(٥) سورة هود الآيتان ١٥ – ١٦.

- اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ونفاخر بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكافر نباته، ثم يهيج فتراه مصفرا، ثم يكون حطاما (١).

وإذا تغلبت الروحانيات على المادة في مسلم صدمته مصادر الإسلام التي تحتم أن يهتم المسلم بالجانب المادي فيه اهتمامه بجانب الروح، فقد روي أن قوما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر. فقال الرسول: أيكم يكفي طعامه وشرابه، فقالوا: كلنا. فقال: كلكم خير منه. ويروى أن عمر بن الخطاب نظر إلى رجل يظهر النسك حتى ضعف جسمه واعتلت صحته، فخفقه عمر بالدرة وقال: ليس هذا الفعل من ديننا.

تلك هي سياسة الإسلام تجاه الروح وتجاه المادة، وهي لا شك سياسة رشيدة تدفع المجتمع تجاه التقدم ولكنها تحمى تقدمه من الدمار والفناء.

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٠.

لا رهبانية في الإسلام

يرتبط هذا الموضوع بالموضوع الذي سبقه ارتباطا وثيقا أو قل إن موضوعنا هذا يترتب على الموضوع السابق وهو الروح والمادة في التفكير الإسلام، فإذا كان الإسلام يهتم بالروح والمادة في الفرد والجماعة، فإن معنى هذا أن الإسلام لا يوافق على الرهبانية، ومعناه كذلك أن الإنسان المسلم لا بد أن يعمل، لا أن يكون عالة على غيره يعمل له هذا الغير ويطعمه ويكسوه، ومع هذا فموضوع الرهبانية جدير بدراسة مستقلة لتبرز رأي الإسلام في أولئك الذين لجئوا للكهوف أو المعابد، وحرموا الزواج، واعتزلوا الناس، ظانين أن هذا اللون هو العبادة الحقة، وقد سبق أن قلنا إن العمل والكدح هما في الإسلام عبادة لا تقل عن سواها من العبادات، فلنأخذ في هذه الدراسة بإيجاز.

عبر القرآن الكريم عن طبيعة البشرية السليمة أصدق تعبير عندما قال: " فمن الناس من يقول: ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق، ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة (١) "

فقد قسم الله تعالى الناس قسمين أحدهما يريد الدنيا فقط والقسم الثاني يريد الدنيا والآخرة، وأهمل سبحانه وتعالى جماعة شذت عن الطبيعة البشرية، وأهملت الدنيا إهمالا تاما، وحسبت أن من الخير لها أن توجه كل اهتمامها للآخرة، فلجأت إلى الصوامع والبيع والكهوف، وجعلت دستورها الرهبانية والتبتل.

وجدير بهذه الجماعة أن يهملها الإسلام، لأن سلوكها ليس طبيعيا، والإسلام دين الطبيعة والفطرة.

---

(١) سورة البقرة الآيتان ٢٠٠ - ٢٠١.

والاتجاه للرهبنة والتبتل يعطل ما منحه الله للإنسان من قوى التفكير والإرادة والعمل، كما يبقى أسرار الكون ومنافعه كامنة، وقد سخرها الله جميعها للإنسان وسلطه عليها، ومهد له طريق إظهارها وعمارة الكون بها (١) ثم إنه يتنافى مع توجيهات الله التي أباحت الطيبات وحثت عليها. اقرأ معي هذه الآيات التي أوضحت هذه الاتجاهات:

- وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون (٢).
- وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣).
- هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه (٤).
- وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها (٥).
- والله جعل لكم من بيوتكم سكنا، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين (٦).
- وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره (٧).

---

(١) اقرأ كتاب منهج القرآن في بناء المجتمع للأستاذ الشيخ محمود شلتوت ص ١٨.
(٢) سورة التوبة الآية ١٠٥.
(٣) سورة النجم الآية ٣٩.
(٤) سورة الملك الآية ١٥.
(٥) سورة النحل الآية ١٤.
(٦) سورة النحل الآية ٨٠.
(٧) سورة إبراهيم الآية ٣٢.

- ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة (١).
- وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه، وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (٢).
- كلوا من طيبات ما رزقناكم (٣).
- قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق (٤).

وطالب الإسلام بالعمل كل من يقدر علية وجعل ذلك العمل عبادة، فقد روي أن الرسول كان جالسا يوما مع أصحابه، فرأوا شابا ذا جلد وقوة قد بكر يسعى، فقال أحد الجالسين: ويح هذا، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله، فقال عليه السلام: لا تقولوا هذا، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفهم فهو في سبيل الله.

وهناك موقف للرسول جعل فيه المسلم المكافح خيرا من المتبتل المترهب، فقد روي أن قوما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن فلانا يصوم النهار، ويقول الليل، ويكثر الذكر. فقال: أيكم يكفي طعامه وشرابه؟ فقالوا: كلنا. قال: كلكم خير منه، وقد أوردنا هذا الحديث من قبل.

وقد صح أن أناسا جاءوا إلى زوجات الرسول يتعرفون عن طريقهن ألوان العبادة التي يقوم بها صلى الله عليه وسلم، والتي سببت أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وقد روي أن هؤلاء بدءوا يعلنون

----

(١) سورة لقمان الآية ٢٠.
(٢) سورة الزخرف الآيتان ١٢ - ١٣.
(٣) سورة البقرة الآية ٥٧.
(٤) سورة الأعراف الآية ٣١.

استعدادهم للتضحية بمتع الحياة ظانين أن في ذلك ما يقربهم إلى الله، فقال أحدهم: إني لا آكل اللحم أبدا. وقال آخر: وأنا لا أتزوج النساء أبدا. وقال ثالث: وأنا أقوم الليل ولا أنام على فراش. فلما عرف الرسول ذلك خرج وصاح فيهم: ما بال قوم يقولون كذا وكذا، والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل اللحم، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني.

وروي عنه قوله: ليس في ديني ترك النساء اللحم ولا اتخاذ الصوامع.

ويروى أن عمر بن الخطاب نظر إلى رجل مظهر للنسك متماوت، فخفقه بالدرة، وقال: لا تمت علينا ديننا أماتك الله (١).

ومما سبق ندرك أن الإسلام لا يعرف الرهبانية، وإنما هو دين اعتقاد وعمل وعبادة، وللعمل وقته وللعبادة وقتها، وقد فصل الله هذا الاتجاه في قوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله (٢) "

ومن أجل هذا يرى الباحثون المسلمون أن العمل عبادة، وأن الله يثيب عليه لأنه أمر به، ففأس الزارع، ومبرد الصانع، ولسان المعلم، وقلم الكاتب وعين المدبر، ومثيلاتها، مصدر ثواب ورحمة لأصحابها، وينمو ذلك الثواب كلما نما إخلاص المرء، وكلما راقب الله في حسن أداء ما وكل إليه من عمل.

---

(١) المبرد: الكامل ج ٢ ص ٥١٠.

(٢) سورة الجمعة الآيتان ٩ - ١٠.

فلسفة العبادات في الإسلام

العبادات في الإسلام تنحصر في أربعة أنواع، هي: الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، وربما لا يتسع هذا الموجز للحديث عن تفاصيلها، فلهذه التفاصيل مظان أخرى. وإنما نكتفي بكلمة قصيرة نمهد بما لموضوعنا، وهو الحديث عن فلسفة هذه العبادات.

والصلوات المفروضة خمس صلوات في اليوم والليلة، وهي صلاة الصبح، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.

وصلاة الصبح ركعتان، وصلاة المغرب ثلاث ركعات، وما عدا هذين فأربع ركعات، ويصليها الإنسان منفردا، ويحسن أن يصليها في جماعة.

وهناك صلاة واحدة يلزم أن تؤدي في جماعة، وهي صلاة الجمعة التي تحل محل ظهر يوم الجمعة، وهي ركعتان.

وبجانب هذه الصلوات المفروضة على المسلمين جميعا هناك صلاة أخرى تسمى فرض كفاية، أي إن أداءها من بعض المسلمين يعفي الآخرين من القيام بها، وهي صلاة الجنازة.

وهناك بجانب هذه الصلوات صلوات مندوبة، كصلاة العيدين، والنوافل.

ولا بد من الطهارة قبل الصلاة، تلك الطهارة التي تتحقق بالاستحمام عند حدوث جنابة، أو بالوضوء إذا لم تكن هناك جنابة، ويلزم كذلك طهارة الملبس ومكان الصلاة.

وتجب الزكاة في خمسة أنواع هي: النقد (الذهب والفضة) وعروض التجارة والسوائم والزروع والثمار، ويشترط لوجوب الزكاة في كل من هذه الأنواع أن يصل المال إلى مقدار معين جعله الشارع دليلا على الغنى واليسار فإذا لم يصل المال إلى هذا النصاب فلا زكاة واجبة فيه، ويشترط كذلك الحول والنماء، وأن تكون الماشية سائمة، وأن تبلغ الزروع حد قوتها، وأن تطيب الثمار ويبدو صلاحها.

وأول نصاب الإبل خمس وفيها شاة. فإذا بلغت عشرا ففيها شاتان..

وأول نصاب البقر ثلاثون وفيها تبيع أتم ستة أشهر، فإذا بلغت أربعين ففيها مسنة أتمت سنة.

وفي أربعين شاة إلى مائة وعشرين، فإذا بلغت مائة وإحدى وعشرين ففيها شاتان، وفي مائتين وواحدة ثلاث شياه، وفي أربعمائة أربع شياه، ثم في كل مائة شاة.

وزكاة النقد وعروض التجارة ربع العشر.

وزكاة الزروع والثمار العشر إذا سقيت بالسيح أو الأمطار، فإذا سقيت بالآلات فزكاتها نصف العشر.

ويرى المفكرون المسلمون أن الثروات التي جدت في هذه الأيام كالمصانع والمباني فيها زكاة التجارة أيضا.

وقد أورد القرآن الكريم مصارف الزكاة في الآية الكريمة، " إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل (١) " وإذا لم تكف الزكاة لحاجة الأفراد أو الدولة كان للحاكم أن يأخذ من أموال الأغنياء ما يفي بهذه الحاجة مهما بلغ قدر ما يأخذه (٢)

---

(١) سورة التوبة الآية ٦٠

(٢) أنظر تفاصيل ذلك في " السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي " للمؤلف ص ١٩٠ - ١٩٢

والصوم هو الامتناع عن الأكل والشرب والملامسة الجنسية من الفجر إلى غروب الشمس، وهو فرض خلال شهر رمضان على المسلم البالغ القادر الذي ليس له عذر شرعي كالمرض أو السفر أو الشيخوخة أو حيض المرأة أو نفاسها.

والحج هو قصد البيت الحرام بمكة للعبادة في وقت معين هو شهر ذي الحجة، على أن يتم الوقوف بعرفة في التاسع من هذا الشهر، وينتهي الحج بالطواف حول بيت الله الحرام بمكة، ويجب الحج مرة في العمر.

وكثيرا ما تخفف هذه العبادات، وكثيرا ما تسقط على النحو الواضح في كتب الفقه، فالصلاة للمريض يمكن أن تؤدى وهو قاعد أو وهو مضطجع، ويمكن أن تؤدى حتى بإيماءات خفيفة أو برمش العين، فالمقصود فقط أن يظل المسلم على صلة بربه في صحته ومرضه، وتجمع الصلاة وتقصر للمسافر، وتسقط عن الحائض والنفساء.

ولا تجب الزكاة إلا على القادر الذي وجد عنده النصاب، ولا يعتبر النصاب كاملا إلا بعد تقدير إسقاط الديون، ويرى فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت أن الزكاة " لا تجب على الغني إلا فيما فضل عن حاجته وحاجة من ينفق عليهم (١) ".

ويؤجل الصوم في حالة المرض والسفر والحيض والنفاس، وتستبدل به كفارة في حالة الشيخوخة.

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة.

ولا يجب الحج إلا على القادر عليه من حيث الصحة والتكاليف وأمن الطريق.
تلك هي العبادات في الإسلام، وهي فيما نرى ويرى المنصفون رياضيات جسمانية ورياضات روحانية، وهي كذلك تنظم شؤون الفرد وترتب شؤون الجماعة، وفيها رعاية أحوال الدنيا وبها صلاح حال الدين، وهي " غذاء للإيمان وعلامة الصدق فيه " (١) وسنعود إلى كل من هذه العبادات نستوضح الهدف من فرضه، ونستلهم المزايا منه، ولكنا نبادر فنقرر أن بعض الأحكام لا يتفق الناس على فهم أسبابها، بل ترى بعضها وكأنما ليس له علة ظاهرة، واعتقادي أن غموض بعض العلل مثل سبب عدد الركعات في الصلوات ومثل النصاب في بعض ما تجب الزكاة فيه، فلسفة لها مغزاها المهم، إنما ترمى إلى تعليم الطاعة أحيانا ولو لم يظهر سبب الأمر، وما ألزم الطاعة المطلقة للإنسان في كثير من الأحيان، فالجند يلزم أن يطيعوا أوامر القائد دون أن يتساءلوا عن سببها، والمرضى يلزم أن يتبعوا نصائح الطبيب وإن لم يعرفوا دوافعها، وهكذا، فإذا ظهرت لنا العلة واضحة في الصلاة والزكاة فليس هناك داع أن نتبع كل الجزئيات بالتعليل والبحث عن الأسباب.
ونعود الآن لهذه العبادات لنسرد طرفا من فلسفة الإسلام فيها:
الصلاة:
من الواضح أن حركات الصلاة حركات رياضية، وأن تلك الحركات تشمل الجسم كله، وهي منتظمة كالانتظام في الرياضة البدنية الفردية أو الجماعية

---

(١) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت: منهج القرآن في بناء المجتمع ص ١٧٤.

ولو نظرت إلى المصلين في صلاة الجمعة أو الجماعة وهم يركعون معا، ويسجدون معا، ثم يقفون، لحسبتهم يؤدون حركات جسمانية للرياضة كتلك التي يؤديها الشباب في الساحات الرياضية.

وقد حث الإسلام على انتظام الصفوف في الصلاة وعدم ترك فرجة فيها، وذلك بلا شك تعليم للنظام وترتيب الأمور وقد وحد الإسلام قبلة المسلمين، فاتجهوا جميعا نحو مكان واحد هو البيت الحرام بمكة المكرمة، ووقفوا يرددون نفس الكلمات، وتتجاوب في نفوسهم نفس المعاني، وهناك تصوير جميل وضعه باحث مسيحي يصور به المسلمين وهم يصلون، ونحن نقتبسه فيما يلي: وإذا نظرت إلى العالم الإسلامي في ساعة الصلاة بعين طائر في الفضاء وقدر لك أن تستوعب جميع أنحائه بغض النظر عن خطوط الطول والعرض، لرأيت دوائر عديدة من المتعبدين تدور حول مركز واحد هو الكعبة، وتنتشر في مساحة تزداد قدرا وحجما (١).

ويلتقي في المسجد الغني والفقير، والكبير والصغير، ويسجد الجميع لله، وله يركعون، وهذا تأكيد لخلق المساواة، ووضع للنظرية الإسلامية في المساواة موضع التنفيذ.

وفي صلاة الجماعة وصلاة الجمعة التقاء عائلي على نطاق واسع، يعرف أهل المحلة خلاله أحوال بعضهم البعض، فإذا غاب شخص تساءلوا عنه، وتعرفوا سبب غيابه، فإن كان مريضا عادوه، أن محتاجا ساعدوه، كما أن الاجتماع يكون فرصة لتسري الأخبار داعية للتعاون المنشود.

ويلتقط خطباء الجمعة الأخبار المهمة في داخل المحلة وخارجها ليجعلوا منها مادة لوعظهم، فيحاربون الضلال، وينشرون البر والهدى والرشاد.

---

(١) History of the Arabs Vel: Hitti .١ .PP .١٣٠ - ١٣١

وفي الصلاة ثروة روحية عالية، فهي تبدأ بتكبيرة الاحرام " الله أكبر " وتلك العبارة تحمل صراخا في وجه المتكبرين والمتجبرين بأن الله أكبر منهم وأعظم، أو أن قواهم ليست شيئا وجبروتهم ليس إلا خيالا، وبتكبيرة الاحرام يبدأ المسلم رحلة إلى الله، رحلة روحانية، لم يتزود لها المسلم بطعام أو شراب، وإنما تزود لها بقراءات وأدعية، ويخلوا المسلم إلى الله فترة من الزمان، بعد أن خلص نفسه من علائقها المادية، واتجه اتجاها تاما إلى ربه، فلا يطعم ولا يشرب، ولا يكلم أحدا إلا الله. فيناديه ويناجيه، يحمده على نعمه، ويستغفر له من ذنبه ويطلب منه الهداية والتوفيق للطريق القويم.

ويركع المسلم ويسجد، وهو يناجي ربه بأن الخضوع لا يكون إلا لك، والانحناء لا يليق إلا أمام جلالك وعظمتك.

وتختم الصلاة بمجموعة من " التحيات " يذكر المصلي فيها ربه ويكرر تعظيمه وإجلاله، ويذكر النبي الكريم الذي حمل هذه الرسالة فقاد أتباعه إلى شاطئ السلامة، ويذكر كذلك إخوانه المسلمين، ويدعو لهم بالخير والصلاح.

وكل صلاة من الصلوات الخمس لا تستغرق أكثر من خمس دقائق في وضعها العادي، ولكن كثيرين من الناس يستكثرون هذه اللحظات.

والسبب في ذلك واضح، هو أنهم لا يحسون بحلاوة القرب من الله، ولا بلذة المناجاة. لأنهم حين يصلون ليسوا قريبين منه، وحين يتكلمون لا يناجونه، إنهم يدخلون الصلاة ليقوموا بأعمال أوتوماتيكية، ولتنطق ألسنتهم بما تعيه عقولهم.

إن فكرهم بعيد عن الله، إنهم يرتبون وهم يصلون ما سوف يعملون بعد الصلاة، وقد يكون ما يرتبونه ضلالا أو شرا، أو يستعرضون ما مر بهم من أحداث، وكثيرا ما كانت تلك ضلالا أو شرا كذلك.

إنهم أشبه بأعمى تضعه أمام لوحة فنية ممتازة، أو أصم تصحبه إلى حفل موسيقى، فسرعان ما يضيق به هذا وذاك، لأن كلا منهما لا يستمتع بما فيه من لذة، ولم يصل إلى شغاف نفسه ما به من جمال.
قل لي بربك: من ذا الذي يضيق بجلسة مع خالقه ورازقه، ومن ذا الذي يضيق بحديث يوجهه إلى ربه يشكره ويذكره ويدعوه.
ما من لحظة يلتقي الإنسان فيها التقاء صحيحا بربه إلا وتمنى أن تطول، فإذا ضقت ذرعا بالصلاة فلتبحث عن الداء الذي دفعك إلى هذا الضيق، وأغلب الظن أنه ما ديتك، أي أنك مرتبط بالمادة منجذب لها، فلا تستطيع أن تصل إلى سماء الروحانيات، واسأل نفسك كم ساعة تضيع كل يوم في الأكل والشرب واللهو، وسترى أن وقت الصلاة ضئيل جدا إذ قيس بأوقات الماديات التي تحيط بك.
وهناك مقياس واضح وضعه الإسلام لتعرف به مقدار البر في صلاتك، قال تعالى: " أقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (١) " ويعني هذا أن وقفتك الحقيقية أمام الله مصليا ستطهر نفسك وتبعد الرجس عنك، وكلما رأيت رجلا يصلي ولكنه يقدم على الفحشاء والمنكر، فلتعرف أن صلاته حركات لا مغزى لها، وأقواله خالية من المعاني.
الزكاة:
ماذا نقول عن الزكاة في الإسلام وما بها من ثقافة روحية؟ لقد طاف العالم برحلة طويلة منذ بدء البشرية حتى الآن، وشهد العالم في أثناء هذه الرحلة فيضا من الدماء وألوانا من الحروب التي نشأت عن المال بسبب التزاحم عليه

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥.

والتكالب لنيله، وقد وصف الإسلام الدواء للبشرية منذ أربعة عشر قرنا، ولكن كثيرين من الناس صموا آذانهم ولم يعوا هذه الدعوة، وهبت الحروب وأريقت الدماء، ثم وجد العالم ألا بد من أخذ قسط من مال الغني ورده إلى الفقير كما شرع الإسلام، بل بالغت بعض التشريعات فأزالت الملكية بتاتا، وحدت التوارث أو منعته، وجعلت الناس متساوين فيما يملكون، والطريقان بعيدان عن الصواب، فحصر الثروات في أيد قليلة شر لا يقره الإسلام

" كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم " (١) والمساواة التامة بين الناس شئ يناقض الطبيعة، فالطبيعة فاوتت بين الناس في الصحة والذكاء والصوت وغيرها، والطبيعة تجعل الأبناء يرثون عن آبائهم هذه الصفات أو أكثرهم فكيف نحرمهم من ميراث المال، والطريق الوسط هو نظام الإسلام الاقتصادي، وسنعود له بحديث فيما بعد، وقد أوضحناه إيضاحا كاملا في كتاب آخر (٢).

و " المال والبنون زينة الحياة الدنيا " (٣) وطبيعة الإنسان الشح " قل:

لو كنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق، وكان الإنسان قتورا (٤) " والإنسان يعمل لينمي ماله في تجارة أو زراعة أو غيرهما، ثم يقدم الزكاة من هذا المال العزيز الذي كد في جمعه وتنميته، والذي هو زينة الحياة الدنيا على الرغم من طبيعته الشحيحة، إنها رياضة نفسية رائعة فرضها الإسلام ليسمو بالمسلمين عن دنيا المادة إلى صفاء الروح، وليعلمهم الحياة الاجتماعية السمحة التي لا يشغل فيها الشخص بنفسه وآله ويدع من سواهم، فالإسلام

---

(١) سورة الحشر الآية ٧.
(٢) " السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي " للمؤلف ص ١٧٥ وما بعدها.
(٣) سورة الكهف الآية ٤٦.
(٤) سورة الإسراء الآية ١٠٠.

بالزكاة ينقل الإنسان من الأنانية إلى الايثار، ومن الفردية إلى الجماعة، فيحس أنه فرد في هذا المجموع ينتفع به وينفعه (١).

وقبل الإسلام كانت هناك ضرائب، ولكنها كانت مفروضة على الفقير يدفعها للغني، يدفعها من عرقه وجهده، فإن لم يكف العرق والجهد سجن فيها أو دفعها من دمه، فجاء الإسلام وصحح الوضع فجعل الضريبة على الغني يدفعها لصالح الفقير.

وشهد التاريخ ثورات شبت نتيجة الضغط والقسوة، وكانت ثورات قامت بها الشعوب ضد الملوك، ولا تزال نظائر لها تحدث في عهدنا الحاضر، إذ يضيق الشعب بحاكمه الذي يأخذ الخير كله لنفسه. فيهب في وجهه، وتراق الدماء وتكثر الضحايا من الجانبين، ولكن الإسلام شهد حربا من نوع آخر، إنها حرب أشعلها الحاكم لمصلحة الشعب، إنها تلك الحرب التي قادها أبو بكر وهو يهتف: " والله لو منعوني عقال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لقاتلتهم عليه " ولم يتوقف أبو بكر حتى أخذ للفقراء حقهم من الأغنياء وأصحاب النفوذ.

وهكذا نجد الزكاة أداة تطهير روحاني بالغ الغاية، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك أبلغ تعبير، قال تعالى: " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها (٢) " وقد وضع النظام الإسلامي أسس العدالة الاجتماعية في أسمى صورها فجعل (المال ملكا للأمة، تحفظه اليد المستحقة فيه وتنميه، ثم تنتفع به الأمة كلها، يخرج من أحد جانبيها ويقع في الجانب الآخر، فهو منها كلها وهو إليها كلها وما اليد المعطية واليد الآخذة إلا يدان لشخصية واحدة، كلتاهما تعمل لخدمة تلك

----

(١) المجتمع الإسلامي للمؤلف ص ٥٧.

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٤.

الشخصية، ولا خادم فيها ولا مخدوم، وإنما هما خادمان لشخصية واحدة هي شخصية المجتمع، الذي لا قوام له ولا بقاء إلا بتكافل هاتين اليدين على خيره وبقائه (١)).

الصوم:

مقدمة:

قال تعالى في كتابه الكريم: " يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون (٢) ".

وهذه الآية الكريمة تشير إلى أن الحضارات القديمة كلها عرفت الصوم، عرفته وسيلة للتقرب من الآلهة، أو عرفته وسيلة للتطهير والسمو بالنفس، ويمكننا أن نجول جولة سريعة ندون بها بعض ما ورد في هذه الحضارات عن الصوم.

فالمصريون القدماء عرفوا الصوم، فقد كانوا يصومون أيام الأعياد كوفاء النيل والحصاد، أما رجال الدين فكانوا يصومون ستة أسابيع في العام، وكان صومهم من طلوع الشمس إلى غروبها حيث يمتنعون عن تناول الطعام ومباشرة النساء.

وعرف اليونان والرومان الصوم، ومن أهم ما عنوا به أنهم كانوا يصومون قبل الحرب رجاء النصر، وكان رجال الدين في جزيرة كريت يصومون مدى الحياة عن أكل اللحوم والأسماك والطيور.

وعرف المجوس الصوم، وبالغت بعض فرقهم فيه حتى سميت " الصيامية " لأن أتباعها تجردوا للعبادة وأمسكوا عن الطيبات من الرزق كأكل الأسماك والطيور وعن النكاح والذبائح تزهدا.

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة للأستاذ الشيخ محمود شلتوت ص ٨٧ – ٨٨.

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٣.

وعرف الهنود الصوم قبل الميلاد بعدة قرون، فقد كان الانطلاق والاندماج في براهما إلههم أغلى ما يتطلع إليه العقل الهندي، وكانت الزهادة المفرطة بالصوم وأرق الليل وتعذيب النفس وسيلتهم لهذا الانطلاق، وكان يتحتم على الهندوسي ألا يقتل حيا ولا حتى الهوام. وعليه إذا مشى أن ينتبه حتى لا يطأ حشرة فيقتلها، وإذا شرب أن يتأكد أنه ليس في الماء الذي يشربه شئ حي، ولا يأكل ما فيه روح، وقد جاء في كتاب الهندوس المقدس:

وليكن طعامك مما تنبته الأرض وتثمره الأشجار ولا تقطف الثمر بنفسك، بل كل منه ما يسقط من الشجرة بنفسه، وعليك بالصوم تصوم يوما وتفطر يوما، وإياك واللحم والخمر، وإذا مشيت فامش في حذر، حتى لا ندوس نسمة وإذا شربت فاحذر أن تبتلع نسمة.

والچينية إحدى أديان الهند الكبرى، عمادها الزهد والرياضات الشاقة والتقشف والتشدد في العيش، ويسمى هذا الدين دين الانتحار، إذ يحث على الصوم حتى الموت (١).

ووجد الصيام عند اليهود فقد فرضت التوراة الصيام على اليهود، وكان موسى يصوم أربعين يوما في العام، ولا يزال اليهود المتدينون يصومون حتى الآن وإن اختلفوا في وقت الصوم وعدد أيامه، ومن أنواع الصوم عند اليهود الصوم عن الكلام كما فعلت مريم، والصوم عن العمل يوم السبت، أما الصوم عن الطعام فيوجد عند اليهود أحيانا في شكل فردي وأحيانا في شكل جماعي، ومن الصوم الفردي صيام الأفراد أو الأسر في حالات الحزن التي تنزل بهم أو عند التكفير عن خطيئة اقترفها الواحد منهم، أما الصوم الجماعي فمنه الثابت على مر الزمن كالصوم لذكرى الاضطهاد والتشريد الذي نزل بهم، وهناك

---

(١) أنظر " أديان الهند الكبرى " من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف.

صوم جماعي غير ثابت أي يلزم عند حدوث أشياء تحزن اليهود وتقلقهم
كالصوم عند رداءة المحصول أو غارات الجراد أو الهزائم في الحروب.
وعند المصوم لا يباشر اليهودي النساء ولا يأكل ولا يشرب إلا
للضرورة القصوى، واليهودي لا يباشر النساء أيضا في حالات الحرب.
والصوم عند المسيحيين الامتناع عن أكل لحم الحيوان وكل ما يتولد منه
أو ما يستخرج من أصله، ويقتصر الصائم على أكل البقول، ولا يعقد
سر الزواج في أثناء الصوم، والصوم عندهم يكون يوم الأربعاء وهو يوم
المؤامرة التي انتهت بالقبض على عيسى، ويوم الجمعة وهو اليوم الذي صلب فيه عيسى
في اعتقادهم، وهناك صوم الميلاد أو الصوم الصغير وعدده ٤٠ يوما تنتهي بعيد
الميلاد ويبدأ عند المسيحيين الغربيين في ١٦ نوفمبر، وعند الشرقيين في ٢٦ نوفمبر،
والصوم الكبير عند الأرثوذكس وعدده ٥٥ يوما قبل عيد القيامة، وهي
عبارة عن أربعين يوما صامها المسيح، وقبلها أسبوع يسمى أسبوع الاستعداد
وبعدها أسبوع يسمى أسبوع الآلام.
وعرف العرب قبل الإسلام الصوم فكانوا يصومون يوم العاشر من المحرم،
كما كانوا يصومون عن مباشرة النساء عند الحروب.
وبعد هذه الجولة التاريخية مع الصوم نصل إلى الصوم في الإسلام الذي
أشار له عجز الآية الكريمة السابقة أي قوله تعالى " لعلكم تتقون ".
الصوم في الإسلام:
الصوم في الإسلام من العبادات التي تهذب الجسم والروح، وكثيرون
من الناس يلجأون إلى ما يسمونه Regime وهو التخفيف من الطعام، أو
إلغاء بعض الوجبات، أو عدم تناول نوع معين أو أنواع معينة من الأطعمة،

ويقصدون بذلك الهرب من الترهل أو يقصدون بعث النشاط إلى الجسم، وإراحة المعدة من التخمة، وقد عبر الرسول عن هذا المعنى بقوله: (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع) ولما كان أغلب الناس لا يقوون على الحد من نهمهم من تلقاء أنفسهم، وكانت الرغبة في الطعام تدفعهم إلى أن يأكلوا بدون حساب، فقد جاءت فريضة الصوم لتعالج هذا الداء، وتيسر السلامة للأجسام، وأعرف بعض المسيحيين أدركوا ما في الصوم من فوائد للأجسام ففرضوه على أنفسهم وقاموا به على النحو الذي يتبعه المسلمون، مع استمرارهم على اعتناق المسيحية.

أما الناحية الروحية للصوم فجلية واضحة، وقد أدركت البشرية منذ عهود سحيقة ما يسببه الصوم من تهذيب للنفس وسمو للروح، وأدركت أن الصوم معناه إهمال الماديات واحتقارها، وفي ذلك تقوية للجانب الروحي في الإنسان، فلجأ الفلاسفة القدامى للصوم، أو قل: للحرمان، وبالغوا فيه يقصدون القضاء على الجانب المادي في الإنسان أو – كما فهمته الهندوكية والبوذية – يقصدون إفناء الجسم الذي هو قفص تحبس فيه الروح، معتقدين أن القضاء على هذا القفص سيترتب عليه انطلاق الروح وتحرزها، وقد هذب الإسلام هذه العبادة ولم يقصد بها القضاء على الجسم، وإنما قصد بها هدفا مزدوجا هو ترقيه الجسم وترقية الروح جميعا.

والذي يفكر في الصوم كما نظمه الإسلام يجد أنه رياضة روحية سامية، وأنه ترجيح لجانب الروح في صراعها مع الجسم، وأنه عن طريق الصوم يتحرر الإنسان من العادات التي خضع لها على مر الزمن، كتناول الطعام في وقت معين، وكالتدخين والمرح، تلك العادات التي يمكن أن يقال إن الشخص أصبح عبدا لها لا يستطيع أن يتخلف عنها.

كم استاء زوج لأن زوجته تأخرت في إعداد الطعام عن موعده، وكم اضطرب رجل لأن لفافات الدخان نفدت منه في وقت لا يستطيع أن يشتري بدلها، كأن يكون في الليل أو في رحلة، وفي كثير من الأوقات يصبح الواجد معدما، على أن الغني وهو في أوج غناه تأتي عليه ظروف يحتاج فيها إلى كوب ماء فلا يجده. أو كسرة خبز فتعز عليه، فكم من الأغنياء يعطش وهو في جلسة عامة أو في دار الخيالة وليس للماء في العادة سبيل آنذاك، وكم اضطرت الأعمال ذوي الأعمال أن يتأخروا عن مواعيد طعامهم وقتا طويلا أو قصيرا، وليس الصوم إلا مدربا يعد الشخص للتغلب على العادة التي اعتادها، ويساعده على عودة السيطرة على جسمه ويهيئه لما قد يلم به من مشكلات وأزمات.

وقد حدث لي بإندونيسيا حادث وثيق الصلة بموضوعنا هذا في خلال كتابة تلك النقطة من هذا الكتاب، ولم يحدث لي وحدي وإنما حدث لرفاق معي أيضا، وقصة ذلك أن فضيلة الأستاذ الأكبر (المرحوم) الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر كان في زيارة رسمية لإندونيسيا وكان في خطة تنقلاته بها أن يزور مدينة ميدان بسومطرة وأن أرافقه مع آخرين في هذه الرحلة، وكانت الطائرة على أن تغادر مطار جاكرتا في الثانية بعد الظهر، وكان مطلوبا منا أن نكون في المطار في الساعة الواحدة لنسلم حقائبنا ونؤشر على تذاكر سفرنا، ومعنى هذا أننا خرجنا من بيوتنا حوالي الساعة الثانية عشرة، ثم تأخر موعد قيام الطائرة من الثانية إلى منتصف الثالثة تقريبا، وعلى هذا بدأنا الرحلة وليس فينا شخص واحد تناول طعام الغداء، معتقدين أن الطائرة ستقدم لنا هذه الوجبة ثم ظهر أن الطائرة لا تقدم هذه الوجبة على اعتبار أن الرحلة بدأت بعد فترة الغداء، وأن الركاب تناولوا غداءهم قبل السفر، واستغرقت الرحلة

حوالي أربع ساعات، وهكذا كنا نسير بين الأرض والسماء ونحن جياع، وفي جيوبنا أموال ولكنها لا تسمن ولا تغني من جوع، والعجيب أننا بعد أن نزلنا من الطائرة وجدنا أنفسنا أمام استقبال رسمي وخطط مرسومة، فلم نر الطعام إلا بعد الساعة العاشرة.

وقد أدركت من هذه الحادثة مغزى هاما من دوافع الصوم، فالصوم يعلمنا الصبر ويجعل مثل هذه الأحداث أمرا عاديا، فالصائم الذي يقضي حوالي ست عشرة ساعة كل يوم دون طعام أو شراب يستطيع أن يواجه أمثال هذه الظروف بابتسامة ورضا، لأن الجوع ليس غريبا عليه إذ يعانيه شهرا كل عام.

ومن الفوائد الروحية الجليلة للصوم غرس خلق المراقبة الذاتية في النفس، فالصوم واجب في رمضان، والاستحمام جائز أو واجب أحيانا، وفي حالات كثيرة يشتد العطش بالمسلم في نهار رمضان، ثم يلقى بنفسه بين الماء ليستحم، ويعمه الماء من كل جهة، وهو شديد الحاجة إلى كوب منه يطفئ به ظمأه ويرد عطشه، ولكنه لا يفعل، مع أنه لا رقيب من البشر عليه، ولن يعلم أحد من الناس ما ارتكب. وهذا الخلق نوع من التربية السامية يغرسه الإسلام في المسلم ليسير في الحياة مستقيما، لا خوفا من القانون فطالما استطاع كثير من الناس أن يخدعوا القانون، ولا خوفا من الناس فطالما أفلت المجرم من عيون الناس، ولكن خوفا من نفسه ومن ضميره ومن الله الذي: " لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء " (١). والذي: " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (٣).

----

(١) سورة آل عمران الآية الخامسة.

(٢) سورة ظافر الآية ١٢.

الحج:
ربما كان مفيدا ونحن على باب الحديث عن الحج وما به من فوائد مادية وروحية أن نتذكر الاحصائيات الخاصة بالسياحة في العالم، وسنرى بلا شك آلاف الناس يقطعون ملايين الأميال كل عام لرؤية أهرام الجيزة أو للاستمتاع بشمس أسوان، وللانزلاق على الجليد في سويسرة، ولرؤية صورة أقرب إلى الحياة الطبيعية أو البدائية ببعض أجزاء جزيرة بالي في إندونيسيا، وهكذا يسعى الناس من الشرق للغرب ومن الغرب للشرق، لا بدافع ديني، ولا لهدف روحي، وإنما لما تحققه الرحلات من مزيد من التجارب ومزيد في المتعة الجسمانية والعقلية، ولا شك أن رحلة المسلمين حتى يصلوا إلى البلدان المقدسة سيكون لها في هذا المجال نصيب وافر ربما كان وحده دافعا إلى القيام بها، على النحو الذي يدفع إلى القيام بالرحلات المماثلة.
ولا يظن ظان أن شمس أسوان هي التي تدفع الرحالة إلى هناك، لا، فكثير من الناس يرحلون وهدفهم الرحلة فقط، وما يعود على الإنسان منها من فوائد ذات بال، بدليل أن الرحلات تنتظم كل بلاد العالم، فإذا كانت حلوان مثلا تمتاز بمائها المعدني وجوها الجاف الرائع الذي يعد علاجا لبعض الأمراض، فإن أهل حلوان وما جاورها من المدن يرحلون أيضا ويتجهون برحلاتهم إلى أمكنة أخرى بعيدة عن حلوان، ومن الواضح أن الإنسان يعد نفسه للرحلة، ويهيئ لها المال والوقت ثم يحدد المكان، فإذا لم ييسر له مكان اختار سواه لأن الرحلة في ذاتها مطلوبة، ولأن الاحساس بالرغبة في الترحال إحساس يكاد يكون عاما ينتظم اليافع والراشد والذكر والأنثى. تلك حقيقة ليس فيها شك أو خلاف، وتثبت الاحصائيات الرسمية أن عددا كبيرا من غير المسلمين يرحلون إلى المملكة العربية السعودية، ويقربون في رحلاتهم من

مكة والمدينة وإن كانت القوانين لا تبيح لهم أن يدخلوا هاتين المدينتين المقدستين.

ذلك حديث موجز عن رحلات المتعة واللذة التي يقوم بها آلاف الناس كل عام، فإذا جئنا إلى رحلات الرياضة والعمل والمؤتمرات وجدناها تكاد لا تنقطع في كل أطراف العالم، ووجدنا البنات والنساء والرجال يرحلون دون انقطاع لما في ذلك من فوائد عظيمة. وقد أشار القرآن الكريم إلى تحق ذلك أيضا في رحلة الحج بقوله: " وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم (١) " وكلمة " منافع " عامة شاملة تفيد التعارف بين المسلمين وتفيد التعاون في مختلف الميادين سياسية أو ثقافية أو غيرها.

ومن الرائع أن نتذكر أن الإسلام منذ حوالي أربعة عشر قرنا هتف باجتماع سنوي حدد زمانه ومكانه ليلتقي فيه المسلمون من مختلف الأقطار ليبحثوا مشكلاتهم وليشهدوا منافع لهم، ومرت الأزمنة والعصور وتطورت المدنية وخطت الإنسانية خطوات واسعة تجاه المعرفة والتقدم في كل مجال، ولكن هذه الإنسانية في أقصى درجات رقيها لم تجد بدا من أن تستوحي التعاليم الإسلامية وأن تسير على نهجها، فقررت الأمم المتحدة اجتماعا سنويا لها، تحدد زمانه ومكانه، ويذهب له المندبون من مختلف الأقطار يقصدون التعاون أيضا في مختلف الميادين.

ولكن المدنية الحديثة حينما حدت حذو الإسلام وسايرت تعاليمه،

---

(١) سورة الحج الآيتان ٢٧ - ٢٨.

لم يكن في وسعها أن تقتبس اتجاهاته كاملة، فقنعت الأمم المتحدة بأن أخذت من الحج جزأه المادي وهو الاجتماع السنوي، ونسيت أن التشريع الإسلامي هيأ الحج تهيئة روحية، وأحاطه بظروف تحقق له أقصى درجات النجاح، تعال بنا نستعرض بإيجاز تلك الظروف الروحية التي توحي بالحب والصفاء والتي لو استغلت الاستغلال الطبيعي لأتت أطيب الثمرات.

فالمكان الذي اختير للحج هو منزل الوحي، هو هذه الأرض التي درج عليها محمد، وتلقى بها رسالة ربه، هو مكة، حيث الصراع الطويل الذي دار بين الحق والباطل، هو الموطن الذي شهد رسول الإسلام وهو يقهر الأحداث، ويهزأ بما حسبته قريش انتصارات لها في نضالها ضد النور المنبثق، هذا المكان له إيحاءاته، وله صفاؤه، وله تاريخه، إنه يهيئ زواره إلى درجة من الطهر والنقاء يصغر معها متاع الحياة وادياتها.

وقبل أن يدخل الحاج مكة يلزمه أن يحرم، والاحرام درجة في الروحانية ذات بال، يخرج المسلم بها من لباسه ومن زينته، ولا يمس طيبا، ولا يلبس مخيطا، ولا يقص ظفرا، ولا يحلق شعرا، ويكتفي بقماش ساذج يواري به عورته، ونعل بسيطة تحمى قدميه، فالاحرام بعبارة أخرى إلقاء زينة الحياة الدنيا جانبا، وتخلص من المتع الزائلة، وإشعار بالمساواة والأخوة بين المسلمين.

ويلتقي الحجيج جميع في التاسع من ذي الحجة بعرفات، في ذلك الجبل الفسيح بين الرمل والحصا، وفي ذلك مزيد من الصفاء، وتخلص من ماديات الحياة وأنوارها المشعة، وما بها من جاذبية مؤقتة تسحر العيون، وفتنة زائلة تشغل القلوب.

وهنا وهناك ترتفع الحناجر بالتلبية: لبيك اللهم لبيك، لبيك
لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك "،
ولا يستطيع قلم أن يصور الانفعال الضخم الذي يشمل الحجيج وهم يهتفون
هذا الهتاف الخالد، ولا نزاع أنه عندما تمتزج أصواتهم بالتلبية، وتمتزج
أرواحهم بالحب، فيتناسون أوطانهم واتجاهاتهم، ويلتقون جماعة
واحدة لها إله واحد، وتتبع رسالة واحدة، تجعل منهم أمة واحدة وتجعل لهم
هدفا واحدا.
ذلك طرف من الحديث عن روحانية الحج، ولا شك أنه في مثل هذه
الظروف يمكن أن يكون الحج مؤتمرا داني الثمرات محقق النفع، فقد هيأت
هذه التعاليم الحجيج لصفاء روحاني يجعل هدفهم أسمى من المادة ومن
التكالب عليها والسعي لنيلها، ويجعلهم يسعون للخير، لا للانتصار على
على حساب الآخرين كما نرى الصراع الذي يدور دون انقطاع في أروقة
الأمم المتحدة، وصدق الله العظيم حينما قال: " فلا رفث ولا فسوق ولا جدال
في الحج (١) ".
بقيت بعد ذلك نقاط نريد أن نستكمل بها حديثنا عن الحج، وأول
هذه النقاط أن الحج اجتماع شعبي، لم يختر له مندبون يمتازون بالحجاج
والجدل، بل ترك الباب مفتوحا لمن يستطيع أن يأخذ في هذا المؤتمر الشامل
بنصيب، والحجيج على هذا يمثلون كل الأقطار بل كل القرى، ويمثلون كل
الثقافات وكل الطبقات.

----
(١) سورة البقرة الآية ١٩٧.

ولا يتجه الحجاج المسلمون في حجهم إلى قبور يزورونها ويعظمون أصحابها كما تفعل كثير من الديانات، لأن من مبادئ الإسلام التي لقيت كامل العناية في التفكير الإسلامي إبعاد المسلم عن كل ما فيه شبهة تجاه تعدد الآلهة، وعن مهزلة عبادة الإنسان أو عبادة الأصنام.

ولذة الحج يدركها الحجاج أكثر مما يدركها أولئك الذين يكتبون عن الحج دون أن يقوموا به، ويمكننا أن ندرك هذه اللذة لو عرفنا أن آلاف الحجاج كل عام يقومون بالحج لمرة الثانية أو الثلاثة أو السابعة أحيانا، فلأي شئ جهد هؤلاء ورحلتهم ونفقاتهم الباهظة بعد أن أدوا الفريضة بحجهم الأول؟ إنها ليست إلا للذة والمتعة التي يحسون بها والتي تفوق عندهم ما يبذلون من جهد وما يدفعون من مال؟

ومما يتصل بهذا الموضوع أيضا ما نلاحظه في مختلف البلدان الإسلامية من أن أكثر الذين يحجون ليسوا مكلفين بهذه الفريضة، فقد أوضحت الشريعة الإسلامية أن الحج واجب على صحيح البدن، بشرط أن يملك تكاليف الرحلة، ويملك الإنفاق على نفسه خلالها عن سعة، ويملك ما يتركه لأهله ليعيشوا في رخاء مدة غيابه، على أن يكون هذا المال خاليا من الديون والحقوق. ولو قارنا هذه الشروط بآلاف الحالات لوجدنا أن غالبية الحجاج يقومون بالحج لا إسقاطا للفريضة لأنها في الحق ليست واجبة عليهم، بل يقومون بالحج للذة والمتعة والبهجة والسرور.

وهناك مآثر للحج تكشف عن روعة هذه الرياضة الروحية التي ينعم بها الحجاج، فإنه مع الزحام الشديد ومع الجهد الكبير الذي يبذله الحجاج تجد استجابة طيبة للآية الكريمة التي أوردناها آنفا وهي قوله تعالى " فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج " فالأكثرية الغالبة من الحجاج يقابلون هذا

الزحام بصبر واحتمال، وأشهد أن ذلك التزاحم لو كان في سوق أن رحلة عادية لكثر فيه الصدام واللغط، ولكن الحجاج يمسكون أعصابهم، ويسيطرون عليها، وكثيرون منهم يصبح الاحتمال والصبر طبيعة بعد العودة من الحج
ومن مآثر الحج كذلك التعارف بين طوائف شتى جاءت من كل ربوع العالم الإسلامي، وطالما جلست وأنا أؤدي هذه الفريضة مع رفاق من هنا ومن هناك وتدارسنا مشكلات العالم الإسلامي، ومن لك بجلسة حول الكعبة أو بجوار سيدنا رسول الله، لا بد أن الصفاء يعم الجالسين والاخلاص يوجه حديثهم.
وهناك مأثرة مهمة للحج أدركت عمقها من صلاتي ببلاد دشتي بالعالم الإسلامي، ففي كثير من هذه البلدان يوجد اهتمام كبير بلقب " حاج " الذي يحمله من أدى هذه الفريضة، ويبلغ اهتمام الناس بهذا اللقب أن الأبناء يرثونه عن الآباء والأجداد كما يحدث كثيرا في إندونيسيا وماليزيا والسودان، وكم من رجل ذهب للحج ثم ألزمه هذا اللقب أن يتجه إلى الطيبة والاستقامة ليكون أهلا لحمله.
وهنا في مصر عرفت فتاة تعمل مدرسة ولم تكن حريصة على تقاليد الإسلام، ثم ذهبت لتحج، ولبست هناك اللباس الأبيض وشملها صفاء الاجتماع في الأرض المقدسة، وجلست بجوار سيدنا رسول الله، ولما عادت أدهشت الناس للتغير الشامل الذي سيطر عليه فجعلها ورعة تقية، تلبس الزي الإسلامي وتتخلق بأخلاق الإسلام وعاداته.
كم نقل الحج الإنسان من حال إلى حال بسبب ما رأى هناك، وبما تأثر به وانفعل. وبسبب اللقب الذي يمنعه غالبا من الانحراف كلما حاولت النفس

أن تدفعه إلى الانحراف، ولا شك أن المجتمعات الإسلامية تندد بخطيئة الحاج أكثر مما تفعل مع الذي لم يؤد هذه الفريضة بعد.

بقيت كلمة تتصل بالحجر الأسود، ذلك الحجر الذي كانت تعظمه قريش في الجاهلية لأنه من بقايا الكعبة التي بناها أبوهم إبراهيم، والذي يبدأ عنده الطواف حول الكعبة، ولما كان بعض المسلمين قد اعتادوا أن يقبلوه فقد فهم المستشرقون من ذلك أن في الإسلام بقية من وثنية الجاهلية، وردنا عليهم أن الحجر الأسود لم يكن من أصنام العرب وأوثانها، وهذا شئ واضح تمام الوضوح لدارس وثنية العرب (١). فأصنام العرب معروفة دون شك، ولم يكن من بينها قط الحجر الأسود أو الكعبة، وإذا اتضح أن العرف في جاهليتهم لم يقدسوا الحجر الأسود ولم يجعلوه بين أوثانهم، فكيف يجوز الاعتقاد بأن المسلمين قدسوه؟

ولندع العرب في جاهليتهم ولنعد إلى الإسلام، وهناك رواية تقرر أن عمر بن الخطاب قبل الحجر الأسود ولكنه وضح مكانة ذلك الحجر وسبب تقبيله له بقوله: والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك.

هل هذه الرواية صحيحة؟

الحق أنني كنت أظنها رواية مجمعا عليها، ولكن حدث أنني ألقيت بالمذياع حديثا عن هذا الموضوع ضمن سلسلة أحاديث دينية، وتكلمت

---

(١) اقرأ كتاب الأصنام لابن الكلي، ونظر مبحث الدين في الجزء الأول من " موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية " للمؤلف.

عن الحجر الأسود مع التسليم بهذه الرواية والتعليل لتقبيل عمر رضي الله عنه للحجر مفترضا حدوث ذلك، ثم اتصل بي بعض الباحثين وذكروا أن هذه الرواية موضوعة وأنكروا بأدلة ذكروها أن الرسول قبل الحجر أو أن عمر قبله.

وعلى هذا فإنكار هذه الرواية يضع حدا للموضوع، ولكن إنكار هذه الرواية ليس موضع إجماع، فلنسر في الموضوع على فرض حدوث التقبيل (١ ٧):

لماذا قبل الرسول الحجر الذي لا يضر ولا ينفع؟

في الإجابة عن هذا السؤال نذكر:

أولا – أن جميع المسلمين اتفقوا على أن تقبيل الحجر الأسود ليس واجبا على الحجاج.

ثانيا – يبدو لي أن الرسول قبله لحادث خاص تاريخي له صلة بالرسول، وكلنا يذكر أن قريشا جددت بناء الكعبة ومحمد في الخامسة والثلاثين من عمره، أي قبل البعثة، فلما أتمت قريش البناء وأرادت وضع الحجر الأسود في مكانه اختلفت البطون فيمن يكون له شرف حمله ووضعه، واشتد الخلاف حتى أوشكت الحرب أن تشتعل بينهم، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل عليهم من باب شيبة، فكان محمد أول داخل منه، فقالوا: هذا هو الأمين، رضيناه حكما. وأخبروه الخبر.

وهكذا ألقت قريش مقاليد أمورها في يد محمد في ثقة واطمئنان، وكأن ذلك كان امتحانا له، وهو امتحان قاس لمن أراد أن يرضي الجميع، ووجد محمد الحل، فبسط رداءه ووضع الحجر عليه، ودعاهم ليأخذ كل بطن بطرف من

---

(١) يتمسك كثير من العداء بصحة الرواية، ولا يقبلون القول بأنها موضوعه، وقد التقيت بجمهرة من هؤلاء العلماء الأفاضل بالسودان الشقيق، ولست هنا أحاول توثيق الرواية، ولكني أبحث موضوع تقبيل الحجر الأسود، وقد أجمع من يوافقون على الرواية ومن يردونها على أن التقبيل ليس عملا تشريعيا، وليس فريضة يلتزم بها الحجاج.

الثوب وأن يحملوا الحجر معا. وهكذا انتصر محمد ورضى الجميع بما اقترح، ونال محمد بذلك شرفا كبيرا تحدث به كل الناس، فأصبح لذلك الحادث – فيما أظن – أثر في نفس محمد دفعه إلى تقبيله، وربما كان هناك دافع غير هذا، ولكن الموضوع على كل حال شخصي لا تشريعي كما سبق القول.

ومن الأحداث المماثلة لموقف الرسول من الحجر الأسود ما حدث للملكة فيكتوريا، إذ كانت تركب القطار ليلا ومعها كبار دولتها، ثم رأى السائق شبحا يشير إليه إشارات غامضة كأنه شخص يومئ إليه أن يتوقف لخطر محدق بالقطار، وتوقف السائق ونزل يستوضح الأمر، فوجد فعلا خللا بالقضبان الحديدية كان سيؤدي بقطار الملكة إلى كارثة محققة، وبحث السائق وأعوانه عمن أنقذهم وأنقذ الملكة، فلم يجدوه شخصا، وإنما كان فراشة ألقت بها الظروف في الفراغ بين مصباح القطار والزجاجة الخارجة لهذا المصباح، وكانت الفراشة تتراقص أمام المصباح فيدفع نور المصباح بخيال الفراشة إلى الخارج حتى ظهر للسائق في الضوء البعيد كأنه إشارة خطر، وهكذا دخلت هذه الفراشة التاريخ، وحصل ارتباط بين حياة الملكة وبين هذه الفراشة، فأصبحت فراشة مقدسة عند الملكة وقومها، ولا يزال جثمانها يحتل مكانه في المتحف البريطاني.

وأعرف رجلا كانت سيارته على وشك أن تهوي به في سفح منخفض إثر ضربة من سيارة أخرى، ولكن شجرة ردت سيارة الرجل قبل أن تهوي، فأنقذت الرجل من موت محقق، وأعرف هذا الرجل وقد بني مسجدا بجوار هذه الشجرة، وأصبح يؤدي في هذا المسجد أكثر صلواته، ومن الواضح أن الرجل لم يعبد الشجرة ولم يعبد المكان، ولكنها قصة خاصة من القصص التي لها عمق في عواطف الإنسان دون أن يكون لها أي أثر في

عقيدته الدينية، وليس الحجر الأسود عندي إلا كذلك بالنسبة للرسول صلوات الله عليه.

تلك هي العبادات في الإسلام، وتلك هي فلسفتها ومنها يتضح ما سبق أن أوردناه من أن العبادات تهذب الناحيتين المادية والروحية في الإنسان، وهي متجددة متكررة حتى يظل المسلم أقرب إلى الطهر، وحتى تجذبه العبادة إلى رحبات الله كلما دفعته ماديات الحياة إلى البعد عن هذه الرحبات.

بقي أن نوضح أن كلمة عبادة معناها الطاعة، فعلى البشر أن يطيعوا خالقهم وأن يعبدوه كما أراد، فهموا معنى العبادة أو لم يفهموها، ولو ناقش خادم سيده في كل أوامره وأبى أن يستجيب إلا لما يفهم سببه من هذه الأوامر، لما طالت بينهما الصلة، ولأسرعت العلاقة بينهما إلى الانفصام، ثم إن هناك فرقا ملحوظا بين أن تتوضأ قاصدا النظافة مع الطهارة، وأن تصلي قاصدا رياضة البدن مع تهذيب الروح، وبين أن تتوضأ وتصلي قاصدا الطاعة والامتثال وإرضاء الله، ولا شك أنه في حالة الطاعة المطلقة تكون العبادة أمثل وأصدق تعبيرا عن المقصود، ويروي الأستاذ الشيخ محمود شلتوت في هذا المجال حديث الرسول: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) ويعلق فضيلته على هذا الحديث يقوله: فمن قصد بالوضوء النظافة فهجرته إلى غير الله، ومن قصد الرياضة بالصلاة فهجرته إلى غير الله، ومن قصد بالصوم العلاج الصحي فهجرته إلى غير الله، وهكذا من يفعل العبادة لغير وجه الله خالصة فهجرته إلى ذلك الغير (١).

----

(١) من توجيهات الإسلام ص ٣٥٧.

هذه ناحية، وناحية أخرى نريد أن نتحدث عنها وهي أن نسأل: لماذا لا ينفى من إحدى العبادات أو منها كلها من تجمعت فيه الاتجاهات التي تعمل هذه العبادات لتحقيقها؟ بمعنى أنه إذا كان الهدف من الصوم مثلا أن يحس الصائم بجوع الفقير، أو أن يتعود الجوع استعدادا لما قد ينزل به من مشقات طارئة أو دائمة، فلماذا لا يعفى الفقير نفسه من الصوم؟ ولماذا لا يعفى منه كريم اليد السخي بالعطاء؟ وقل مثل هذا في باقي العبادات.

وللإجابة على هذا نوضح أن الفلسفات التي سبق أن أوردناها إنما هي ألوان من الاجتهاد الإنساني على مر العصور للبحث عن أسباب هذه العبادات، وليس بعيد أبدا أن تكون هناك أسباب لم نعرفها بعد، أو تكون عقولنا قاصرة عن إدراك أسباب حقيقية ستظل مطوية عنا.

ثم كيف جاز لنا أن نفكر في أن نعفى من الوضوء الرجل النظيف، وأن نعفى من الصوم الرجل الكريم؟ مع أن النظيف اليوم قد يهمل النظافة غدا، والكريم اليوم قد يبخل فيما بعد، فكثيرون من الناس أهملوا مظهرهم بعد أن كانت عنايتهم بالمظهر على أشدها، وكثيرون منهم شحوا بعد كرم وجود.

على أن وحدة التشريع هامة جدا في التفكير الإسلامي، ومعنى هذا أن العمل الجماعي مقصود، فالدين دين الناس جميعا، والتشريع جاء للمسلمين جميعا، ولا يمكن أن يهمل الجانب الجماعي في التكاليف، ذلك الجانب الذي يرمى إلى خلق وحدة بين المسلمين، فصومهم معا وصلاتهم معا.... لها مغزى سام (١) ولو طفت العالم الإسلامي في رمضان ورأيت صوما هنا وصوما هناك لأدركت سمو الهدف الذي قصد إليه الإسلام.

---

(١) أنظر المجتمع الإسلامي للمؤلف ص ١٥٣ وما بعدها.

غير المسلمين في المجتمع الإسلامي

في أكثر الأقطار الإسلامية يعيش عدد كبير من غير المسلمين، فعل مر التاريخ يوجد مسيحيون ويهود في مصر وإندونيسيا والعراق والمغرب وغيرها، كيف عاش هؤلاء في الماضي وكيف يعيشون الآن؟

وفي مقابل ذلك عاش المسلمون في بلاد غير المسلمين أي في بلاد حكوماتها غير إسلامية، كما عاشوا في الأندلس بعد سقوط الحكومات الإسلامية، وكما عاشوا في فلسطين وقت انتصار الصليبيين، وكما عاشوا في الهند حتى عهد قريب، وكما يعيشون في إسرائيل الآن، كيف عاش المسلمون في تلك المجتمعات غير الإسلامية؟ وكيف يعيشون؟

الإجابة عن هذين السؤالين واضحة، تراها في الواقع الذي نعيش فيه، وتقرؤها عن الماضي مما كتبه المسيحيون أنفسهم، ففي العهد الحاضر ترى غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية يستمتعون بالحقوق الواسعة التي كفلها لهم الإسلام وينعمون بالتعاون والود وطيب العشرة التي اشتهر بها المسلمون، وتطوف العالم الإسلامي فهيهات أن ترى شكاة من مسيحي أو يهودي ضد المواطنين المسلمين، وكثيرا ما ترى الثروات الضخمة والتجارات الكبيرة يملكها يهود أو مسيحيون يعيشون في ظل حكومات إسلامية.

أما حاضر المسلمين الذين يعيشون تحت حكومات غير إسلامية فيدلك على الآلام والقسوة والحرمان والطرد والصراع المرير، إنهم هكذا يعانون في إسرائيل، حتى هجروا ديارهم ثم لم يسمح لهم بالعودة إليها. وهم كذلك

عانوا في الهند قبل التقسيم حتى اضطروا إلى أن يستقلوا بقطعة من أرض الهند أطلقوا عليها الباكستان، وهم كذلك يعيشون في الفليبين الآن (١).

والماضي صورة من الحاضر في الحالتين، فقد لقي المسلمون من الحكومات غير الإسلامية صنوف الاضطهاد والتنكيل، ويحدثنا غوستاف لوبون (٢) عن ضرب من ضروب القسوة والبربرية كانت طابع الصليبيين في فلسطين عقب نجاح الحملة الصليبية الأولى فيقول: (لم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بضروب العسف والتدمير والتنكيل التي اتبعوها، بل عقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود الذين كان عددهم ستين ألفا، فأفنوهم عن آخرهم في ثمانية أيام. ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيخا. ويقول غليوم الصوري إن: الصليبيين كانوا من السفهاء الفاسدين والملاحدة الفاسقين، ولو أراد كاتب أن يصف رذائلهم الوحشية لخرج من طور المؤرخ ليدخل في طور القادح الهاجى).

أما نتيجة انتصار المسيحيين بالأندلس على المسلمين فيحدثنا عنها الواقع الذي يرينا أنه ليس في إسبانيا الآن مسلم واحد، لقد ألقوا بالمسلمين في قاع البحر، أو أسالوا دماءهم وأزهقوا أرواحهم، أو أرغموهم إرغاما على ترك الإسلام والدخول في دينهم، فقد نشر في فبراير سنة ١٥٠٢ أمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من إشبيلية وما حولها إذا لم يقبلوا التعميد، وعليهم أن يغادروا إسبانيا قبل شهر أبريل، وألا يصحبوا معهم ذهبا ولا فضة، وألا يذهبوا في طريق يقودهم إلى أرض إسلامي: والنتيجة التي جاءت أثرا لهذه الشروط موت الجميع ودمار الجميع.

---

(١) أنظر كتاب " رحلة حياة " للمؤلف.

(٢) حضارة العرب ص ١٩٤.

وهكذا تدرك في يسر وسهولة أن المسلمين لقوا في المجتمعات غير الإسلامية ألوانا من الاضطهاد والإبادة، وكانت النتيجة التي سعت إليها هذه المجتمعات وحققتها أن تفني الإسلام فيها وترغم ذويه على الارتداد عنه، فإذا تمسك بعض المسلمين بدينهم أسلموهم إلى الدمار والفناء.

أما غير المسلمين في المجتمعات غير الإسلامية فقد شهد التاريخ أنهم نعموا في ظل الإسلام بالرخاء، والأمن والسلامة، فقد رسم القرآن الكريم وأحاديث الرسول الطريق القويم للمسلمين في معاملة أتباع الديانات الأخرى، وسار السلف الصالح في ضوء ذلك، وانحدر هذا الاتجاه خلال عصور التاريخ حتى أثنى عليه وامتدحه الكتاب المسيحيون أنفسهم، تعال بنا نقتبس من هذا الضوء بعضا منه دليلا على ما أوردناه هنا:

يحث الله تعالى المسلمين أن يحسنوا معاملة غير المسلمين وأن يكونوا معهم بررة وعدولا، قال تعالى: " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (١) ".

ويبيح الإسلام للمسلمين أن يؤاكلوا غير المسلمين وأن يصاهروهم، ولا شك أن المصاهرة تخلق امتزاجا بين هؤلاء وأولئك، فأخوال الأولاد سيصبحون من أهل الكتاب، وفي هذا رباط كبير أباحه الله بين المسلمين وغيرهم مما يدل على أن الإسلام دين الإنسانية، وفي ذلك يقول الله تعالى: " وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم (٢) ".

---

(١) سورة الممتحنة الآية الثامنة.

(٢) سورة المائدة الآية الخامسة، وانظر القيود حول هذا الموضوع في " الحياة الاجتماعية في التفكير الإسلامي " للمؤلف.

وقد يدخل الابن الإسلام ويظل الأب على غير الإسلام، وهنا يدعو الإسلام الابن أن يضل طيب الصحبة مع أبيه مع اختلاف الدين، قال تعالى:
" وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم، فال تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفا (١) ".
ويوضح القرآن للمسلمين أدب الجدال بينهم وبين أهل الكتاب، ومن هذا الأدب أن يعلن المسلمين إيمانهم بأديان أهل الكتاب تقربا منهم، قال تعالى: " ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون (٢) ".
ومن تسامح الإسلام مع أهل الكتاب أنه أباح لهم ما أباحته لهم أديانهم وإن حرمها الإسلام على المسلمين، فليس هناك من حرج على أهل الكتاب أن يشربوا الخمر أو يأكلوا لحم الخنزير، وليس للمسلمين أن يمنعوهم من ذلك.
أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كان مثلا أعلى في معاملة أهل الكتاب، فقد روي أنه كان يحضر ولائمهم ويشيع جنازاتهم، ويعود مرضاهم، ويزورهم ويكرمهم، حتى روي أنه لما زاره وفد نصارى نجران فرش لهم عباءته وأجلسهم عليها، وروي أنه كان يقترض من أهل الكتاب نقودا ويرهن عندهم أمتعته، حتى أنه توفي ودرعه مرهون عند بعض يهود المدينة في دين عليه، وكان يفعل ذلك لا عجزا من أصحابه عن إقراضه إذ كان منهم الموسرون، وكان منهم

---

(١) سورة لقمان الآية ١٥.
(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٦.

كثيرون يرحبون بأن يضحوا بأنفسهم وأموالهم في مرضاة نبيهم، بل كان يفعل ذلك تعليما للمسلمين وإرشادا (١)، ويروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله: من آذى ذميا فليس مني.

وكان حرص المسلمين على الوفاء لأهل الذمة حقيقة مشهورة معروفة، حتى أنه يروى أن واصلا بن عطاء زعيم المعتزلة فاجأته مرة عصابة من الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين الذين يخالفونهم في العقيدة، ورأى واصل أن الطريق لنجاته هو وصحبه من موت محقق، أن يدعي أنه هو وصحبه ذميون، وهكذا فعل وهكذا نجا (٢).

ومن الطبيعي أن السلف الصالح ساروا في معاملة أهل الكتاب سيرة القرآن وسيرة الرسول، ولنأخذ عمر بن الخطاب نموذجا للسلف الصالح، ففي عهده اتسع العالم الإسلامي وضم آلافا من المسلمين، وفيما يلي سطور عنه تبين جانبا من أدب الإسلام وخلفاء السلام.

تحقق النصر لجيوش المسلمين التي تحارب في إيلياء، (بيت المقدس) ولكن عمر كان حريصا عن السلم أكثر من حرصه على النصر، ولذلك نجده يرحل بنفسه إلى هذه المدينة، ويكتب بينه وبين المسيحيين بها عهدا جاء فيه:

"... هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها وسائر

---

(١) عفيف طيارة: روح الدين الإسلامي ص ١٩٩.
(٢) المبرد: الكامل في اللغة والأدب ص ٢٥٤.

ملتها: أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صليبهم، ولا من شئ من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود... ".

وكان عمر لا يكتفي بالعهود يقطعها على نفسه وعلى قومه، بل كان يشفعها بوصاياه المتكررة إلى ولاته أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة، وأن يوفوا لهم بعهدهم ويخففوا عنهم، وألا يكلفوهم فوق طاقتهم، وقد سجل ذلك في وصيته قبل موته.

ومن الناحية العملية نجد أن عمر وفى بما وعد بل زاد عليها عطفا وتسامحا وحسن معاملة، فبينما هو في كنيسة القيامة إذ دخل وقت الصلاة، فخرج عمر وصلى خارجها، وقال للبطريرك: لو صليت داخل الكنيسة خفت أن يقول من بعدي: هذا مصلى عمر، وأن يحاولوا أن يقيموا في هذا المكان مسجدا.

وروي أنه رأى شيخا يهوديا يسأل الناس، فسأله عمر، ما الذي حملك على السؤال؟ فأجاب الرجل: الحاجة والسن. فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله حيث أعطاه عطاء سخيا، ثم أرسله إلى خازن بيت المال مع رسالة قال فيها، انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم خذلناه عند الهرم، إنما الصدقات للفقراء والمساكين، وهذا من مساكين أهل الكتاب.

ومر وهو في أرض الشام بقوم مجزومين من النصارى، فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجري عليهم القوت بانتظام (١).

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ١٣٥.

وبلغ من حرصه على الرحمة بأهل الكتاب أن عزل واليا أحس بأنه ضاق ذرعا ببعض أهل الكتاب في ولايته، فخاف عرم أن يجور عليهم، فقد روي أن نصارى تغلب كانوا يناوئون واليهم الوليد بن عقبة، فنفد صبر الوليد مما كانوا يعملون، فقال شعرا يتوعدهم ويهددهم، وسمع عمر بعض هذا فخشى أن يقسو الوليد عليهم، وأن يبطش بهم فعزله عن ولايته، وعين أميرا غيره.

وكان أهل الكتاب يدفعون الجزية للمسلمين، يدفعها منهم القادر على حمل السلاح، ولا تدفعها المرأة ولا الصبي ولا الشيخ ولا الأعمى...

والجزية مقدار ضئيل من المال يتفاوت بتفاوت حالة الذمي المالية، فهي على الأغنياء ٤٨ درهما في العام (حوالي جنيهين) وعلى المتوسطين ٢٤ درهما وعلى العمال والصناع ١٢ درهما.

وتدفع الجزية لسببين:

١ - ينتفع أهل الكتاب بالمرافق العامة مع المسلمين، كالقضاء والشرطة والطرق الممهدة والآبار وغيرها، والمرافق العامة تحتاج إلى نفقات يدفع المسلمون قسطها الأكبر، ويسهم أهل الكتاب بالجزية في تكاليف هذه المرافق.

٢ - لا يكلف القادرون من أهل الكتاب أن يحملوا السلاح ويدافعوا عن البلاد بل يقوم بذلك المسلمون. ولذلك يدفع أهل الكتاب هذه الضريبة نظير إعفائهم من هذا الواجب الكبير، ويسجل التاريخ أن بعض أهل الكتاب قاموا بنصيبهم في الدفاع في بعض الأحوال فسقطت عنهم الجزية وكان ذلك في عهد عمر أيضا (١).

---

(١) هناك مسألة واضحة ولكن لا مانع من ذكرها دفعا لأية شبهة عند بعض القراء، وهي أنه بناء على الدراسة السابقة لا يلزم الإسلام أهل الكتاب في العصر الحاضر أن يدفعوا الجزية، لأنهم يدفعون الضرائب التي يدفعها المسلمون ويحملون السلاح في الجيوش مع المسلمين.

ويروي البلاذري (١) أن المسلمين عندما دخلوا حمص أخذوا الجزية من أهل الكتاب الذين لم يريدوا أن يدخلوا الإسلام، ثم عرف المسلمون أن الروم أعدوا جيشا كبيرا لمهاجمة المسلمين، فأدرك المسلمون أنهم قد لا يقوون على الدفاع عن أهل حمص، وقد يضطرون للانسحاب، فأعادوا إلى أهل حمص ما أخذوه منهم، وقالوا لهم: شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم على أمركم. فقال أهل حمص: إن ولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولتدفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم. ونهضوا بذلك، فسقطت الجزية عنهم.

والذي نريد أن نسجله هنا أنه مع بساطة هذه الجزية، ومع سياسة المعاملة الكريمة التي اتبعها عمر ورعاها، دخل كثير من أهل الكتاب في عهده دين الإسلام أفواجا، لا هربا من الجزية فإنهم في الغالب سيدفعون الزكاة وهي أكثر قدرا من الجزية، ولا تحاشيا لسوء معاملة، وإنما إعجابا بعدل الإسلام وخلق خليفة المسلمين.

وسار المسلمون في أكثر عصورهم سيرة عمر بن الخطاب، سار عليها الخلفاء الأمويين عند انتصارات المسلمين في الهند والأندلس، وسار عليها نور الدين زنكي في انتصاراته ضد الصليبيين، وسار عليها صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس والأشرف خليل، هؤلاء الأبطال الذين قضوا على حكم الصليبيين في فلسطين ولكن دون تنكيل ودون وحشية، ونختم هذا البحث بنماذج من أقوال بعض الكتاب المسيحيين يعترفون فيها بما ناله المسيحيون في ظل الإسلام من سلام وعون.

يقول عيشو بابه أحد البطاركة المسيحيين: إن العرب الذين مكنهم الرب

---

(١) فتوح البلدان ص ١٤٣.

من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون، إنهم ليسوا بأعداء للنصرانية، بل، يمتدحون ملتنا، ويوقرون قسيسينا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا (١).

ويقول آدم متز (٢) إن ما يميز المملكة الإسلامية عن أوربا النصرانية في القرون الوسطى أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقي الأديان الأخرى غير الإسلام، وليست كذلك الثانية، وإن الكنائس والبيع ظلت في المملكة الإسلامية كأنها خارجة عن سلطة الحكومة، فكأنها لا تكن جزءا من المملكة، معتمدة في ذلك على العهود وما أكسبتها من حقوق، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين، فتسبب عن ذلك خلق جو من التسامح لم تعرفه أوروبا في القرون الوسطى.

----

(١). ١٥٦. Thomas of Marga :٢ p Books of Geverners Vel
نقلا عر " روح الإسلام " ص ٢٠١.

(٢) An lntreductiou to the Islamic Civilization translated by Khuda Bakhsh .

الدين المعاملة

اتجه كثير من المسلمين بالاسلام اتجاه عبادة، وحسبوه صلاة، وصوما وتسبيجا، وتناسوا جانب المعاملة فيه، ونحب أن نوضع أن الإسلام يهتم اهتماما كبيرا بالمعاملة، ومن القواعد التي وضعها الأصوليون أن حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق الناس مبنية على المشاحجة، فإذا قصر مسلم في حق من حقوق الله فإن التوبة تغفره وعفو الله قد يشمله، ولكن إيذاء الناس يغفر إلا إذا عفا الناس، فرد الحقوق شرط أساسي لقبول التوبة، وحسن المعاملة بكل ما تحتمله هذه الكلمة من معنى، أصل من أصول الإسلام، بل أصل مهم جدا، فالإسلام ينظم علاقات الناس بالناس على أسس من الحب والعدالة مع اتباع النظم الإسلامية في البيع والشراء والميراث والزواج والطلاق والهبة وغيرها، ومع اتباع آداب الإسلام في معاملة الناس، والاخلاص للعمل، والتضامن في أداء الواجب، والبعد عن إيذاء الناس، كل هذا وما يماثله أجزاء مهمة من الدين الإسلامي، ولا يكمل الدين بسواها.

وقد ورد أن رجلا قال للنبي: يا رسول الله، إن فلانة تكثر الصلاة والصوم والصدقة ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها. فقال: هي في النار.

ولست أنوي في هذا البحث أن أكتب عن خلق المسلم، وأصور اهتمام القرآن الكريم والحديث الشريف بجانب المعاملة في هذه الخلق، فإن هذا بحث طويل يجدر به أن يكون مستقلا، وقد عنى به كثير من الباحثين القدامى والمحدثين (١)، ولكنا هنا لا نجد بدا من تخصيص فراغ محدود جدا نذكر

---

(١) اقرأ الإحياء للإمام الغزالي وخلق المسلم للأستاذ الشيخ محمد الغزالي.

فيه المسلم بأخلاق الإسلام. تلك الأخلاق التي يجمعها الحديث الشريف، " الدين المعاملة " فالمعاملة ليست فقط جزءا من الدين وإنما هي الدين كله كما وضحه هذا الحديث، وفيما يلي صورة سريعة لأخلاق المسلم كما رسمتها مصادر الشريعة موضحة بها النهج الذي يجب على المسلم أن يتبعه في سلوكه ومعاملته.

الرجل الكامل في القرآن:

يقول المرحوم محمد حسين هيكل (١): لقد طالما صور الكتاب في مختلف العصور والأمم صورة الرجل الكامل، صوره الشعراء والكتاب والفلاسفة والمسرحيون، صوروا هذه الصورة في العصور القديمة، ولا يزالون يصورونها حتى اليوم، ومع ذلك لن تجد صورة لهذا الرجل الكامل كهذه الصورة الفذة التي وردت في سياق سورة الإسراء، وهي ليست إلا بعض ما أوحى الله إلى رسوله من الحكمة، لا يقصد بها إلى تصوير الرجل الكامل وإنما يقصد بها أن يذكر الناس ببعض ما يجب عليهم، يقول تعالى: " وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل: رب ارحمهما كما ربياني صغيرا، ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا، وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، وكان الشيطان لربه كفورا، وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك

---

(١) حياة محمد ص ٣٤.

ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا، إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا، ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا، ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا، وأوفوا الكيل إذا كلتم، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ذلك خير وأحسن تأويلا، ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا، ولا تمش في الأرض مرحا، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها (١) ".

وهكذا تجد بهذه المجموعة من الآيات ألوانا من حسن المعاملة والارشاد لتعاون كامل، فهي تبدأ بالأمر بتوحيد الله ثم تربط به ضرورة الاحسان للأبوين، وتعرج على ذوي القربى، ثم المحتاجين عموما، وتنفر من الزنا، وقتل النفس بغير حق، وتوصي باليتيم وتخوف من ماله، وتحث على إيفاء الكيل والميزان، وتصل القمة عندما تذكر الإنسان أنه سيسأل عن سمعه وبصره وعقله، فعليه ألا يسئ استعمال هذه المنح الإلهية، ثم تذكر الإنسان بضعفه وقلة شأنه، فينبغي له أن يدع الكبر وأن يتخلق بالتواضع.

ولا شك أن من اتبع هذه التعاليم كان جديرا أن يكون كاملا أو أقرب إلى الكمال.

الإسلام والمساواة:

من الحق علينا أن نتخذ التؤدة دستورنا ونحن نتحدث عن موقف الإسلام من المساواة، فقد وقف الإسلام نحوها موقفا فريدا بين الاتجاهات

---

(١) سورة الإسراء الآيات ٢٣ - ٣٨.

القديمة والاتجاهات الحديثة، فالهندوسية قسمت أتباعها أقساما متميزة، وجعلت الحقوق تتفاوت بتفاوت هذه الأقسام، وجاءت البوذية بالهند أيضا فألغت الطبقات ولكن بشرط الدخول فيها، فلم تتخذ البوذية المساواة مبدأ لذات المساواة، ولكنها جعلت كل البوذيين - لا كل البشر - متحدين (١).

وفي بلاد فارس وجدت نظرية " الحق الإلهي المقدس " التي تجعل الملوك آلهة أو ممثلين للآلهة، وتقول بأن دما إلهيا يجري في عروقهم دون سائر البشر (٢).

وجاءت اليهودية، فجعلت اليهود شعبا مختارا يفوق كل الشعوب، ثم راح اليهود داخل الشعب نفسه يكونون الطبقات، فباركوا أبناء يعقوب ولعنوا أبناء أخيه الأكبر عيسو، وسار اليهود على مبدأ التفريق بين البشر إلى أبعد الشوط، فجعلوا الرحمة والعطف والإخاء والمودة وقفا على فقراء اليهود ومحرمة على سواهم، وحرموا الربا مع اليهود وأباحوه مع غيرهم، وورد بالعهد القديم عن ذلك " للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا، لكي يباركك الرب إلهك في كل ما تمد إليه يدك (٣) ".

وجاءت المسيحية لترد اليهود عن جشعهم وتعلقهم بالمادة، ولتحث على إطعام الفقير ورعاية البائس، ولكن سرعان ما تحولت المسيحية بفعل رجال الكنيسة إلى خلق الطبقات والتفريق بين شعب وشعب، وكذلك إلى عزل الكنيسة عن المجتمع وعزل الدين عن الحياة، وطالما ناصرت الكنيسة الباطل، ورعت الحكام الجائرين، وأباحت لهم الشهوات واللذائذ،

---

(١) أنظر كتاب " أديان الهند الكبرى " من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف.

(٢) أنظر " المجتمع الإسلامي للمؤلف " وبمثل هذا قالت الهندوسية كما سيأتي عن الكلام عن " الإسلام والحرية ".

(٣) سفر الخروج الأصحاح الثاني والعشرين وانظر كتاب " اليهودية " للمؤلف.

وجعلتهم طبقة أرفع من طبقات البشر، كما فعلت الكنيسة القيصرية (١).
ذلك هو الاتجاه، القديم، فكيف اتجهت المدنية الحديثة حيال المساواة؟.
إن الإجابة عن هذا السؤال لا تحتاج إلى كبير عناء، فالتفرقة العنصرية وهي التي يعامل بها البيض سكان المستعمرات تدل دلالة واضحة على الطبقية المسعورة التي خلفتها هذه المدنية الزائفة، ومن ذلك ما يعانيه الزنوج بأمريكا من اضطهاد وعسف، وقد دفع كنيدي حياته ثمنا لموقفه العادل من هؤلاء الزنوج، فما إن نادى بالمساواة وعمل على أن يلزم بها المتعصبين حتى دبرت جريمة اغتياله من الصهاينة ورعاة التفرقة العصرية البغيضة.
فماذا كان موقف الإسلام من المساواة؟
كان موقف الإسلام حاسما حول هذا الموضوع، إنه موقف يحدده القرآن الكريم والسنة وعمل الصحابة الأبرار، قال تعالى: " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم (٢) "! فهذه الآية تذكر الناس بوحدة المنشأ، وتقرر أن التفاضل لا يتخذ أساسه أصول الناس وألوانهم، بل ما يقدمونه من عميق الإيمان والعمل الصالح.
ومن السنة ينطلق قوله عليه السلام في خطبة الوداع: أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

---

(١) أنظر " الأديان " للأستاذ محمد فؤاد الهاشمي ص ١٢٧.
(٢) سورة الحجرات الآية ١٣.

وروي أن أبا ذر الغفاري كان يناقش عبدا في حضرة الرسول، فاحتد أبو ذر وصاح بالعبد: يا ابن السوداء. فالتفت له المعلم العظيم وألقى في وجهه بتعبير يعتبر غاية في الاستنكار، هو: طف الصاع، طف الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح. وقد أدرك أبو ذر من كلام الرسول مدى الخطأ الذي ارتكبه بتفكيره الطبقي، فهوى من استعلائه في لحظة قصيرة، ووضع خده على الأرض وقال للعبد: قم فطأ خدي.

والتشريع في الإسلام عام أي أنه تشريع للناس جميعا وإن اختلف أجناسهم أو طبقاتهم، وقد كانت القوانين قبل ذلك تختلف باختلاف الطبقات، فقد روي أنه لما سرقت فاطمة بنت الأسود المخزومية، جاء أسامة بن زيد يشفع لها، فأنكر الرسول على أسامة شفاعته لها، وقال للناس حوله: إنما أهلك من كانوا قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

ومن وصايا عمر بن الخطاب لولاته قوله:

- سو بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في جنبك، ولا ييأس ضعيف من عدلك.
- اجعل الناس عندك سواء، لا تبال على من وجب الحق، ثم لا تأخذك في الله لومة لائم، إياك والأثرة، والمحاباة فيما ولاك الله.

وهكذا قرر الإسلام المساواة ولا يزال يوصي بها، وإن شطت الاتجاهات القديمة، أو ضعفت المدنية الحديثة عن التمسك بهذا الخلق القويم.

الإسلام والحرية:

إن موقف الأديان والمدنيات من الحرية ليس بعيدا عن موقفها من المساواة، فالطبقات في الهندوسية نصت على أن " الملك إلى في صورة إنسان فوق الأرض وإن كان طفلا رضيعا " وألزمت طبقات الشعب أن تقدم له أعمق الاجلال، ولم تدع الحرية لأحد من هذه الطبقات أن ينقده أو يعلق على تصرفاته، وقد جاء في شرائع " منو " ما يلي: ويأمر الملك بصب زيت حار في فم الشودرا وفى أذنيه إذا ما بلغ من الوقاحة ما يبدي به رأيا للبراهمة في أمور وظائفهم (١).

وحرمت الديانة اليهودية على الشعب اليهودي مناقشة الأحبار والكتبة والقديسين.

وفي المسيحية سرعان ما استولت الكنيسة على مقاليد السلطة، واستغلت الشعب المسيحي أسوأ استغلال مما أدى إلى وجود طوائف خارجة على الكنيسة، ولما شعرت الكنيسة بوجود المفكرين الذين خرجوا عما رسمته من قواعد وأصول، رأت في ذلك ما يهدد سلطانها ويضعف مركزها أمام تيار الفكر الحديث والعلم الأخذ في النماء، فانطلقت تقاوم وتجاهد تلك الأفكار وذلك العلم، فحاولت تكميم الأفواه البريئة، وتعطيل الأفكار الحرة التي تناقض نظرياتها، ومن هنا كان العداء الشنيع بين الكنيسة وحرية الفكر منذ ذلك الحين، وأصدرت قرارات بتحريم قراءة حوالي خمسة آلاف كتاب من بينها كتب جان جاك روسو وديكارت وفكتور هوجو وغيرهم (٢) وعند ما ظهر القول بكروية الأرض - ذلك الأمر ذلك عرفه المسلمين وصار رأيا لهم منذ أول خلافة بني العباس - أحدث اضطرابا شديدا في عالم النصرانية، وهددت الكنيسة من يقول به (٣).

----

(١) أديان الهند الكبرى للمؤلف ص ٥٩.
(٢) محمد فؤاد الهاشمي: الأديان ص ١٥٨ وعن الكتب التي حرمتها الكنيسة اقرأ كتاب " المسيحية " للدكتور أحمد شلبي ص ٦٨ من الطبعة الرابعة.
(٣) الإمام محمد عبده: الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٤٢.

هذا عن حرية الرأي والبحث، أما حرية التدين فقد ألغته الكنيسة واتخذت قرارات غاية في القسوة سواء في ذلك ضد اليهود أو ضد البروتستانت أو ضد المسلمين، ففي ٣٠ مارس سنة ١٤٩٢ أصدرت الكنيسة بإسبانيا قرارا بأن كل يهودي لم يقبل المعمودية في أن سن كان وعلى أي حال يجب أن يترك إسبانيا قبل يوليو، ومن رجع منهم إلى هذه البلاد عوقب بالقتل، وفي فبراير سنة ١٥٠٢ نشر الأمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) إذا لم يقبلوا التعميد، وشرط على من يترك منهم إسبانيا ألا يذهب في طريق يؤدي إلى بلاد إسلامية، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

وقد أصدر البابا منشورا سنة ١٧٦٤ جاء فيه لعن كل من يقول بجواز أن يفسر أحد شيئا من الكتب المقدسة على خلاف ما ترى الكنيسة، أو يرى بأن الشخص حر فيما يعتقد ويدين به لربه، وأصدر منشورا سنة ١٨٦٨ ينص على أن المؤمنين (المسيحيين) يجب عليهم أن يفدوا الكنيسة بأرواحهم وأموالهم، وعليهم أن ينزلوا لها عن آرائهم وأفكارهم (١)، ولما ظهرت طائفة البروتستانت جعلت الكنيسة الكاثوليكية عقوبة الاعدام قانونا يحكم به على كل من يخالف معتقد الطائفة، ومن أهم المذابح التي وقعت للبروتستانت مذبحة باريس سنة ١٥٧٢ التي سطا فيها الكاثوليك على ضيوفهم البروتستانت وقتلوهم خيانة وهم نيام (٢).

ولم يعرف العالم القديم حريز التملك، فقد كان النظام الاقطاعي منتشرا، وكانت الأرض ملكا للحاكم ولقلة من أعوانه، أما الشعب فكان رقيقا تابعا للأرض، لا حق له ولا حرية.

---

(١) الإمام محمد عبده: الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ١٤.
(٢) أنظر " المسيحية " للمؤلف ص ٣٧.

ذلك هو موقف الأديان والثقافات من الحرية قبل الإسلام. فماذا كان موقف الإسلام؟

في الإجابة عن هذا السؤال نلجأ إلى اقتباسات من القرآن الكريم توضح بما لا يدع مجالا للشك تقدير الإسلام للحرية في كل مجالاتها.

فعن حرية الفكر تجد الإسلام يحث الناس على التفكير، والعلم، والتدبر، والعمق، قال تعالى:

– أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور (١).

– هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب (٢).

– يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (٣).

– شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط (٤).

وقال صلى الله عليه وسلم: الدين هو العقل، ولا دين لمن لا عقل له. وقال: فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد.

وعن حرية التدين يقول الله تعالى:

– لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي (٥).

– لكم دينكم ولي دين (٦).

____

(١) سورة الحج الآية ٤٦.

(٢) سورة الزمر الآية التاسعة.

(٣) سورة المجادلة الآية ١١.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨.

(٥) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٦) سورة الكافرون الآية السادسة.

- ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة (١).
- فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر (٢).
- قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله (٣).
- ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن (٤).

وعن الحرية السياسية جعل الإسلام للمسلم حق اختيار الحاكم، ومناقشته، والاعتراض على ما لا يقبل من تصرفاته، وحق عزله، وحفل التاريخ الإسلامي بنماذج من الاعتراض على الحاكم تعد غاية في الرقي والتطور، ففي غزوة بدر أراد الرسول أن ينزل بجنوده منزلا، فسأله الحباب بن المنذر: هل أنزلك الله هذا المنزل أو هو اجتهاد من عندك؟ فأجاب الرسول: إنه اجتهاد من عندي. فقال الحباب: أما إذ كان الأمر كذلك فليس هذا بمنزل، وأشار بمكان آخر فارتضاه الرسول وارتضاه المسلمون.

وفي غزوة الأحزاب اتفق محمد مع أهل الطائف على أن ينفضوا ويفكوا حصار المدينة، وكتب معهم وثيقة بثلث ثمار المدينة نظير ذلك، فسأله قادة الأنصار: هل هذا الرأي من عندك أو وحي من الله؟ فأجاب بأن هذا الأمر من اقتراحه هو رجاء أن تنفض الغمة، وحينئذ تناول سعد بن معاذ هذه الوثيقة ومزقها ووافقه المسلمون على ذلك (٥).

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٥.
(٢) سورة الغاشية الآيتان ٢١ - ٢٢.
(٣) سورة آل عمران الآية ٦٤.
(٤) سورة العنكبوت الآية ٤٦.
(٥) الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت: من توجيهات الإسلام ص ٥٣٠.

وخطب عمر بن الخطاب مرة يندب الناس للجهاد، فوقف رجل وقال: لا سمعا ولا طاعة. فسأله عمر: لماذا؟ فأجاب الرجل: لقد قسمت علينا أقمشة من بيت المال وكان نصيب الواحد لا يكفي ثوبا، وأراه عليك الآن ثوبا كاملا وأنت رجل طويل. قال عمر لابنه عبد الله: أجبه يا عبد الله. قال عبد الله: لقد أعطيت أبي من نصيبي ما يكمل به ثوبه. قال الرجل: أما الآن فالسمع والطاعة.

واحترم الإسلام حرية الملك وحرمها ووضع الأسس لنقلها من المالك إلى ورثته.

تعال بنا بعد هذا نجل جولة سريعة مع الفكر الإسلامي لنقتبس من آيات القرآن الكريم ومن أحاديث الرسول ما يكمل لنا بإيجاز رسم صورة الرجل المسلم:

المسلم لا يسخر من الناس:

يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن، ولا تلمزوا أنفسكم، ولا تنابزوا بالألقاب، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (١).

المسلم لا يأخذ بالظن ولا يتجسس:

يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه (٢).

----

(١) سورة الحجرات الآية ١١.
(٢) سورة الحجرات الآية ١٢.

الإسلام يدعو للاتحاد:
- واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا (١).
- ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم (٢).
الإسلام يدعو لأداء الأمانة والوفاء بالعهد:
- إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها (٣).
- والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون (٤).
- وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كنا جلوسا عند الرسول فأقبل علينا رجل من أهل العالية فقال: أخبرني يا محمد عن أشد شئ في هذا الدين وألينه. فقال له: يا أخا العالية، ألين شئ في هذا الدين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأشده يا أخا العالية الأمانة، ألا أنه لا دين لمن لا أمانة له وإن صام وصلى.
الإسلام يحذر من الغش ومن تطفيف الكيل:
- وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم (٥).
- ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون (٦).
الإسلام ينهى عن الحسد:
- ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض (٧).

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٢.
(٢) سورة الأنفال الآية ٤٦.
(٣) سورة النساء الآية ٥٨.
(٤) سورة المؤمنون الآية ٨.
(٥) سورة الإسراء الآية ٣٥.
(٦) سورة المطففون الآية ١ - ٣.
(٧) سورة النساء الآية ٣١.

- أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله (١).
- قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد (٢).

الإسلام ينفر من الفسوة على اليتيم ومن أكل ماله:

- فأما اليتيم فلا تقهر (٣).
- أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم (٤).
- وآتوا اليتامى أموالهم، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم، إنه كان حوبا كبيرا (٥).

الإسلام يأمر بالعدل وينفر من الظلم:

- إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي (٦).
- وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى (٧).
- يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى (٨).

الإسلام ينفر من الرشوة:

- ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم (٩).

---

(١) سورة النساء الآية ٣٥.
(٢) سورة الفلق كلها.
(٣) سورة الضحى الآية ٩.
(٤) سورة الدين الآيتان ١ - ٢.
(٥) سورة الأنعام الآية ١٥٢.
(٦) سورة النمل الآية ٩٠.
(٧) سورة الأنعام الآية ١٥٢.
(٨) سورة المائدة الآية ٨.
(٩) سورة البقرة الآية ١٨٨.

- وقال صلوات الله عليه: الراشي والمرتشي في النار.
الإسلام ينفر من شهادة الزور:
- فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور (١).
- والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما (٣).
الإسلام يوصي بالجار:
- واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وبالوالدين إحسانا، وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب (٣).
- عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.
الإسلام يدعو للتعاون والإيثار:
- وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان (٤).
- لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون (٥).
- ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (٦).
- فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، والذين هم يراءون ويمنعون الماعون (٧).

---

(١) سورة الحج الآية ٣٠.
(٢) سورة الفرقان الآية ٧٣.
(٣) سورة النساء الآية ٣٦.
(٤) سورة المائدة الآية ٣.
(٥) سورة آل عمران الآية ٩٢.
(٦) سورة الحشر الآية ٩.
(٧) سورة الماعون الآيات ٤ - ٧.

الإسلام يوصي بالحط عن المدين وعدم تعجله:
- وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة (١).
- رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى.
- من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه.

تلك نماذج من المعاملة التي رسمها الإسلام لاتباعه ومعتنقيه، وقد دلتنا هذه النصوص على أن سوء معاملة الناس دليل على عدم الانتفاع بتوجيهات الإسلام، ومن ادعى الإسلام وبعد عن أخلاقه وتوجيهاته، كان كشجرة لا ثمر لها ولنستعد قول الرسول عن المرأة التي تكثر الصوم والصلاة ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها حيث قال: هي في النار. وقوله: لا دين لمن لا أمانة له. فإذا أردت أن تكون مسلما فلتتبع حديث الرسول الذي جعلناه عنوانا لهذا البحث وهو " الدين المعاملة ".

----
(١) سورة البقرة الآية ٢٨٠.

انتشار الإسلام (*)
بين الدعوة والقوة

يعتقد بعض المستشرقين وبعض من لم تتح لهم الفرصة للتعمق في الدراسات الإسلامية، أن القوة كانت عاملا مهما في انتشار الإسلام، ويتخذون من الحروب التي حدثت في حياء الرسول وبعد وفاته دليلا على ذلك، وردا لهذا الادعاء نأخذ في شرح هذا الموضوع، ونبدأ بأن نسأل سؤالين هامين:

١ - هل انتشر الإسلام بالدعوة أو بالقوة؟ وما الدليل على ذلك؟

٢ - وإذا كان قد انتشر بالدعوة فلماذا وقعت الحروب بين المسلمين وغيرهم؟

للإجابة عن السؤال الأول نقول في قوة وإصرار إن الإسلام لم ينتشر بالسيف وإنما انتشر بالدعوة، ونضع البراهين الواحد بعد الآخر في سلسة من آيات القرآن، ثم في سلسلة من أحداث التاريخ بحيث لا يبقى للشك مجال:

فأما القرآن الكريم وهو دستور المسلمين الواجب الاتباع، فقد وضح في عدة آيات أن الدعوة هي الطريق إلى الإسلام، وأنه لا يجوز إجبار أحد على تغيير دينه، قال تعالى:

- لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي (١).

---

(١) أنظر ما كتبناه عن هذا الموضوع في الجزء الأول من " موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ".

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦. وقد أوردنا هذه الآيات الكريمة في الصفحات الماضية للتدليل على حرية العقيدة عند المسلمين.

- ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة (١).
- لكم دينكم ولي دين (٢).
- فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب (٣).
- فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر (٤).

وأما سلسلة التاريخ فترينا بوضوح أن الإسلام سلك طريقه بالدعوة، متبعا هذه الآيات البينات، ومبتعدا كل البعد عن القسوة. وإلى القارئ بيان ذلك:

١ - حينما كان الرسول في مكة، وحينما بدأ دعوته وحيدا لا سلاح معه ولا مال، دخلها مجموعة من عظماء الرجال من أمثال أبي بكر وعثمان وسعد بن أبي وقاص وطلحة والزبير ثم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب. فهل يمكن أن نقول أن هؤلاء دخلوا بالقوة؟

وأين القوة في ذلك الوقت؟

٢ - واضطهدت قريش المسلمين اضطهادا قاسيا، وأنزلت بمحمد وأتباعه ألوانا من العذاب، وفي وسط هذا العناء حينما كان محمد والمسلمون معه بمكة مغلوبين على أمرهم مستضعفين، كان أهل المدينة يسعون للإسلام فيعتنقونه ويدعون له ذويهم وأهليهم، فهل يمكن أن نقول أن الإسلام انتشر بالقوة بين سكان المدينة؟

٣ - جاء الصليبيون إلى الشرق إبان ضعف الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية لمحاولة القضاء على الإسلام، وإذا بالاسلام يجذب جموعا منهم

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٥.
(٢) سورة الكافرون الآية السادسة.
(٣) سورة الرعد الآية ٤٢.
(٤) سورة الغاشية الآيتان ٢١ - ٢٢.

فيدخلون ويحاربون في صفوف المسلمين. ويقول أرنولد: لقد اجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عددا مذكورا حتى في العهد الأول أي في القرن الثاني عشر، ولم يقتصر ذلك على عامة النصارى بل إن بعض أمرائهم وقادتهم انضموا أيضا إلى المسلمين في ساعات انتصارات المسيحيون.
ويروي توماس أرنولد عن بعض مؤرخي النصارى قوله: إن ستة من أمراء مملكة القدس استولى عليهم الشيطان ليلة معركة حطين، فأسلموا وانضموا إلى صفوف الأعداء دون أن يقهروا من أحد على ذلك، ويعلل توماس أرنولد لانتشار الإسلام بين الصليبيين بقوله: ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة، قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيرا سحريا خاصا، حتى أن نفرا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين، وكذلك كانت الحال عندما طرح النصرانية، مثلا، فارس إنجليزي من فرسان المعبد، يدعى روبرت أوف سانت أليانس سنة ١١٨٥ م واعتنق الإسلام ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين (١).
فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بين الصليبيين بالقوة؟
٤ – في القرن التاسع الهجري هجم المغول على العالم الإسلامي، وكان هجومهم وحشيا قاسيا مدمرا، سفكوا الدماء فسالت أنهارا، وحطموا الحضارة الإسلامية، وهدموا القصور والمساجد، وأحرقوا الكتب، وقتلوا العلماء، وامتدت أيديهم إلى الخليفة فقتلوه وقتلوا معه أهله. وأزالوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ ه، وأصبحت للمغول اليد العليا، وهوت أمامهم كل قوى المسلمين

---

(١) اقرأ ما كتبه توماس أرنولد عن " حالات التحول إلى الإسلام بين الصليبيين " في كتابه: الدعوة إلى الإسلام ص ٧. ١ وما بعدها.

في عاصمة الخلافة وما حولها، ولكن سرعان ما جذب الإسلام إليه هؤلاء الفاتحين الغزاة، وسرعان ما دخله المغول الذين هاجموه وعملوا على تقويضه. فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بين المغول بالقوة؟

يقول سير توماس أرنولد في ذلك: لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من خطوب وويلات خطبا أعنف قسوة من غزوات المغول، فلقد انسابت جيوش جنكيزخان، واكتسحت في طريقها العواصم الإسلامية وقضت على ما كان بها من مدنية وحضارة... على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته وظهر من بين الأطلال، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه (١).

٥ – وهل كانت غزوات الرسول ذات بال من الناحية الحربية؟ إن التاريخ يحدثنا أن كثيرا من غزوات الرسول انتصر فيها أعداء المسلمين، ولكن الإسلام كان ينتشر في حالتي انتصار المسلمين وانهزامهم (٢).

٦ – يحدثنا التاريخ بصراحة ووضوح أن أهم فترة انتشر فيها الإسلام هي فترة السلم الذي تلا صلح الحديبية بين قريش والمسلمين، وكانت فترة السلم سنتين، ويقول المؤرخون إن من دخل الإسلام في خلال هاتين السنتين أكثر ممن دخلوه في المدة التي تقرب من عشرين عاما منذ بدء الإسلام حتى ذلك الصلح. وهذا يدلنا على أن انتشار الإسلام تبع السلام ولم يتبع الحرب.

٧ – وهناك فكرة مهمة يجدر بنا أن نوضحها تماما، ويجدر بالقارئ أن يتفهمها، تلك الفكرة هي أنه لا علاقة بين انتشار الإسلام وبين حروب المسلمين مع الفرس والروم وغيرهم فقد كانت الحروب تشتعل، وكان المسلمون

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ١٤٨ و ١٥٠.
(٢) اقرأ المجتمع الإسلامي للمؤلف ص ١٢٨ – ١٣٣.

ينتصرون، ثم تتوقف الحروب وتتوارى السيوف، وحينئذ يتقدم الدعاة والمعلمون فيشرحون نظم الإسلام ومبادئه وفلسفاته، وكانت هذه الدعوة السمحة تجذب لها الناس وبخاصة عندما رأت الشعوب المغلوبة الفرق الكبير بين حكم قيصر وطغيانه، وبين بساطة عمر بن الخطاب وسماحته وتواضعه، وبالدعوة دخل الناس أفواجا في الدين الجديد، فمنهم من أسرع في الدخول ومنهم من دخل بعد عام، أو خمسة أعوام، أو مائة...

ويقول Kirk (١) إن غالبية أهل الشام ومصر السفلى في القرن التاسع الميلادي كانت لا تزال مسيحية على الرغم من أن الإسلام كان قد مضى عليه في هذه البقاع أكثر من قرنين.

ومن هؤلاء المسيحيين من لم يدخل الإسلام حتى الآن، وتستطيع أن ترى اليوم الآلاف أو الملايين من المسيحين في مصر والجمهورية العراقية وغيرهما من البلاد الإسلامية.

مرة أخرى لا علاقة بين انتشار الإسلام وبين الحروب.

ومثل هذا ما ذكره Fage and Roland Oliver. J من أن الإسلام لم يتخذ طريقه وراء الصحراء بإفريقية إلا بعد انحلال دولته الكبرى في المغرب، وكانت وسيلة الإسلام لهذه البقاع هي الثقافة والفكر والدعوة، فانتشر الإسلام بين شعوب البربر وبين الزنوج، وقامت خلف الصحراء دول إسلامية لعبت في التاريخ دورا كبيرا (٢).

٨ – وانتشر الإسلام انتشار واسعا في الشرق الأقصى (ماليزيا وإندونيسيا) وانتشر كذلك في إفريقية كما أشرنا آنفا، فأين القوة التي نشرته في هذه البلاد الفسيحة وجذبت له قلوب الملايين؟.

وكاتب هذه السطور عاش في إندونيسيا عدة سنين، ورأى الإسلام بنفسه

----

(١). A short history of the Middle Fast p .٣٦

(٢) A Short History of Africa p .٧٧ وانظر الجرء السادس من موسوعة التاريخ الإسلامي " للمؤلف

وهو ينتشر بين الإندونيسيين بيسر وبساطة، رآه وهو يهزم الديانات الأخرى والأفكار المتعددة ويتقدم إلى الطليعة لا تدفعه إلا مبادئه السمحة وتعاليمه المعقولة الهادئة لها البسيطة، وقد رأيت في إندونيسيا صراعا بين الأديان والأفكار، كل منها يريد أن يكون أسرع وصولا إلى قلوب الإندونيسيين، ولكل منها وسائل وطرق تعمل على تحقيق هذه الغاية. كانت المسيحية يساعدها أو قل يفرضها بطش المستعمر وماله وجاله، والكونفوشية يساعدها ملايين الصينيين الذين يقيمون في إندونيسيا – وتدفعها الثروات الضخمة التي يملكها هؤلاء الصينيون، والهندوكية والبوذية تساعدهما صلات الهند بإندونيسيا، تلك الصلات الثقافية والحضارية التي تضرب في أعماق التاريخ، ورأيت الإسلام تدفعه مبادئه ويرعاه الله، يعلمه عرب هاجروا من البلاد العربية بثقافة محدودة وبدون مال ولا سلطان، أو يعلمه إندونيسيون ينطبق عليهم وصف العرب في فقرهم وقلة سلطانهم، فماذا كانت نتيجة هذا الصراع؟

أما الكنفوشية فقد خرجت صفر اليدين، ولم تجذب إليها فردا واحدا تقريبا من أبناء إندونيسيا. وقنعت الهندوكية والبوذية بنصيب ضئيل حصلت عليه غالبا قبل زحف الإسلام. وجذبت مدارس المسيحيين ومستشفياتهم ووظائفهم عددا قليلا لا يتجاوز المليونين، وأغلبهم سقطوا في المسيحية مخدوعين، فالطفل يدخل مدرسة مسيحية ويتلقى تعاليم هذه الديانة ثم يخرج مسيحيا ولا يعرف غير المسيحية، والمريض يشترك في الصلوات والأدعية التي تقام في المستشفيات وليس له إلا الاشتراك أو الطرد من المستشفى، وهكذا دواليك. أما الإسلام فقد اكتسح وتسرب في النور وبالدعوة السلمية إلى أكثر من تسعين في المائة من سكان إندونيسيا الذين يقربون من تسعين مليونا. أما انتشار الإسلام في إفريقية فندع الحديث عنه إلى شاهد عيان آخر

ذلك هو الكاتب المسيحي الفرنسي هوبير ديشان حاكم المستعمرات الفرنسية بإفريقية حتى سنة ١٩٥٠ وهو يقول (١):

إن انتشار دعوة الإسلام في أغلب الظروف لم تقم على القسر، وإنما قامت على الاقناع الذي كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بربهم، وكثيرا ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمي البطئ من قوم إلى قوم، فكان إذا ما اعتنقته الأرستقراطية وهي هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة، وقد يسر انتشار الإسلام أمر آخر هو أنه دين فطرة بطبيعته، سهل التناول، لا لبس ولا تعقيد في مبادئه، سهل التكييف والتطبيق في مختلف الظروف، ووسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر، إذ لا يطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين فيصبح بذلك في عداد المسلمين، وقد حبب الإسلام إليهم مظاهره الخلابة كالثوب الفضفاض والمسبحة والكتابة العربية والوقار الديني وشعائر الصلاة، مما يضفي على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحرة، فالذي يدخل الإسلام ولو في الظاهر، يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة، وأنه ازداد من القوة والحيوية.

وتقول الباحثة الألمانية الدكتورة llse Lictens Eadter إن التخيير ببلاد الفرس والروم لم يكن بين الإسلام والسيف، وإنما بين الإسلام والجزية، وهي الخطة التي استحقت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك في إنجلترا إبان حكم الملكة الياصابات (٢).

ونجئ بعد ذلك إلى السؤال الثاني: لماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم؟

---

(١) الديانات في إفريقية السوداء ص ١٢٨ - ١٢٩.
(٢). ٥٧. p. lslam and the Modern Age

والإجابة عن هذا السؤال سهلة يسيرة أشرنا إلى بعضها فيما سبق وسنذكر فيما يلي موجزا شاملا لها.

١ - الدفاع عن النفس: يقرر التاريخ أن المسلمين قبل الهجرة لم يؤذن لهم بقتال، وقد ضرب عمار وبلال وياسر وضرب محمد وأبو بكر، ومات ياسر تحت العذاب، ولم يرفع هؤلاء أيديهم لرد الاعتداء الذي وقع عليهم. ولكن المشركين أسرفوا في عدوانهم، ووصلوا إلى حد اتخاذ قرار بقتل محمد. ووضعوا خطتهم على أن ينفذوا قرارهم قبل أن يهاجر إلى المدينة حتى تتخلص الجزيرة العربية من الإسلام والمسلمين. فكان من الضروري أن يدافع المسلمون عن أنفسهم، وقد أذن الله لهم بالدفاع بقوله: " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله " (١).

ويتضح من الآية للذي يمعن النظر أن الإسلام لا يحب القتال، فالفعل (أذن) مبني للمجهول، وفاعله عندما كان مبنيا للمعلوم هو الله سبحانه وتعالى، وقد بني الفعل للمجهول لأن الله لم يرد - فيما أفهم - أن يذكر اسمه الكريم متصلا بالإذن بالقتال. ثم إن نائب الفاعل محذوف تقديره: (القتال) أي أذن لهم القتال، ولم يذكر نائب الفاعل أيضا لأنه كلمة (القتال)، وبدل نائب الفاعل ذكر سبب الإذن وهو (بأنهم ظلموا) وقد دعا هذا بعض المسلمين أن يقولوا عندما نزلت هذه الآية: إنها لا تكفي لنقاتل المشركين، لأن روحها تميل إلى السلم ولو أن ألفاظها تأذن بالقتال. ولم يبدأ القتال الحقيقي بين المسلمين وغيرهم إلا بعد أن نزلت آية أخرى: هي " وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (٢) " ومع أن الإذن هنا صريح إلا أنه مشروط بحالة الدفاع، وعدم الاعتداء، فالاعتداء يسبب سخط الله.

---

(١) سورة الحج الآيتان ٣٦ - ٤٠.

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٠.

وهكذا كان السبب الرئيسي للقتال هو الدفاع عن النفس والعرض والمال.
وهنا يبدو موضوع مهم يتصل بالحبشة تلك البلاد التي ليست بعيدة عن الجزيرة العربية والتي للمسلمين بها عهد منذ مطلع الإسلام، حتى أنهم هاجروا إليها قبل هجرتهم للمدينة. والسؤال المهم هو أن المسلمين لم يهاجموا الحبشة، لأن الحبشة لم تمسهم بسوء، ولو كان المقصود نشر الإسلام بالقوة لهاجموها، فهي أقل قوة من الفرس والروم. قد يقال إن البحر يحميها منهم، والجواب سهل، فقد ملك المسلمين بحرية قوية هاجموا بها القسطنطينية وسيطروا بواسطتها على أهم جزر البحر الأبيض المتوسط، ولكنهم لم يتجهوا للحبشة، فما كانت أعمال المسلمين الحربية إلا دفاعا وردا لاعتداء.
٢ - تأمين الدعوة وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها، فقد كانت الدعوة الإسلامية مهددة، وكانت قريش تسلك كل السبل للقضاء عليها، ثم كان هناك كثير من العرب يميلون للإسلام ويريدون الدخول فيه، ولكنهم كانوا يخافون أن ينزل بهم ما نزل بمن سبقوهم إلى الإسلام من عذاب وإيذاء، فأذن الله لرسوله وللمؤمنين أن يقاتلوا من قاتلهم، وأن يردوا بقوة السيف الاعتداء الذي قد ينزل بأحد منهم، قال تعالى: وما لكم لا تقاتلون في في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء (١).
٣ - المحافظة على الأمة الإسلامية من أن تدكها جيوش الفرس والروم، فقبل الإسلام لم تكن هناك أمة عربية، وإنما كانت هناك قبائل عربية متحاربة متنافرة، ولذلك لم يكن الفرس والروم يقيمون حسابا للعرب، إذ كان العرب داخل جزيرتهم يصطرعون صراعا يكاد يكون متصلا، ولهذا غض الفرس والروم بصرهم عن الجزيرة العربية لأنها لم تكون وحدة يمكن أن تصبح خطرا على الدولتين المجاورتين في الشمال.

----
(١) سورة النساء الآية: ٧٥.

فلما جاء الإسلام آمن به بعض العرب وكفر به آخرون، وقام نزاع عنيف في الجزيرة العربية بين المسلمين وغير المسلمين (قريش واليهود)، وفي هذه المرحلة لم يهتم الفرس والروم أيضا بهذا الدين الجديد، وقالوا إنها حركة قام بها عربي وسيقتلها العرب واليهود، وظنوا إنها نوع من الصراع الداخلي لا يلبث أن يموت.

ولكن سرعان ما بدأ الإسلام ينتصر على أعدائه وينتشر بين العرب، وسرعان ما تكونت في الجزيرة العربية دولة قوية متحدة، وبالإضافة إلى قوتها واتحادها كانت لها مبادئ الدين الجديد، الذي اجتمع العرب حوله، والذي استلزم الدعوة له، وقد فوجئ كسرى وقيصر بحقيقة خطيرة هي أن الرسول أرسل لهما يدعوهما للإسلام في العام السابع للهجرة، ويدعو قومهما كذلك، واعتقد السيدان أن محمدا لم يقنع بتأسيس دولة عربية، وإنما أخذ يطمع في مد سلطانه إلى أرضهما.

كل هذا أدخل الذعر والخوف في نفوس الفرس والروم، فقد أصبحت الجزيرة العربية منافسا خطيرا، قويا متحدا، وأصبحت دولة لها دين ولها مبادئ، تعمل على نشر هذا الدين وإذاعة أفكاره واكتساب الأنصار إليه، ومن أجل هذا دخل الفرس والروم المعركة، وقررتا ضرورة القضاء على الدولة الإسلامية الجديدة والقضاء على الوحدة التي تكونت عند العرب، وقد بدأ ذلك في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد وقعت في عهده غزوة مؤتة بين الروم والمسلمين وقتل فيها مجموعة من خيرة القواد المسلمين، كما خرج الرسول لمواجهة الروم في غزوة تبوك عندما بلغه أنهم تجمعوا لمهاجمة المسلمين.

وكان المسلمون يتوقعون هجوم الروم عليهم كل لحظة، ومما يدل على ذلك

أن صحابيا في أثناء حياة الرسول دق باب عمر بن الخطاب في ليلة وعمر نائم. فهب عمر من نومه مذعورا وهو يقول: ما هو؟ أجاءت غسان؟
وكما تحرش الروم بالمسلمين تحرش بهم الفرس أيضا، فالتاريخ يروي لنا أن القبائل الموالية للفرس كانت توالي الإغارة على أرض المسلمين، ولم تكن حرب المسلمين مع الفرس إلا امتدادا للدفاع الذي قام به المسلمون ليحموا أنفسهم وذويهم من هؤلاء المغيرين.
والحرب – مع ذلك – لم تكن مع الشعوب، وإنما كانت مع قيصر وكسرى وجيوشهما الباغية، هؤلاء الجبابرة الطغاة الذين كانوا يسلبون الشعوب المغلوبة حرياتها وثرواتها، وقد تعاونت هذه الشعوب مع المسلمين وقت الزحف وهذا مما سهل انتصار المسلمين، وقد دخلت أكثر هذه الشعوب الإسلام ولكن بالدعوة التي ابتدأت بعد انتهاء الحروب، ويقرر المؤرخون أن غالبية هذه الشعوب دخلت الإسلام لا وقت الفتح أو عقبه، بل بعد الفتح بأكثر من قرنين، وهذا يقطع بأن انتشار الإسلام لم يرتبط بالحروب وبخاصة إذا لاحظنا ارتباط انتشار الإسلام بفترات الضعف التي عرفها التاريخ الإسلامي كما أشرنا لذلك آنفا.
ومبادئ الإسلام واضحة في أن أي قتال إنما هو لرد عدوان كما سبق القول، وينص القرآن على أن على المسلمين أن يلجئوا للسلم إذا أوقف أعداء الإسلام عدوانهم، قال تعالى: " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله (١) " وقال: " فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا (٢) ".
وقد سار الرسول على هدى هاتين الآيتين الكريمتين، فنراه يخرج لملاقاة الروم عندما بلغه أن جموعهم تجمعت على أطراف الجزيرة وأنها تريد الهجوم،

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦١.
(٢) سورة النساء الآية ٩٠.

فلما وصل إلى تبوك ووجد أن جيوش الروم تراجعت لم يفكر في مهاجمة الروم، وإنما عاد أدراجه إلى المدينة.

علاقة الحالة الاقتصادية بالحروب:

بقي موضوع نحب أن نحققه بإنصاف وعمق، وهو مكانة الناحية الاقتصادية في الفتوح، وقد اهتم بهذه الناحية كثير من الباحثين، وعدها بعضهم العامل الرئيسي في التوسع الذي قام به العرب، يقول Thomas Arnold (١):

إن العرب شعب نشيط فعال، دفعته يد الجوع والحاجة إلى ترك صحاريه القاحلة، واجتياح الأراضي الغنية المجاورة المترفهة.

ويقول دوايت دونلدش: ونشك في الحقيقة فيما إذا كان الحماس الديني وحده كافيا لحملهم على القيام بهذه الغزوات الواسعة على البلاد المجاورة، ويبدو أنهم واصلوا اندفاعهم بسبب الحاجة الاقتصادية الشديدة (٢).

ويقول Poole - lane - Stanley: إننا لا نستطيع أن ننكر أن ثروة الأكاسرة والقياصرة، والأراضي الخصبة، والمدن العامرة، في الممالك المجاورة كانت عاملا كبيرا في تحمس المسلمين لنشر الإسلام (٣).

ويقول الدكتور فيليب حتى (٤): إن الحاجة المادية هي التي دفعت بمعاشر البدو - وأكثر جيوش المسلمين منهم - إلى ما وراء تخوم البادية الفقراء، إلى مواطن الخصب في بلدان الشمال، ولئن كانت الآخرة أو شوق البعض إلى بلوغ جنة النعيم قد حبب لهم الوغى، فإن ابتغاء الكثيرين حياة الهناء والبذخ في أحضان المدنية التي ازدهر بها الهلال الخصيب كان الدافع الذي حبب لهم القتال.

----

(١). Prcaching of Islam p .٤٦.

(٢) عقيدة الشيعة ص ١٧.

(٣). Arabs in Spain p .٤٨.

(٤). l. History of The Arabs vol .١٩٥ - ١٩٩.

هل هذا الكلام صحيح؟ وهل كان البدوي تواقا إلى حياة الهناء والبذخ؟ وهل كان ذلك هو الدافع لهذا البدوي ليخرج قاصدا القضاء على أكبر إمبراطوريتين عرفهما تاريخ العالم في ذلك الوقت؟

نحب أن نقرر أن فكرة ربط الدعوة الإسلامية بالرغبة في الحصول على المال قديمة جدا، بدأت مع بدء الإسلام، واتهم بها محمد نفسه قبل أن يتهم بها هؤلاء المستشرقون معاشر البدو بمدة طويلة، ووجدت أدلة كثيرة تقوض هذه التهمة، ولكنها مع ذلك لا تزال حية.

لقد اتهمت قريش محمدا بأنه طالب مال وعرضت عليه أعز ثرواتها، ولكنه صاح فيهم: " والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه (١) ".

وافتقر محمد بعد غنى، وافتقر أبو بكر بعد غنى، وافتقر عمر الذي آل له السلطان على الإمبراطوريتين، وظل يعيش في تقشف ظاهر، وافتقر عثمان بعد غنى عظيم، ومع هذا بقيت التهمة بأن المسلمين حاربوا لأنهم كانوا طلاب مال وثراء!!

وعند البدء في غزو فارس برزت هذه التهمة في عقل رستم قائد الفرس، وظن أنه يستطيع أن يرضي هؤلاء البدو بحفنات من ذهب الفرس وينجو من قتالهم، فطلب من سعد بن أبي وقاص أن يوجه إليه بعض أصحابه، فوجه إليه المغيرة بن شعبة. فقال له رستم: لقد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم عليه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد، ونحن نعطيكم ما تشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون (٢). والعجيب أن الدكتور حتى يذكر هذه القصة حجة لدعواه،

----

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٧٠.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٦٤.

وينسى أن رأي رستم لا يمكن أن يكون دليلا على المسلمين، وينسى كذلك باقي الرواية حيث سخر المغيرة من رستم ومن ماله، وحيث صاح به بألا مناص من واحدة من ثلاث: الإسلام أو الجزية أو القتال.
والذي ظنه رستم ظنه فيما بعد ملك الصين عندما زحف قتيبة بن مسلم على هذه الأصقاع، وأناب عنه هبيرة الكلابي لمقابلة ذلك الملك بناء على طلبه، فقال له الملك: قل لصاحبك (يقصد قتيبة): إني عرفت حرصه وقلة أصحابه، فلينصرف وإلا بعثت إليه من يهلكه. فصاح هبيرة: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك؟ أما تخويفك إيانا بالموت فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه أو نخافه.
إذا فهذه التهمة قديمة، وردها أيضا قديم كما ترى... على أننا لا نحاول أن ننكر أن بين المحاربين العرب من كان يحب المال أو يسعى إليه، ولكن الذي ننكره بقوة وإيمان هو أن يكون الدافع لهذه الحروب هو المال، ومعنى الدافع هو القوة التي ترسم الخطط وتوجه، وهو كذلك الاحساس الداخلي الذي يحث المحاربين على العمل لتحقيق الأهداف التي رسمت لهم، هذا الدافع كان إسلاميا صرفا، وإذ جاء المال فهو تابع له ولم يكن قط هدفا لذاته، ونضع الأدلة لإبراز هذا الرأي:
أولا - صارع المسلمون الشرك في قلب الجزيرة العربية أكثر من عشرين عاما سقط خلالها آلاف من خيرة المسلمين في الغزوات وحروب المرتدين والمتنبئين ومانعي الزكاة، وكانت كل هذه الحروب تدور في البادية القفراء كما سماها الدكتور حتى، بعيدة عن الأطماع في الأرض التي سماها مواطن الخصب بالشمال. فما الدافع لكل هذه الضحايا؟

أضف إلى ذلك أن المسلمين طالما حاولوا الانتصار دون حرب ودون غنائم كل حصل في فتح مكة، وطالما حصلوا على غنائم ثم ردوها لأصحابها بعد إسلامهم كما حصل في غزوة حنين والطائف.

ثانيا - أي مال كان يمكن أن يتطلع إليه المسلمون والوصول إليه محفوف بالمخاطر؟ وقد سبق أن أوردنا أن عمر بن الخطاب حينما دق بابه أحد الصحابة وهو نائم ليلا هب عمر من نومه مذعورا وهو يقول: ما هو؟ أجاءت غسان؟ وقد عاش البدو آلاف السنين في هذه الجزيرة القاحلة وكانوا يعرفون الخيرات في الشمال، ولكن أحلام أحدهم لم تصل إلى أن يطمع أن يدك عروش الملوك، وأن يجعلها تخضع لسلطان البدو الذين لا سلاح لهم ولا دربة ولا عدد، في حين كان للروم وللفرس جيوش جرارة وعتاد قوي ونظام كامل. وقد كان العرب لذلك يخافون حرب الروم وقد وقعت بهم الهزيمة في غزوة مؤتة، وترددوا طويلا عندما دعوا إلى غزوة تبوك، وقد عبر عبد الرحمن بن عوف عن قوة الروم بقوله: إنها الروم وبنو الأصفر، عزم حديد وبأس شديد.

ثالثا - لقد حافظ المسلمون قبل أن تكتسحهم الأطماع الدخيلة على حياة التقشف والزهد، وعندما حاصروا حصن بابليون بعد أن فرغوا من الشام وفارس كانوا لا يزالون على بساطتهم وصفائهم، وقد أرسل لهم المقوقس رسلا ليتعرفوا له أحوالهم، فعاد الرسل إلى المقوقس وقالوا له: رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، وليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، جلوسهم على التراب، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف كبيرهم من صغيرهم ولا السيد فيهم من العبد...

رابعا - طالت حرب المسلمين مع سكان شمالي إفريقية وامتدت،

وسقط فيها كثير من الضحايا، وكانت الصحراء القاحلة بها آنذاك أبرز من مواطن الخصب ومن الغياض.

خامسا – لقد وقعت معارك عنيفة في داخل صفوف المسلمين، بدأت بموقعة الجمل واستمرت بعد ذلك، وسقط آلاف الضحايا في هذه المعارك، وما كانت تضيف أرضا خصبة ولا هناء ولا بذخا.

ما الدافع الحقيقي لهذه الحروب؟

إنها العقيدة التي رخص من أجلها كل شئ، إنها الرغبة في الحصول على إحدى الحسنيين، وهانت من أجل هذا كل تضحية، لقد كانت هناك أطماع مالية، ولكن هذه بدأت متأخرة، وكانت عند من لم يتعمق الإيمان في نفسه، وكانت على العموم عاملا ثانويا، ومن ذا الذي يحمل رأسه على يده ويقاتل أقوى جيوش الدمار والفتك لينال من بذخ العيش في أحضان الهلال الخصيب؟ والتاريخ الإسلامي مملوء بقصص البطولة، وبهؤلاء الذين نسميهم بالفدائيين الذين يلقون بأنفسهم في مراكز الخطر ليهلكوا وينجو الإسلام وترتفع راية هذا الدين أين المال والرخاء لهؤلاء الشهداء؟

ويقول Poole - Stanley Lane (١): إن تحمس العرب للفتوح كان يؤجحه عنصر قوي من الرغبة في نشر الدين، فقد حاربوا لأنهم يقاتلون أعداء الله ورسوله، وحاربوا لأن مثوبة الشهداء وكئوس السعادة والنعيم كانت تنتظر من يقتلون في سبيل الله.

وقد استمرت الحرب دائرة بين الفرس والروم أربعمائة سنة، وكانت حروب أطماع ودنيا، فلم يستطع هؤلاء أو هؤلاء أن يحرزوا نصرا مؤزرا، لسبب واحد هو قلة العقيدة، فلما هاجمهم البدو بسلاح العقيدة، فل ذلك السلاح كل سلاح، وتهاوت جيوش الفرس والروم تحت أقدام المهاجمين.

----

(١). Arabs in Spain p. ٤٣.

المرأة

كنت أعتقد أنه لامكان للحديث عن المرأة في هذا الكتاب، فالمرأة في الإسلام - فيما أرى - ليست مشكلة، لقد رفع الإسلام مكانتها عاليا، وهيأ لها في المجتمع الإسلامي والمجتمع الإنساني منزلة ممتازة، يدركها كل من فهم التفكير الإسلامي وتدثره.

غير أن هناك طوائف تبحث عن سوءات تنسبها للإسلام، وقد وجدت هذه الطوائف في أحوال المرأة في العالم الإسلامي سوأة أخذت تشهر بها وتذيعها على أنها سقطة إسلامية تقلل من مكانة هذا الدين وتضع من شأنه، وسار بعض المسلمين الذين خدعهم بريق الغرب - والضعيف في الغالب يحب تقليد القوى - سيرة الغرب في هذا الموضوع.

ومن أجل هذا سنتكلم عن المرأة في التفكير الإسلامي، شارحين المشكلات التي تتصل بها بما يناسب روح هذا الكتاب واتجاهاته، تاركين التفاصيل الأخرى إلى مراجع متعددة اهتمت بها (١).

ونحب أن نوضح هنا بعض الأفكار العامة بادئ ذي بدء:

أولا - في خلال الاحتلال الأثيم الذي خضع له العالم الإسلامي أو أكثره عدة قرون، أصيب هذا العالم بنكسة عنيفة في أفكاره وتراثه، حتى أصبح

---

(١) اقرأ عن موضوع المرأة المسلمة:
- فصلا عن تعليم المرأة في كتاب " تاريخ التربية الإسلامية " للمؤلف.
- بابا عن مجتمع الأسرة في " الحياة الاجتماعية في التفكير الإسلامي " للمؤلف.
- الباب الثاني من كتاب " الإسلام عقيدة وشريعة " لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت.
- كتاب " المرأة في الإسلام " للأستاذ كمال أحمد عون، وغيرها من الكتب.

المسلم مسلما باسمه لا بروحه، وحتى وجد فرق شاسع بين واقع المسلمين وبين ما يجب أن يكونوا عليه، وكان نصيب المرأة من هذا التدهور ليس أقل من نصيب الرجل، فإذا قيل إن المرأة المسلمة تعيش في ظلام فلنتذكر أن الرجل المسلم كان كذلك في الغالب، ولا يزال كذلك في كثير من البلدان والقرى.

ثانيا – أدخل المحتلون ألوانا من النظم والعادات والتقاليد إلى العالم الإسلامي، ولا تزال لها بقايا يعير بها الإسلام، والإسلام منها براء، وذلك كنظام الحريم، ورقص البطن، والحجاب.

ثالثا – عندما تحرر العالم الإسلامي وبدأ ينفض عنه الغبار، كان الرجل أسرع للتحرر من المرأة، ولعل هذا شئ طبيعي لأن الرجل أسرع للمغامرة من المرأة، أو لأنه كان ذا نصيب في مكافحة الاستعمار أو في من نصيب المرأة فعادت عليه أولى الثمرات، أو لأن فرص الترقي والتعليم لم تكن تكفي الولد والبنت عند بدء النهضة، فدفع الآباء والأمهات بأبنائهم للمدارس دور العلم، وتأخر دفعهم للبنات.

ومعنى هذه المقدمات، أن تحرر المسلمين، وبالتالي عودتهم الإسلام الصحيح وروحه الحقة، ستزيل هذه السوأة التي شغلت الكتاب حينا من الزمن، واعتقادي أنه بعد فترة قصية لن يكون موضوع " المرأة في الإسلام " موضوعا يحتاج إلى دفاع أو شرح كما لم تعد كروية الأرض موضوعا يجهد الجغرافيون أنفسهم لإثباته، كما كانوا يفعلون منذ جيل واحد.

تلك حقيقة لا بد آتية، لأن الإسلام منح المرأة منذ أربعة عشر قرنا ما لم تمنحه المرأة الغربية إلا بعد ذلك بعدة قرون، أو ما لم تمنحه هذه المرأة إلا في هذا القرن الذي نعيش فيه، أوما لا تزال المرأة الغربية تصارع الآن للحصول عليه.

تعال بنا نذكر لمحات عن المرأة غير المسلمة في الماضي والحاضر لنرى الظلام الحقيقي الذي عانته هذه المرأة المسكينة.

المرأة في غير حمى الإسلام:

قضت الحضارة الرومانية أن تكون المرأة رقيقا تابعا للرجل، لها حقوق القاصر أو لا حقوق لها على الاطلاق، وقد اجتمع في روما مجمع كبير وبحث في شؤون المرأة فقرر أنها كائن لا نفس له، وأنها لهذا لن ترث الحياة الأخروية، وأنها رجس، يجب ألا تأكل اللحم، وألا تضحك، وعليها أن تمضي وقتها في الصلاة والعبادة والخدمة، وليس لها الحق في أن تتكلم، ولمنعها من الكلام وضعوا على فمها قفلا من الحديد، فكانت المرأة من أعلى الأسر تروح وتغدو في الطريق أو في دارها وعلى فمها قفل. هذا غير العقوبات البدنية التي كانت توقع عليها باعتبار أنها أداة الاغواء، يستخدمها الشيطان لإفساد القلوب (١).

وكانت المرأة في أثينا تعتبر من سقط المتاع، فكانت تباع وتشترى وكانت تعد رجسا من عمل الشيطان.

وقضت شرائع الهند القديمة أن الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار خير من المرأة، وكان حقها في الحياة ينتهي بانتهاء أجل زوجها الذي هو سيدها ومالكها، فإذا رأت جثمانه يحرق ألقت بنفسها في نيرانه، وإلا حاقت عليها اللعنة الأبدية.

وجاء في شرائع منو دهر ما ساسترا عن المرأة ما يلي: تعيش المرأة وليس لها خيار، سواء كانت بنتا صغيرة، أو شابة، أو عجوزا، فالبنت في خيار

---

(١) عفيف طيارة: ررح الدين الإسلامي ص ٢٨١.

أبيها، والمتزوجة في خيار بعلها، والأرملة في خيار أبنائها، إن عاشت بعد وفاته، ولا تتزوج بعد وفاة زوجها أبدا بل تهجر ما تشتهيه من الأكل واللبس والزينة حتى تموت، ولا تملك الزوجة شيئا، وكل ما تحرزه يذهب توا لزوجها (١).

أما رأي العهد القديم في المرأة فقد وضحه سفر الجامعة في الكلمات الآتية: " درت أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلا، ولأعرف الشر أنه جهالة، والحماقة أنها جنون، فوجدت أمر من الموت المرأة التي هي شباك، وقلبها أشراك، ويداها قيود " (٢).

أما الكنيسة الكاثوليكية فإن الكاتب الدانمركي Wieth Kondsen يشرح اتجاهها نحو المرأة بقوله: خلال العصور الوسطى كانت العناية بالمرأة الأوربية محدودة جدا تبعا لاتجاه المذهب الكاثوليكي الذي كان يعد المرأة مخلوقا في المرتبة الثانية (٣).

وفي الجزيرة العربية كانت الحياة كفاحا للحصول على العيش، وقد اضطرب المرأة أن تدخل هذا الخضم عاملة كادحة، ولكن كدحها لم يكن ينتج ما يعادل كدح الرجل، كما أن نصيبها في الحروب كان ضئيلا، ولذلك غلب أن يتجه لها سخط المجتمع العربي، ذلك السخط الذي عبر عنه القرآن بقوله: " وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، ألا ساء

----

(١) اقرأ مقارنة الأديان للمؤلف ج ٤ ص ٧٢ و ٧٤.
(٢) الأصحاح السابع الفقرتان ٢٥ – ٢٦.
(٣). ٢٠٠. Traslated to English by Arthur Chater p: Feminism

ما يحكمون " (١) بل دسه بعضهم في التراب فعلا، حتى هتف بهم القرآن الكريم: " ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، وإن قتلهم كان خطئا كبيرا " (٢) فإذا نجت الوليدة العربية من الوأد وجدت غالبا في انتظارها حياة ظالمة، ليس لها فيها نصيب من الميراث، وقد تكره فيها على البغاء، أو تعضل عن الزواج.

وقد لخص المرحوم الأستاذ قاسم أمين حالة المرأة في العصور القديمة بقوله: ترتب على دخول المرأة في العائلة حرمانها من استقلالها، لذلك كان رئيس العائلة عند الرومان واليونان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكا لزوجته، وكان يملكها كما يملك الرقيق بطريق البيع والشراء، بمعنى أن عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء، وكان الرجل يشتري زوجته من أبيها، فتنقل إليه جميع حقوق الأب، ويجوز للزوج أن يتصرف فيها بالبيع لشخص آخر (٣).

تلك هي المرأة في العصور القديمة، فلنمض في حديثنا لنتكلم عن المرأة في عصور أحدث.

في فرنسا عقد اجتماع سنة ٥٨٦ م يبحث شأن المرأة وما إذا كانت تعد انسانا أو لا تعد انسانا، وبعد النقاش قرر المجتمعون أن المرأة إنسان ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل.

وهكذا أثبت الفرنسيون في هذا التاريخ فقط انسانية المرأة، تلك الإنسانية

---

(١) سورة النحل الآيتان ٥٨ – ٤٩.
(٢) سورة الإسراء الآية ٣١.
(٣) أنظر كتاب المرأة الجديدة ص ١٨.

التي كانت مشكوكا فيها من قبل، وحتى عندما أثبتوها لم يثبتوها كاملة، وإنما جعلوا المرأة تابعا وخادما للرجل، ومن أجل هذا مر الزمن حتى عصرنا الحديث والمرأة الفرنسية محرومة من أبسط الحقوق التي منحتها المرأة المسلمة منذ مئات السنين، فقد صدر قانون في فبراير سنة ١٩٣٨ يلغي القوانين التي كانت تمنع المرأة الفرنسية من بعض التصرفات المالية، ويجيز لها لأول مرة في تاريخها بدون إذن القاضي أن تفتح حسابا جاريا باسمها في البنك، وأن توقع بالتالي على شيكات الصرف، وأن تمضي العقود المالية، وتستولي على الإرث.

وينقل الدكتور علي عبد الواحد في هذا الشأن نصر المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون الفرنسي وهو كالآتي: " المرأة المتزوجة، حتى لو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها، لا يجوز لها أن تهب، ولا أن تنقل ملكيتها، ولا أن ترهن، ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض، بدون اشتراك زوجها في العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية " ويعلق الدكتور عبد الواحد على هذه المادة بقوله: ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات فيها بعد فإن كثيرا من آثارها لا يزال ملازما لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية إلى الوقت الحاضر (١).

وفي إنجلترا حرم هنري الثامن على المرأة الإنجليزية قراءة الكتاب المقدس، وظلت النساء حتى سنة ١٨٥٠ م غير معدودات من المواطنين، وظللن حتى سنة ١٨٨٢ م ليس لهن حقوق شخصية، فلا حق لهن في التملك الخالص، وإنما كانت المرأة ذائبة في أبيها أو زوجها وعند ما كنت

---

(١) حقوق الإنسان في الإسلام ص ٦٠.

طالبا في جامعة كمبردج في منتصف هذا القرن لم يكن للطالبات الحق في الاشتراك في أندية الطلاب ولا اتحاد الطلبة بالجامعة العريقة، ولم تسو جامعة اكسفورد بين الطالبات والطلاب في الحقوق إلا بقرار صدر في ٢٦ يونيو سنة ١٩٦٤ (١).

هل لنا أن نتصور بعد هذا أن ما أصاب العالم الإسلامي من سوءات وتقاليد مشينة في موضوع المرأة، انحدر إليه من الغرب، وحمله إليه الغزاة مع ما حملوا من آثام؟ إنني شخصيا أميل إلى هذا الرأي.

تعالى بنا إلى الإسلام لنجده قد بكر فقرر المساواة بين الرجل والمرأة في كل شئ، ولم يستثن من ذلك إلا ما دعت الحاجة الواضحة إلى استثنائه كالميراث، إذ قرر للذكر مثل حظ الأنثيين، لأن المرأة معفاة من التكاليف المالية قبل الزواج وبعده، فقبل الزواج يلتزم أبوها بالإنفاق عليها، وبعد الزواج يصير الإنفاق عليها وعلى أولادها مسؤولية الزوج، حتى ليرى بعض الباحثين أن المرأة أوفر حظا في الميراث من الرجل، فلأن تأخذ المرأة خمسة وتدخرها، خير من يأخذ الرجل عشرة لينفق منها أو ينفقها كلها، على أن حديثنا عن المرأة في الإسلام سيتسع لشئ من الشرح آن لنا نأخذ فيه:

المرأة في الإسلام:

قضى الإسلام على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة في القيمة الإنسانية المشتركة، كما قضى على مبدأ التفرقة بينهما أمام القانون وفي الحقوق العامة، وجعل المرأة مساوية للرجل في هذه الشؤون (٢).

---

(١) جريدة الاحرام في ٢٧ / ٦ / ٦٤.
(٢) دكتور علي عبد الواحد: حقوق الإنسان في الإسلام ص ٥٢.

تعال بنا نعود إلى مصدر الإسلام الأول لنقتبس منه ما يدعم هذا الاعتقاد، قال تعالى:

- ولقد كرمنا بني آدم (١).
- للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن (٢).
- للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون (٣).
- ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف (٤).
- والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض (٥).
- وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا (٦).
- فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى (٧).

وهكذا نجد هذه الآيات وسواها تجمع الذكر والأنثى تحت حكم واحد، وتقضي قضاء مبرما على التفرقة بين الرجل والمرأة، بل أن الفكر الإسلامي يجعل للمرأة نصيبا يعادل نصيب زوجها في جهاده عن الوطن وسعيه للمعاش، إذا أحسنت الزوجة العشرة ورعت غيبة الزوج، فقد ورد في ترجمة أسماء بنت يزيد الأنصارية في الاستبصار أن رفيقات لها بعثن بها للرسول لتقول له: إن الرجال يخرجون للجهاد، ويشهدون الجنائز، ونحن في البيوت نحفظ لهم الأموال ونربي الأولاد فهل نشاركهم في الأجر، فقال الرسول: يا أسماء اعلمي من

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠.
(٢) سورة النساء الآية ٣٢.
(٣) سورة النساء الآية السابعة.
(٤) سورة البقرة الآية ٢٢٨.
(٥) سورة التوبة الآية ٨١.
(٦) سورة النساء الآية ٣٧.
(٧) سورة آل عمران الآية ١٩٥.

وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، تعدل كل ما ذكرت. فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر استبشارا (١).

بقيت تلك المسائل التي تكرر القول فيها، والتي ظنها مثيروها سوءات تمس الإسلام، فراحوا ينشرونها في نحيب وولولة، مدعين أنهم يدافعون عن حقوق المرأة التي زعموا أن الإسلام هضمها وفي قمة هذه المسائل: تعدد الزوجات، والطلاق، والقوامة، وتأديب الزوجة.

وطريقنا هنا لشرح موقف الإسلام من هذه المسائل جميعا طريق واحد، ففي رأينا أن هناك علة واحدة قضت بهذه الأمور، وهي علة واضحة لا تخفى إلا على من رغب في الغموض وأغمض عينيه حتى لا يرى النور، وتلك العلة هي أن الإسلام دين الفطرة، ودين الطبيعة، فهو يعترف بواقع الأمر وأخلاق الناس، ولذلك فالإسلام يشرع تشريعا مثاليا للخاصة ويحث المسلمين على اتباع هذا النهج المثالي، ولكن الإسلام يعترف أن بعض الناس لا يقوون على الوصول لهذه الغاية المثلى، وهؤلاء لا يدعهم الإسلام يهيمون في الضلال، بل يشرع لهم ما يوفق به بين طباعهم الشاردة وبين القيم الصحيحة، وذلك هو أسلوب الإسلام في هذه الشؤون التي اعتبرها أعداء الإسلام ومن سار سيرتهم سوءات، وراحوا يحاولون مهاجمة الإسلام بسببها.

والإسلام دين الفطرة كذلك في اعترافه بأن الرجل يفضل المرأة في بعض الأمور، فهو أطول منها قامة في المتوسط، وهيكله العظمى أضخم من هيكلها، ووزنه أثقل، وعضلاته أصلب، ومخه أكبر وكذلك قلبه ويعتريها – دون الرجل – عارض الحيض فيهز جسمها بضعة أيام كل شهر.

---

(١) عبد الحي الكتاني: التراتيب الإدارية ج ٢ ص ١١٩.

ويتزوج الرجل وتتزوج المرأة وينجبان، فلا يبدو على الرجل عارض
وإنما يظل كما هو، ولكن العوارض التي تمس جسم المرأة بسبب الزواج والحمل
كثيرة ولا يمكن أن تخفى.
ولا تساوي المرأة الرجل في أي عمل اشتركا فيه، ولو كان من الأعمال
التي انقطعت لها المرأة منذ عاش الجنسان في معيشة واحدة، لا تطبخ كما يطبخ،
ولا تتقن الأزياء كما يتقنها، ولا تبدع في صناعة التجميل كما يبدع فيها (١).
ويقول أحد علماء البلجيك: إنا لنرى الغرب أطلق حرية المرأة منذ أمد
بعيد في الثقافة وفي كل شئ، ومع هذا لم تبرز في جنس النساء كاتبة أو شاعرة
أو مؤرخة أو قصصية عظيمة، بل لم ينجحن في الطب ولا في المحاماة، ولا في
العمل في دواوين الحكومة، ومن نجحن كن بتراكيبهن الجسمية أشبه بتراكيب
الرجال، من حيث العضلات والقوى، وما نجح النساء في تولي السلطات الكبيرة،
لو لم يكن لهن مؤازرون عظماء من الرجال يعملون وتنسب الأعمال للنساء (٢).
وكتب أحد عظماء الغربيين إلى إحدى بناته يقول: إذا ادعى فولتير أن
النساء قادرات على أن يعملن كل ما يعمله الرجال فما ذاك إلا لتقرب من قلوب
بعض الغواني، فالنساء لم يأتين بأثر يذكر في دروب الآداب، فهن لم يؤلفن
(الإلياذة) ولا (الانياد) ولا (القدس المنقذة) ولا (فيدر) ولا (زهرة
ميدى سيس) ولا (تليماك)... ولم يخترعن الجبر، ولا المجاهر، ولا مضخات
النار، ولا صناعة الجوارب، وما برزت امرأة عالمة لتصبح جديرة أن تعد في

---

(١) الأستاذ العناد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٧٤.
(٢) نقلا عن الإسلام والحضارة العربية لكرد علي ج ١ ص ٩٦.

صفوف العلماء المبرزين، فالمرأة متمردة إذا هي أرادت التساوي مع الرجل (١).
ومن ضوء هذا الميزان الذي اعترفت به الفطرة، وقرره علماء الشرق والغرب، نبدأ في دراسة هذه المسائل، وسنذكر عن كل منها كلمة موجزة، نرد بها عن الفكر الإسلامي الافتراء والفضول:

تعدد الزوجات: (*)

الأصل في الزواج في الإسلام، هو الزوجة الواحدة، وهناك أدلة واضحة تحث على هذا الوضع نورد منها ما يلي:
قال تعالى: فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة (٢).
وقال: ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم (٣).
ويعلق المرحوم قاسم أمين على هاتين الآيتين بقوله: لو أن ناظرا في الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه بعيدا عن معناهما، لولا أن السنة والعمل جاءا بالإباحة في الجملة (٤).
وروى البخاري عن مسور بن مخرمة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا

---

(١) Histoire de la litterature Feminine: Larnac
* حديثنا هنا خاص بتعدد الزوجات في الإسلام بصفة عامة، أما تعدد زوجات الرسول فقد وفيناه بحثا في الجزء الأول من: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
(٢) سورة النساء الآية الثالثة.
(٣) سورة النساء الآية ١٣٨.
(٤) تحرير المرأة: فصل تعدد الزوجات.

ابنتهم، علي بن أبي طالب، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما فاطمة بضعة مني، يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها.

وقد أخذ العلماء وفريق كبير منهم من هذا الحديث أن الشريفة التي التي يؤذيها أن يتزوج رجلها لا يحل إيذاؤها بالتزوج عليها، وبخاصة إن اشترطته على الرجل، أو كانت تلك عادة القوم، فعليه الوفاء (١).

فالزوجة الواحدة هي الأصل في الإسلام، وقد سار على ذلك الأصل الغالبية العظمى من المسلمين، وبلغ هؤلاء مثلا في مصر أكثر من ٩٧ %.

بيد أن عوامل متعددة تدفع الرجل - مسلما كان أو غير مسلم - إلى التزوج بزوجة أخرى، وتكون هذه الحالة ملحة أحيانا كعدم الولد ومرض الزوجة الطويل، وعدم المقدرة على الصبر دون الاتصال الجنسي حقبة الحيض والنفاس، وكالرغبة التي تغلب على بعض الرجال فتجعل حاجتهم الجنسية لا يطفئها إلا عدد من الزوجات، وعن هذا النوع يقول الإمام ابن القيم (١) ومن الناس من يغلب عليه سلطان هذه الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة، فيستحب لصاحبها الزيادة عن الواحدة إلى الأربع... ومهما كان الباعث معلوما فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة، فالمراد تسكين النفس. فلينظر إليه في الكترة والقلة.

----

(١) كمال أحمد عون: المرأة في الإسلام ص ٩٠ ويلاحظ أن موقف الرسول هنا ليس موقف تشريعيا، ولو كان موقفه تشريعيا لما احتاج أن يصعد المبر ويستثير عاطفة الناس، ويتحدث عن ابنته وعما بمسها ويمسه من أجلها من آلام. إنه عليه السلام - فيما نرى - يتحدث هنا كأب لا كرسول.

(٣) أعلام الموقعين عن رب العالمين ج ٢ ص ٨٤.

فهؤلاء وأمثالهم لم يدعهم الإسلام لقيادة الشيطان، بل رسم لهم ما يحقق رغبتهم أو بعضها في إطار حلال، وهو إباحة تعدد الزوجات.
هذا من جهة الرجل، فإذا جئنا إلى المجتمع وجدنا ظروفه كثيرا ما تجعل تعدد الزوجات وسيلة لحل مشكلة به، فلعل تعدد الزوجات هو الوسيلة الصالحة لحل مشكلة زيادة عدد النساء على الرجال وبخاصة بعد الحروب والفتن حيث تصبح هذه الزيادة كبيرة ولا نزاع أنه أكرم للمرأة حينئذ أن تتزوج متزوجا من الرضا بعلاقة الخليلة التي لا حقوق لها ولا لأولادها قبل الرجل، وأكرم لها كذلك من حياة العانس لما في هذه الحياة من حرمان وفقر.
وبهذه المناسبة أذكر أنني مرة دعيت للكلام في حفل نسائي عن المرأة وموقف الإسلام منها وشرحت – فيما شرحت – رأي الإسلام في تعدد الزوجات، ومما قلت للمحاضرات – وهن يتجهن للوم الرجل على تعدد الزوجات –:
إذا كنتن لا تردن تعدد الزوجات فما عليكن إلا أن تنفقن فيما بينكن على ألا تتزوج واحدة منكن أي زوج متزوج، فإن ذلك الاتفاق وتنفيذه بدقة يجعل الرجل لا يجد سبيلا لمباشرة تعدد الزوجات، أما إذا قبلت المرأة أن تتزوج من متزوج فاللوم عليها لا على الرجل أو على الأقل عليها وعلى الرجل.
وتساءلت: هل المرأة التي تتزوج متزوجا أو كما يقولون تتزوج على ضرة كانت تقدم على ذلك لو وجدت سواه في مكانته؟ الإجابة الواضحة أنها قبلت التزوج منه لأنها لا تجد غيره، أو لا تجد من يماثله ويكون أعزب.
والنتيجة التي انتهيت إليها أن صراخ النساء ضد تعدد الزوجات سيضر النساء أكثر مما يضر الرجال، ويضيع الفرصة على كثيرات منهن، تقبلن على هذا الزواج وتسعدن في رحابة.

وأذكر أنني في ذلك الحفل وجدت قبولا من كثيرات من الحاضرات اللاتي تمتزن بالحكمة والهدوء، وأنا هنا أعرض هذا الرأي علي القارئ والقارئة، وأرجو أن يتدبروه لا تشجيعا على تعدد الزوجات، ولكن إدراكا أن هذا التشريع لا يخلق مشكلة بمقدار ما يحل مشكلات قائمة أو يمكن أو تقوم.

بقي أن نقول عن تعدد الزوجات إنه ليس من صنع الإسلام، وإنما هو تشريع قديم عرفته كل الحضارات وفي مقدمتها التوراة، وأقره الإنجيل إلا في حالة واحدة هي حالة الأسقف حيث لا يستطيع الرهبنة مع تعدد الزوجات فليكتف بزوجة واحدة. وقد بقي تعدد الزوجات معمولا به في العالم المسيحي حتى حرمته القوانين الوضعية. ويقول الأستاذ محمد فؤاد الهاشمي (١) (العالم الذي كان مسيحيا وأسلم): إن اعتراف الكنيسة بتعدد الزوجات بقي إلى القرن السابع عشر وإن جميع الأديان ومنها ديانة البراهمة وبوذا وعباد الوثن والمجوس، وكذلك المبادئ الوضعية، قد سايرت الحياة الواقعية، وجارت الطبيعة البشرية في شؤون الزواج، ولكن كهنة المسيحيين أبوا أن يفرطوا في مفتاح السجن، لأن في ضياع هذا المفتاح ضياعا لسلطتهم.

ولم يقبل الإسلام تعدد الزوجات على النحو الذي عرفته حضارات الماضي، بل حدده بعد أن لم يكن محدودا، ونظمه بعد أن كان لا نظام له، وقيده وكان من قبل مطلقا.

وقد أعدت جمهورية مصر سنة ١٩٦٣ مشروعا للحد من تعدد الزوجات، ومن الطلاق، بعدم إباحة هذا وذاك إلا أمام القاضي مع تقديم

---

(١) الأديان في كفة الميزان ص ١٠٥ – ١٠٦.

أسباب كافية، وفي نوفمبر من نفس العام رفضت اللجنة المشكلة لدراسة هذا المشروع أن توافق عليه، وقالت اللجنة في أسباب الرفض: إن تعدد الزوجات موجود بنسبة ضئيلة جدا لا تتجاوز الآن ٢ %، ومن دراسة كثير من الحالات يتبين أن أكثر من نصف هؤلاء له دوافع مقبولة، وحالات الطلاق كحالات تعدد الزوجات من ناحية النسبة والظروف، وتقل النسبة من تلقاء نفسها في هذا وذاك على مر الأيام، فلا داعي لإصدار قانون لا موضوع له تقريبا وبخاصة أن ذكر الأسباب في حالة الطلاق قد يسئ إلى المرأة والأسرة على العموم.

الطلاق:

يبغض الإسلام الطلاق وينفر منه، ويحث على علاقة زوجية دائمة يصورها القرآن في صور رائعة حيث يقول الله تعالى:

- ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة (٨).
- هن لباس لكم وأنتم لباس لهن (٢).
- وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا (٣).

ومن أجل هذه العلاقة القوية استهجن الإسلام الطلاق ونفر منه، ورسم السبل لحل الخلافات دون اللجوء إليه ما أمكن ذلك، اقرأ معي هذه الآيات والأحاديث.

----

(١) سورة الروم الآية ٢١.
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٧.
(٣) سورة النساء الآية ٢١.

- وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا (١).
- واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا (٢).
- وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما (٣).
- وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهم صلحا والصلح خير (٤).
- لعن الله كل مزواج مطلاق.
- تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له العرش.
- أبغض الحلال إلى الله الطلاق.

ذلك هو موقف الإسلام من الطلاق، يكرهه ويذمه، ولا يجيزه إلا بعد محاولات واسعة ومراحل أربع محددة، هي: الوعظ، والهجر، والضرب، والتحكيم للصلح والتوفيق، وسنشرحها بإفاضة عند الحديث عن التأديب، ولكن الإسلام كما قلنا دين الفطرة، والفطرة أثبتت أن كل شركة يمكن أن تفشل، وأن الحب قد تعقبه الكراهية، وأن هذه السبل السابقة قد تعجز عن إقامة أسرة سعيدة أو حتى عادية، والإسلام لذلك يعترف بالأمر الواقع، ويضع الطلاق حلا عند الضرورة لهذه الشكلة قال تعالى: فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان (٥) وقال: ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه (٦).
إن الطلاق دواء مر المذاق، ولكن مرض الشقاق أكثر منه مرارة

---

(١) سورة النساء الآية ١٩.
(٢) سورة النساء الآية ٣٣.
(٣) سورة النساء الآية ٣٤.
(٤) سورة النساء الآية ١٣٨.
(٥) سورة البقرة الآية ٢٢٩.
(٦) سورة البقرة الآية ٢٣٢.

وقسوة، وطالما بتر الأطباء عضو إنسان حرصا على الإنسان كله، ولا شك أن الطلاق خير من الموقف المائع الذي يحصل كثيرا في الغرب، عندما تسوء العلاقة بين الزوجة وزوجته وعند ما لا يبقى طريق للتوفيق بينهما، فإننا نرى كلا منهما يتخذ طريقه حرا إلى الخدانة، فتتخذ المرأة خدينا غير زوجها، ويتخذ هو خدينة غيرها، لأن الزواج غير مباح لأي منهما الطلاق، والطلاق يصعب الحصول عليه، فلتكن الخدانة الأثيمة هي الحل، وقد أدركت بعض الدول الغربية ما في ذلك من عبث، فيسرت أمر الحصول على الطلاق.

القوامة:

تشير الآيات والأحاديث التي اقتبسناها آنفا إلى ضرورة إقامة علاقة قوية العرى بين الزوج وزوجته، علاقة تكون من الزوجين فكرا واحدا، وتجعل لهما هدفا واحدا، فليس هناك رئيس ولا مرءوس وليس هناك آمر ولا مأمور، ولكن الطبيعة أثبتت أن الرياسة ضرورية لكل مجتمع صغير أو كبير، وأن اختلاف الرأي قد يحدث، ولا بد أن يوجد آنذاك من يبت في الأمر ويتخذ فيه قرارا، ويكون مسؤولا عنه، ومن هنا كانت القوامة، وكان طبيعيا أن تكون القوامة للرجل كفاء مسؤولياته المختلفة تجاه الأسرة، وكفاء تفوقه الطبيعي الذي أشرنا إليه من قبل.

أما طبيعة المرأة فيلاحظ فيها إرهاف العاطفة، وسرعة الانفعال، وشدة الحنان، وقد خلقت هذه الصفات في المرأة لتستطيع بها أن تؤدي وظيفتها الأولى وهي الأمومة والحضانة، وإذا كانت هذه الصفات لازمة في مضمار الأمومة والحضانة، فقد تكون ضارة في مضمارة القيادة والرياسة.

أما الرجل فلا يندفع في الغالب مع عواطفه ووجدانه كما تندفع المرأة، بل يغلب عليه الادراك والفكر وهما قوام المسؤولية، ومن أجل هذا – بالإضافة إلى

المسؤوليات المالية والأدبية - كانت القوامة للرجل، وقد علل القرآن الكريم لقوامة الرجل بقوله: " الرجل قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم " (١).

على أن قوامة الرجل يلزم أن تكون قوامة رحيمة، يتعاون فيها مع الزوجة ويرفق بها، ويلزم كذلك أن تكون عادلة، فليس له أن يطلب من زوجته مطلبا غير عادل قال تعالى: " ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف، وللرجال عليهن درجة " (٢).

ثم إن الإسلام أعطى المرأة الحق في التداخل في اختيار زوجها، وبهذا تشترك المرأة في اختيار القيم عليها، ولها أن تلاحظ فيه المقدرة على القوامة الرشيدة.

وتبدو قوامة الرجل - كما قلنا آنفا - عند اختلاف وجهات النظر، أما في الحياة العادية فلكل سلطاته وسلطانه، وكل من الرجل والمرأة بل والخادم مسؤول عما تحت يده في عالم الأسرة، قال صلى الله عليه وسلم: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته.

التأديب:

يقيم الإسلام العلاقة بين الزوجين على الحب والوفاء والمودة، وقد اقتبسنا فيما سبق كثيرا من آيات القرآن التي تحث على هذا الوضع، وتلك

---

(١) سورة النساء الآية ٣٣.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٨.

العلاقة هي العلاقة المثلى التي يرسمها الإسلام ويرغب للناس الانتماء إليها، وقد تكونت في ظل هذه العلاقة ملايين الأسر الإسلامية التي حققت من التآلف والود أسمى الأمثلة، ولكن الإسلام - كما قلنا - دين الفطرة، فهو لا يهمل واقع الحياة، وفي واقع الحياة خلافات تنشب بين الزوج والزوجة، ولا بد من أساليب للتغلب عليها قبل أن تصل إلى الفرقة وهي السلاح البتار القاسي، وقد وضع الإسلام مراحل للتوفيق بين الزوجين، أشرنا إليها آنفا، قال تعالى: " واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن، واهجروهن في المضاجع، واضربوهن، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن الله كان عليا كبيرا، وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما (١) ".

وهكذا وضع الإسلام هذه الخطوات الأربعة وقسمها بحكمته السامية إلى مرحلتين، أولاهما المرحلة التي يسوي الزوجان الخلافات بينهما دون تدخل عنصر خارجي، وفي هذه المرحلة محاولات أو طرق ثلاثة مرتبة ترتيبا دقيقا، أولها الوعظ وهو علاج رقيق هادئ، يرمي إلى إعادة الحق إلى نصابه في يسر، ويشرح وجهات النظر، ويدعو لإزالة الجفة في حب وقرب، فإذا لم ينفع هذا السلاح استعمل الزوج السلاح الثاني وهو الهجر، والهجر سلاح يجمع بين اللين والشدة، فيه يسر وفيه زجر، فإذا تمادت المرأة في نشوزها، ولم تستمع لهتاف الوعظ، ولم يثنها الهجر، كان للزوج أن يستعمل السلاح الثلاث وهو الضرب إذا سمحت الظروف به، وذلك قبل أن ينكشف الستار ويلجأ الزوجان للمرحلة الثانية وهي مرحلة الحكمين، حيث يجهران بأسرارهما، ويعرضان حياتهما الخاصة لألسن الناس.

----

(١) سورة النساء الآيتان ٢٣.

وفي التفكير الإسلامي إن إباحة أسرار الزوجين مرحلة يلزم تحاشيها ما أمكن ذلك، وضرب الزوج زوجته أيسر من كلام الناس عنهما، فكل ما يحدث بين الزوجين يمكن إخفاؤه والاعتذار عنه وإزالة نتائجه، ولكن حديث عنهما قد يمتد وقد يسبب ما لا تحمد عقباه.

وقد انتهز أعداء الإسلام فكرة وجود الضرب في تشريع التأديب في الإسلام، فراحوا يولولون ويتباكون، لا لقسوة في التشريع، ولكن لمرض في نفوسهم، ونحب أن نوضح لهم الحقائق التالية:

أولا – نضع بين يدي القارئ الأحاديث الآتية التي تشرح استهجان ضرب الزوجة وامتهان الشدة معها، قال صلى الله عليه وسلم:

– ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم.

– خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي.

– لن يضرب خياركم.

– أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا، وخياركم خياركم لنسائهم.

– استوصوا بالنساء خيرا.

– أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب البعير؟

ثانيا – أن إباحة الضرب تخضع لظروف الزمان والمكان، وطبيعي أن هذا السلاح لا يستعمل إلا حيث يرجى منه خير، وعلى هذا لا يستعمل هذا السلاح مع امرأة تفضل التحكيم عليه، أو تفضل الطلاق عليه، ولا نزاع أنه ذو فائدة مع بعض النساء، فإذا ادعى بعض المتحذلقين عدم جدواه فإننا نلجأ للأستاذ العقاد لنقتبس منه الرد على هذه القولة الزائفة، يقول سيادته: وإنه لمن السخف الرخيص أن يقال إن جنس النساء قد برئ من المرأة التي

يصلحها الضرب ولا يصلحها غيره، ونقول إنه سخف رخيص وخيم لأنه ذلك السخف الذي يضر كثيرا ولا يفيد أحدا (١).

ثالثا – لماذا لم يصرخ هؤلاء هذا الصراخ ضد القوانين العسكرية التي تبيح ضرب الجنود مع كثرة العقوبات التي يمكن إنزالها بالجنود المخطئين؟ تلك العقوبات التي لا يوجد لها نظير في الحياة الزوجية، كالحبس وتنزيل الرتبة، وقطع الأجور، والحرمان من أنواط الشرف وغيرها.

رابعا – هناك رأي لعالم أوربي من علماء النفس عن إحساس بعض النساء تجاه الضرب، ونحن ننقله بنصه، لا لندعو لاستعماله، ولكن لنعرضه التفكير، فربما صح أن الضرب يكون أحيانا وسيلة للإصلاح. قال:

Hadfield. A. G في كتابه " علم النفس والأخلاق " ما يلي: وغريزة الخضوع تقوي أحيانا، فيجد صاحبها لذة في أن يكون متسلطا عليه، ويحتمل لذلك الألم بغبطة، وهذه الغريزة شائعة بين النساء وإن لم يعرفنها، ومن أجلها اشتهرن بالقدرة على احتمال الألم أكثر من الرجل، والزوجة من هذا النوع تزداد إعجابا بزوجها كلما ضربها وقسا عليها... ولا شئ يحزن بعض النساء مثل الزوج الذي يكون رقيق الحاشية دائما، لا يثور أبدا على الرغم من تحديهن، ولا يعرف شقاء هذه العيشة ولا التوق إلى الزوج الذي يستطيع أن يثور ولو مرة واحدة إلا النسوة اللاتي جربن الحياة مع زوج من هذا الطراز (٢).

وقريب من هذه الاتجاه، رأي الأستاذ محمد زكي عبد القادر (٢) الذي يقول فيه:

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٨٥.

(٢) نقلا عن المرأة في الإسلام ص ٦٧.

(٣) مقال بصحيفة الأخبار في ٢٧ / ١٢ / ١٩٦٢.

– المرأة تحب الرجل العصي. تحب أن تصطدم إرادتها بإرادته، تحب الصراع للظفر تأكيدا لسلطانها، وتحب أكثر من كل شئ الهزيمة أمام إرادته...

– ولكنها تغضب...

– تغضب وتملأ الدنيا صياحا، وفي قرارة نفسها حلاوة الضعف أمام قوة الرجل.

وبعد، لا أريد أن أطيل الحديث عن هذا الموضوع أكثر مما فعلت، وكل ما أريد أن أضيفه هو أن أكرر أن هذه الموضوعات التي يتشدق بها أعداء الإسلام عن المرأة لم تعد تحتاج إلى دراسة وتعمق، فقد غلب الخير على العالم الإسلامي فاتجهت أغلبية المسلمين إلى مثالية الإسلام، فلم يعد هناك تعدد زوجات يقلق، وليس هناك عدد من المطلقات يثير الأسى كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ولا يكاد الضرب يستعمل على الاطلاق في تأديب الزوجة، وربما لا يزال يستعمل في بيئات لا ترى فيه غضاضة تذكر، وهو لا يستعمل كسلاح أسلمه الإسلام للزوج، بل لأن البيئة تعرف الضرب وتقره سلاحا للتأديب بين أفرادها على العموم، أما القوامة فالتعاون بين الزوج والزوجة هدف من أهداف الإسلام أخذ ينتشر ويمتد وتتعمق جذوره، وفيما بلى إحصائية تثبت ضآلة نسبة تعدد الزوجات في جمهورية مصر، وتثبت كذلك أن هذه النسبة تقل من عام إلى عام.

سنة ١٩٣٣ سنة ١٩٤٣

الزواج باثنتين ٤٩ / ٤ – ٪ ٩٥ / ٢ – ٪

الزواج بثلاثة ٢٩ / ٠ – ٪ ١٧ / ٠ – ٪

الزواج بأربعة ٠٤ / ٠ – ٪ ٠٢ / ٠ – ٪

وفي رأيي أن هذه الأرقام الناطقة جديرة أن تخرس ألسنة المتكلمين
في هذه الموضوعات وأن تمسك بأقلامهم، وجدير بهم إن كانوا منصفين أن يتجهوا بعنايتهم إلى ما هو أجدى، أما الغربيون الذين أطلقوا ألسنتهم وأقلامهم للنيل من الإسلام والمسلمين عن طريق المرأة المسلمة، فإننا ندعوهم ليتجهوا بعنايتهم إلى مشكلة المرأة الغربية التي تمر بمأساة قاسية تهدد كيانها وكيان الأسرة الغربية، وتهدد مستقبل الجيل الجديد. إن ما يسمونه " الأم الآنسة "
في الغرب وآلاف المواليد الذين لا يعرفون لهم آباء لمشكلة تحتاج إلى حل سريع يرمي إلى ضمان نوع من الحصانة لهؤلاء المشردات ولأولادهن، وقد ذكرت الاحصائيات الرسمية أنه بين كل تسعة أطفال ولدوا في لندن خلال عام ١٩٦٠
واحد لم تتزوج أمه، وتسع المواليد عدد كبير جدا. فقد أثبتت هذه
الاحصائيات أن عدد المواليد في لندن خلال ذلك العام بلغ ٧٣٦٨ - طفلا، (١).
وذكرت الاحصائيات الأمريكية أن هذا الاتجاه ينمو نموا سريعا وفاحشا
مما يهدد الجيل القادم ويهدد البشرية، فقد قررت هذه الاحصائيات عن سنة ١٩٦٧ أنه ولد طفل غير شرعي بين كل ستة أطفال ولدوا هذا العام في نيويورك، وقد كان أطفال نيويورك غير الشرعيين سنة ١٩٥٧ واحدا
بين كل خمسة عشر طفلا (٢) وهذا يؤكد التطور الخطير نحو الخطيئة الذي حدث خلال عشرة أعوام.

---

(١) صحيفة الأخبار عدد ١ / ١ / ١٩٦٢.
(٢) صحيفة الأخبار عدد ٢ / ٧ / ١٩٦٨.

الرق وموقف الإسلام منه

نريد هنا أن نوضح موقف الإسلام من الرق، ولكن يجدر بنا قبل ذلك أن نعطي فكرة عن موقف الأمم المختلفة منه، فقد كان موقف الإسلام من الرق متأثرا باتجاهات الأمم المختلفة عند ظهور السلام، كما كان مأثرا في هذه الاتجاهات، كان الإسلام متأثرا بمعنى أنه وجه الرق - كما سيأتي - نظاما شائعا، من أهم موارده الأسر في الحروب، فأجاز الإسلام للمسلمين أن يأسروا من أعدائهم ما استطاعوا حتى تتحقق المعاملة بالمثل، وبهذا أجل الإسلام إلى حين هدفه الأسمى وهو الحرية، أو قل وصل إلى الهدف خطوة بعد خطوة.

وكان الإسلام مؤثرا في اتجاهات هذه الأمم لأنه بالتشريع الذي أجراه للرق أبان أنه مشكلة، ولم يكن أحد قبل السلام يدرك أن الرق مشكلة، بل كان عملا طبيعيا، ووضع الإسلام الطرق لحل هذه المشكلة، وكان ما رسمه الإسلام خطوة واسعة، ففتح الأعين لتحرير الأرقاء، حتى تم ذلك في القرنين الأخيرين.

ما اتجاهات الأمم تجاه الرق؟

هذا ما سنتكلم عنه فيما بلى:

الرق في الحضارة الشرقية القديمة:

لا يعرف التاريخ بداية لاستعباد الإنسان لأخيه الإنسان، ومنذ عرفت الحضارات ودون التاريخ نجد الرق موجودا ونجده قاسيا.

ففي مصر القديمة وجدت العبودية، وعلى أكتاف رقيق الأرض بنيت الأهرام وأقيمت المعابد ونحتت المسلات.

وفي الصين كان الرق منتشرا، وكان من أسبابه الفقر الذي كثيرا ما كان يدفع بصاحبه إلى أن يبيع نفسه أو أولاده تخلصا من العوز الذي كان واسع الانتشار (١).

وفي الهند - حيث نظام الطبقات - كان الشودرا (Sudra) والمنبوذون (Outcasts) يمثلان الغالبية العظمى بين السكان الأصليين للبلاد، وكانت هاتان الطبقتان تكونان طبقة العبيد، وكان للبراهمة (الكهنة Brahman) الحق في أن يأخذوا من مال الشودرا ما يشاءون، فهذه الطبقة وأفرادها ملك خالص للبراهمة، أما طبقة المنبوذين فلم يكن لها حق أن تملك شيئا، وكان من التفضل على أي من أفرادها أن يمتلكه أحد، وأن يخرجه من طبقة المنبوذين إلى المجتمع.

أما عند الفرس فقد انتشرت نظرية الحق الإلهي وأصبحت عقيدة مرعية عند الجميع، وبمقتضى هذه النظرية اعتقد الملوك - واعتقد الناس معهم - أن دما من دماء الآلهة تجري في عروقهم، وأنهم لذلك طبقة أخرى غير طبقة البشر، أو من سواهم عبيد لهم، ولا ينال الشعب الرحمة من الآلهة إلا إذا رضى عنه الملوك، وعلى هذا يمكن القول إن سكان فارس كانوا آلهة وعبيدا.

الرق عند اليونان:

وكان استعباد البشر للبشر مطلقا وبكثرة في حضارة اليونان، وكان قراصنتهم يتخطفون أبناء الأمم الأخرى في مختلف السواحل ويبيعونهم في أسواق أثينا وغيرها، ولما صارت لليونان مستعمرات في آسيا الصغرى، صارت لهم فيها أسواق للاتجار بالرقيق، حتى امتلأت بيوت الإغريق بالإماء والعبيد يستعبدهم اليونان جميعا، لا فرق بين غني وفقير، ولم تؤثر في تاريخهم كلمة

----

(١) أنظر كتاب تاريخ الصين القديم لمؤلفه. olive. M

واحدة عن أي حكيم من حكمائهم باستنكار استعباد الإنسان لأخيه الإنسان أو للترغيب في تحريره (١).

وقسم الفلاسفة اليونان الجنس البشري قسمين: حر بالطبع ورقيق بالطبع، وقالوا إن الثاني ما خلق إلا لخدمة الأول، وإن عليه أن يقوم بالأعمال الجسمانية ويقوم الجنس اليوناني وهو الحر بالطبع بالأعمال الفكرية والإدارية والمناصب الهامة (٢).

وبناء على هذه القاعدة التي وضعها فلاسفة اليونان استباح اليونان لأنفسهم أن يتلصصوا في البحار فيخطفوا من يصادفهم ممن يكونون على الشواطئ والسواحل، فيصبح هؤلاء المخطوفون أرقاء مستعبدين للجنس اليوناني (٣).

ويرى أفلاطون في الجمهورية الفاضلة حرمان العبيد حق المواطنة، وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من سادتهم (٤).

ويوافقه تلميذه أرسطو على ذلك فهو يجعل كلمة (المواطن) مرادفة لكلمة (حر) ويرى أن وظيفة العبيد تحصيل الثروة الضرورية للأسرة والقيام على خدمتها، ذلك لأن (المواطن) حبته الطبيعة ذكاء وشجاعة، فبنى لنفسه مدينة وتفرغ لسياستها وخصص حياته لخدمتها في السلم والحرب، فلا يتسع وقته للعناية بشؤون معاشه، وتأبى عليه كرامته أن يتنزل للأعمال اليدوية يزاولها فيشوه يديه وخلقته، ويظهر وضيعا، فكان لا بد له أن يجد من يتكفل بذلك دونه، وقد أوجدت الطبيعة شعوبا قليلة الذكاء أقوياء البنية، فقدمت له منها آلات للحياة، هي آلات حية، وأولئك هم العبيد (٥).

---

(١) الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر سابقا: مجلة الأزهر صفر سنة ١٣٧٣.
(٢) أنظر النظم الإسلامية للدكتورين حسن إبراهيم وعلي إبراهيم ص ٣٥٩.
(٣) أنظر كتاب الرق في الإسلام لشفيق باشا ص ١٩.
(٤) عباس العقاد: حقائق الإسلام ص ٢١٦.
(٥) دكتور إبراهيم مدكور: تاريخ الفلسفة ص ٥٦.

الرق عند الرومان:
أما عند الرومان فإن النخاسين كانوا يتخذون الحروب الكثيرة التي اعتاد الرومان أن يشعلوها مواسم لتجارتهم، وكانوا يصحبون الجيوش لا للاصطدام بالعدو، بل ليشتروا الأسرى والمغلوبين من صبيان وبنات ورجال ونساء بأبخس الأثمان، حتى لقد كان الغني من النخاسين يشتري ألف إنسان صفقة واحدة عقب نصر كبير تعده الإنسانية خزيا، ويعده تاريخ الاستعمار الروماني عظمة ومجدا، وفي مدينة روما كانت للرقيق سوق تعرض فيها هذه البضائع للمزاد العلني على رابية مرتفعة: فيكون الرقيق عريانا من كل ما يستره، ذكرا كان أو أنثى، كبيرا أو حدثا، ولمن شاء من الناس أن يدنو من هذا اللحم الحي المعروض للبيع فيجسه بيده، ويقلبه كيف يشاء ولو لم يشتره في النهاية، والقانون الروماني لم يكن يعتبر الرقيق انسانا له شخصية ذات حقوق على الإنسانية، بل كان يعتبره شيئا من الأشياء كسائر السلع التي يباح الاتجار بها (١).

ومن وسائل الرق عند الرومان - بالإضافة إلى الحرب التي سبق ذكرناها - أنهم كانوا يسترقون المدين الذي لم يتيسر له الوفاء بدينه، فيصبح المدين رقيقا للدائن (٢).

الرق عند اليهود:
أما عند بني إسرائيل فقد أباحت التوراة الاسترقاق بطريق الشراء أو سبيا في الحرب، فجعلت للعبري أن يستعبد العبري إذا افتقر، فيبيع الفقير نفسه لغني، أو يقدم المدين نفسه للدائن حتى يوفي له الثمن، ويبقى عبدا له ست سنين

----

(١) الشيخ الخضر في المرجع السابق.
(٢) أنظر الرق في الإسلام لشفيق باشا ص ٢٣.

ثم يتحرر. ففي سفر الخروج: إذا اشتريت عبدا عبريا فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حرا مجانا (١)، وإذا سرق العبري ماشية وذبحها، أو أي شئ استهلكه، ولم يكن في يده ما يعوض به صاحبه يباع السارق بسرقته، وأباحت التوراة للعبري أي يبيع بنته فتكون أمة للعبري الذي يشتريها.

أما الاسترقاق سبيا في الحروب فهو أيسر ما ينزله اليهود بأعدائهم، وقد نص العهد القديم على ما يلي:

" حين تقرب من مدينة لكي تحل بها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك (٢) ".

الرق عند المسيحين:

ولما جاءت المسيحية كانت عبودية الإنسان شائعة في كل العالم، نقل الدكتور جوزيف بوست، أحد رجال الجامعة الأمريكية الأولين في بيروت (٣)، أن المسيحية لم تعترض على العبودية من وجهها السياسي، ولا من وجهها الاقتصادي، ولم تحرض المؤمنين على منابذة جيلهم في آدابهم من جهة العبودية، حتى ولا على المباحثة فيها، ولم تقل شيئا ضد حقوق أصحاب العبيد، ولا حركت العبيد إلى طلب التحرر، ولا بحثت عن مضار العبودية، ولا عن قسوتها،

---

(١) سفر الخروج: ٢١ - ٢.
(٢) سفر التثنية، الأصحاح العشرون: ١٠ - ١٤.
(٣) قاموس الكتاب المقدس المجلد الثاني ص ٦٠ - ٦١ طبع المطبعة الأمريكية في بيروت سنة ١٩٠١.

ولم تأمر بإطلاق العبيد أصلا، وبالاجمال لم تغير النسبة الشرعية بين الولي والعبد بشئ، بل على عكس ذلك أثبتت حقوق السادة وواجبات العبيد.

وأمر بولس الرسول العبيد بإطاعة سادتهم كما يطيعون السيد المسيح، فقال في رسالته إلى أهل إفسس (١).

" أيها العبيد، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس، بل كعبيد المسيح، عاملين مشيئة الله من القلب، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبدا كان أو حرا ".

وأوصى بطرس الرسول بمثل هذه الوصية، وأوجبها آباء الكنيسة لأن الرق كفارة عن ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم.

وأضاف القديس الفيلسوف توماس الأكويني رأي الفلسفة إلى رأي الرؤساء الدينيين، فلم يعترض على الرق بل زكاة لأنه - على رأي أستاذه أرسطو - حال من الحالات التي خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية، وليس مما يناقض الإيمان أن يقنع الإنسان من الدنيا بأهون نصيب (٢).

الرق في أوربا:

فيما عدا اليونان والرومان - وقد سبق الكلام عنهما - ليس لأوربا تاريخ قديم يذكر سوى تاريخ الجرمان، ويقول الأستاذ شفيق (باشا) عن موقف الجرمان من الرق ما يلي: وكانت المقامرة تخرج بالمولعين بها إلى حد أنهم يقامرون على نسائهم وأولادهم، بل وعلى حرياتهم الشخصية، فكان ذلك عند الجرمان مصدرا من مصادر الرق (٣).

---

(١) الأصحاح السادس: ٥ - ٩.

(٢) الأستاذ العقاد: حقائق الإسلام ص ٢١٥.

(٣) الرق في الإسلام: ص ٣١.

ولما بدأ تاريخ أوربا العام يظهر في العصور الوسطى، ظهر معه نظام الأمراء والاقطاع، أي نظام السادة من جانب والأرض ورقيق الأرض من جانب آخر، فقد كان المزارعون عبيدا للملاك يباعون مع الأرض إذا بيعت الأرض، وليس لواحد منهم الحق في الخروج من أرض إلى أرض أخرى، لأنه كان كالآلة تابعا للأرض مملوكا لصاحبها، ولم يلغ الرق في أوربا إلا في القرن التاسع عشر، وكان في الحقيقة إلغاء لاسترقاق الأوربيين فقط، وتحويلا لنشاط التسلط تجاه آسيا وإفريقية، وقد كان الاسترقاق في آسيا منتشرا باسم الاستعمار، أما في إفريقية فكان استرقاقا سافرا وكانت أسواق النخاسين التي فتحها الأوربيون تتمتع برواج عظيم وتفيض بربح وافر على تجارها، وفي القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر تحالف تجار الرقيق البيض مع بعض زعماء القبائل الإفريقين وأخذوا يهجمون على مساكن الإفريقيين ويخطفون أطفالهم ويعرضونهم للبيع في أسواق العبيد.

الرق عند العرب:

انتشر الرق عند العرب قبل الإسلام انتشارا كبيرا، وكانت وسيلته الحروب التي لا تنقطع في الجزيرة العربية، وكان الغالب يأسر من المغلوبين من يستطيع ليصبحوا عبيدا، ومن وسائل الرق عند العرب القوة فإذا قابلت قبيلة قوية قبيلة ضعيفة استسلمت القبيلة الضعيفة للقوية وخضعت لها وأصبح أفرادها عبيدا. ومن وسائل الرق عند العرب الهجوم السريع، فالشخص الذي يمشي وحده، أو الجماعة من الناس التي تمشي دون أن تستطيع حماية نفسها كانت عرضة للخطف نتيجة هجوم سريع، فيصبحون بذلك عبيدا.

وننتقل الآن إلى نقطة مهمة جديرة بالايضاح، هي أن الرق عند هذه الأجناس جميعا يشمل الجسم والعقل، فالرقيق يتبع سيده في دينه وتفكيره كما يعمل له بجسمه، ولا حق للرقيق أن يفكر أو أن يتبع تفكيرا آخر غير تفكير سيده وللسيد أن ينزل برقيقه من العقاب ما يشاء لأنه يملكه ملكا كاملا.

تلك المقدمة القصيرة عن الرق في الدول المختلفة نستطيع بها أن نعرف بوضوح مكانة التفكير الإسلامي في مسألة الرق.

الإسلام والرق:

نبدأ حديثنا عن الإسلام والرق بأن نسأل سؤالا هاما هو: ما موقف الإسلام من الرق؟ وهل ألغاه؟

أما موقف الإسلام من الرق فيلخصه قوله عليه السلام " شر الناس من باع الناس (١) ". وأما من ناحية إلغائه فنقرر أن الإسلام - إن كان لم يلغ الرق إلغاء صريحا مباشرا - قد وضع نظاما يكفل إلغاء الرق، فيمكن القول بأن الإسلام ألغى الرق بطريق غير مباشر.

لماذا لم يلغ الإسلام الرق بطريق مباشر؟

وما هو هذا النظام الذي وضعه الإسلام ليلغي الرق بطريق غير مباشر؟

هذا ما سنتكلم عنه فيما بل بتفصيل كاف.

أما الإجابة عن السؤال الأول، وهو لماذا لم يلغ الإسلام الرق بطريق مباشر، فإنها تنحصر في سببين.

١ - التكافؤ في المعاملة، فقد كانت هناك حروب بين المسلمين وغير المسلمين وكان غير المسلمين يستحلون استرقاق المسلمين، فكان لا بد أن يعاملهم المسلمون بالمثل كما سبق القول.

---

(١) كتاب العلل مخطوط ببرلين رقم ٨٣٢٧ ورقة ٢٠٦ ج نقلا عن آدم متز: الحضارة الإسلامية ح ١ ص ٢٧٧.

٢ - الإسلام فلسفة في معالجة كل مسألة ليست أساسا من أسسه: ففي معالجة هذه الشؤون، تقضي فلسفة الإسلام، أن تعالج برفق وأناة، حتى يصل الإسلام إلى هدفه بدون أن يحدث اضطرابا بين معتنقيه، فشرب الخمر، والرق، وتعدد الزوجات، الإسلام تجاهها هدف، ولكنه يعمل لكي يصل إلى هدفه بيسر، وبعدة خطوات أحيانا بدلا من خطوة واحدة، أما الأمور الرئيسية في الإسلام كتوحيد الله وترك عبادة الأصنام، فإن الإسلام يواجهها مواجهة صريحة مباشرة، ليقطع دابرها من أول الشوط.

ونجئ بعد ذلك للسؤال الثاني وهو: ما النظام الذي وضعه الإسلام ليلغي الرق بطريق غير مباشر؟

في الإجابة عن هذا السؤال نقرر أن ذلك النظام ينحصر في مبدأين مهمين:

١ - تضييق المدخل.

٢ - توسيع المخرج.

وسنشرح فيما بلى كلا من هذين المبدأين:

١ - تضييق المدخل:

جاء الإسلام وللرق وسائل أو مداخل كثيرة سبق أن ذكرناها، ومنها البيع، والمقامرة، والنهب، والسطو، ووفاء الديون، والحروب مهما كانت أنواعها وأسبابها، والقرصنة، والطبقية،... فألغى الإسلام جميع هذه المداخل، ولم يبق منها إلا مدخلا واحدا، وضيقه الإسلام حتى لم يعد ينفذ منه إلى الرق إلا القليل النادر أشد الندرة، وذلك المدخل هو الحرب الدينية، أي التي يقصد بها الجهاد في سبيل الله لرد اعتداء يقوم به غير المسلمين على المسلمين، بشرط ألا يكون الأسير وقت أسره مسلما ولو كان في جيش الأعداء، وأن يضرب الإمام عليه الرق.

يقول الشيخ عبد العزيز جلويش إن الشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلا، ثم إنه لا يبيح بعد ذلك إلا استرقاق أسرى حرب شرعية قامت لإعلاء كلمة الله، مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم، وقد سد الإسلام بذلك، تلك الأبواب التي ذكرناها والتي كانت مصادر للرق في الأمم المختلفة قبل الإسلام وبعده.

ومن الأدلة الواضحة على أن الإسلام يضيق مدخل الرق ويميل للتحرير ما ذكره الفقهاء من أنه إذا وجد طفل ادعى رجل نصراني أنه ابنه، وادعى مسلم أنه عبده، فإنه يقضى به للنصراني حتى لا يدخل الطفل باب الرق ولو كان في رقه إسلامه (١).

ومن تضييق المدخل أن الإسلام وضع تنظيما لأسرى الحرب لم يكن معروفا قبل الإسلام، فقد كان الأسرى في الأمم المختلفة يعتبرون أرقاء بمجرد وقوعهم في الأسر، ولكن الإسلام اشترط لاعتبارهم أرقاء أن يضرب الإمام عليهم الرق كما سبق القول، أما قبل أن يضرب الإمام الرق على الأسرى فيمكن أن تتم نحوهم التصرفات الآتية:

١ - تبادل الأسرى، وذلك بأن يرد المسلمون من أسراهم عددا إلى الأعداء نظير إطلاق عدد مقابل من أسرى المسلمين الذين وقعوا في أيدي الأعداء.

٢ - المن على الأسرى أو على بعضهم وذلك بإطلاقهم من غير مقابل لسبب من الأسباب.

٣ - قبول الفداء منهم، وذلك بإطلاقهم نظير مقابل مادي أو أدبى، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم في أسرى بدر، فقد أطلق بعضهم نظير مقابل مالي، وجعل للقارئين منهم أن يفتدوا أنفسهم بتعليم القراءة والكتابة

---

(١) دكتور محمد يوسف موسى. مجلة " المسلمين " العدد الأول ص ٨.

لعدد بن أبناء المسلمين (١) وفي المن والفداء جاءت الآية الكريمة: " فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، فإما منا بعد وإما فداء (٢) ".

ومن الممكن أن يفهم من الآية السابقة أن الأسر شئ مؤقت يزول بطريق المن أو الفداء بعد انتهاء الحرب، ومقتضى هذا أن عددا كبيرا من أسرى الحرب أو كلهم لن يصلون إطلاقا إلى ساحة الرق ويقرر ابن القيم (٣) أن الرسول لم يسترق رجلا حرا بالغا قط مع جواز ذلك، وكان استرقاق الرجال مقصورا على الأرقاء الذين يؤثرون البقاء تحت ظل الإسلام على عودتهم لسادتهم.

وينبغي أن نذكر أن نصا قرآنيا واحدا تحدث عن حكم الأسرى، هو الآية السابقة " فإما منا بعد وإما فداء " ويميل أكثر المفكرين إلى اتخاذ هذا النص أساسا للحكم في الأسرى، وأنه هو الأصل الدائم لهذه القضية، ويعدون ما وقع بالفعل من قتل بعض الأسرى أو استرقاقهم أحداثا حصلت لمواجهة حالات خاصة، وهذا نميل إليه، وبناء على ذلك يكون الرق لا أصل له في الظروف العادية في التفكير الإسلامي.

وقد ذكرت لنا المراجع التاريخية صورة جميلة لتبادل الأسرى وافتدائهم مع الروم، ونحن يوردها فيما بلى:

كانت عملية الفداء تتم بصورة منتظمة تقليدية ذات روعة خاصة، فيقف المسلمون على الضفة الشرقية لنهر اللامس وتقف الروم على ضفته الغربية. واللامس نهر صغير ضيق كأنه ترعة ويمد جسران من القوارب بين

---

(١) المبرد: الكامل ص ١٧.

(٢) سورة محمد الآية الرابعة.

(٣) زاد المعاد ج ٣ ص ٢٩٠ وانظر (الجهاد في التفكير الإسلامي للمؤلف).

الضفتين، وكلما أطلق الروم أسيرا مسلما أطلق المسلمون أسيرا روميا معادلا له من حيث المكانة والسن وسلامة البدن، وكلما وصل إلى المسلمين أسير من أسراهم صاحوا: الله أكبر، وعند ما يصل إلى الروم أحد أسراهم يصيحون صياحا مماثلا، فإذا بقيت لأحد الجانبين بقية من الأسرى افتديت بالمال (١).

وتوضح لنا المراجع التاريخية كذلك أن المسلمين كانوا يتقربون إلى الله بإطلاق الأسرى تبرعا، وفي الحروب الصليبية نجد صلاح الدين الأيوبي ورجاله يتبارون في هذا المجال (٢).

٢ - توسيع المخرج:

أما أولئك الذين يصبحون أرقاء بطريق أو بآخر، فإن الإسلام يفتح لهم الأبواب ليعيد الحرية لهم أن ليعيدهم إلى الحرية، إذ أن الإسلام يعتبر الرق عارضا ويعمل على إزالته، وفيما يلي ذكر لهذه الأبواب:

١ - جعل الإسلام العتق مرغوبا فيه ووعد الثواب العظيم من الله لمن يعتق رقبة، قال تعالى: " ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة (٣) ".

وقال: " ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب (٤) ".

---

(١) أنظر تاريخ التمدن الإسلامي لجورجي زيدان ج ١ ص ٢١٦ (تعليق الناشر).

(٢) أنظر سورا من ذلك في الحديث عن الحروب الصليبية في الجزء الخامس من " موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية " للمؤلف.

(٣) سورة البلد الآية ٨ - ١٤.

(٤) سورة البقرة الآية ١٧٢.

وقال: " ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة... " (١).
وقال في نفس الآية: " وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ".
وقال: " والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا " (٢).
٣ - مكاتبة العبد ليتحرر بدفع مال يقدمه لسيده، ويرى بعض الفقهاء أن المكاتبة واجبة إذا طلبها العبد وكان هناك أمل في أن يوفي بما وعد. والمكاتبة عقد بين السيد والعبد لإعادة الحرية لذلك العبد نظير دفعة ما لا للسيد.
وقد اعتمد الفقهاء الذين قالوا بالوجوب، على قوله تعالى: " والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا " (٣)، وبعد المكاتبة يعطى العبد حق التجارة والعمل، كما يعطى حق التملك والحرية ليعمل لنفسه، فلا يعمل لسيده، بل يتحرر للكسب لسداد النجوم (الأقساط)، وبالإضافة إلى عمل المكاتب ليحصل على المال اللازم للسداد نجد الإسلام يجعل من حقه نصيبا من الزكاة ليساعده على السداد، قال تعالى: " إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب (٤). كما يلزم الإسلام السيد أن يحط عنه بعض النجوم، أو أن يساعده بمال ليوفي بما وعد به، قال تعالى: " وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ".
٤ - التدبير: وهو أن يوصي السيد بأن يكون عبده حرا بعده موته، وسمي كذلك لأن السيد تدبر أمر دنياه فأبقى العبد ليعاونه في الدنيا، وتدبر أمر آخرته فأوصى بعتق العبد عقب موته ليساعده ذلك في الآخرة بتكثير

----
(١) سورة المجادلة الآية الثالثة.
(٢) سورة التوبة الآية السادسة.
(٣) سورة النور الآية ٥٨.
(٤) سورة المائدة الآية ٨٩.

حسناته، والتدبير موصى به ويحث الشرع عليه، ولا يجوز بيع المدبر ولا هبته ولا رهنه في أصح القولين لقوله عليه السلام: " إن المدبر لا يباع ولا يورث ولا يوهب وهو حر من الثلث ".

٥ - إذا أصاب السيد أمته فحملت منه ووضعت ما تبين منه شئ من خلق آدمي حرم عليه بيعها وهبتها وعتقت بموته، وكان ولده منها حرا، وهذا بخلاف النظام الذي كان متبعا عند العرب قبل الإسلام والذي كان يقضي أن تظل الأمة أمة وإن ولدت لسيدها، وأن يكون ابنها منه عبدا، وقد كان عنترة العبسي ابن أمة وكان عبدا لأبيه، وحدث أو هوجمت عبس ولم يهتم عنترة بالدفاع عنها، فقال له أبوه: كر يا عنترة، فأجاب: إن العبد لا يعرف الكر، وإنما يعرف الحلاب والصر (الشذ على الناقة) فقال له أبوه: كر وأنت حر. وهكذا لم ينل عنترة الحرية إلا عندما احتاجت القبيلة إلى كفاحه، وقبل ذلك كان عبدا لأبيه.

٦ - إن من أعتق بعض عبد يملكه، عتق كله، فإن كان يملك بعض البعد وله شريك يملك باقيه فأعتق نصيبه عتق العبد كله وقوم عليه ما يملكه الشركاء إن كان موسرا ودع لهم ثمنه، قال عليه السلام: " من اعتق شركا له في عبد وكان موسرا قوم عليه ثم يعتق كله ". فإن كان معسرا سعى العبد في قيمة الباقي لأنه هو الذي انتفع بالحرية، ويرى بعض الفقهاء في هذه الحالة عدم عتق الباقي.

٧ - إن ملك واحدا من ولديه أو والديه عتق عليه في الحال.

ويتضح من ذلك تمام الوضوح أن الإسلام أنهى الرق من الناحية العملية فالمرأة ينتهي رقها إذا أصابها سيدها وحملت منه، وهذا يجعل عنصر النساء قريبا جدا من الحرية، أما الرجال فقد فتحت لهم الأبواب المتعددة التي ذكرناها، وأبرزها يا - المكاتبة الذي يلتزم السيد أن يقبله وأن يساعد عبده على الوفاء بما التزم.

معاملة الرقيق في الإسلام:
على أن الرق إن بقي بعد ذلك فإن الإسلام كفل زوال أثره عمليا، وذلك بمحو الفوارق والتوصية بالأرقاء حتى وجد من يؤثر الرق على الحرية كما سيأتي عند الحديث عن الرق الصناعي، وأبرز ألوان المعاملة التي أتاحها الإسلام للأرقاء، هي أن الرق يتصل بالعمل الجسماني ولا يتصل بالعقل، فالرقيق يعمل لسيده ويطيعه في حدود هذا العمل، ولكنه حر في تفكيره يعتنق الدين الذي يرضيه، وليس ملزما أن يتبع سيده في أفكاره وليس للسيد أن يطلب من عبده أن يرتكب إثما أو يقتل نفسا بغير حق، وللعبد أن يعارض ذلك وأن يقف في وجه سيده قائلا: لا، هذا لا يجوز. وقد عد العرب في مطلع الإسلام هذا التفكير الذي يقضي بتحرير عقل الأرقاء ثورة عارمة، وقتلوا عبيدهم وعذبوهم حينما صاح هؤلاء العبيد في وجوه سادتهم قائلين: لقد اعتنقنا الإسلام وليس لكم سلطان على عقولنا، وسلطانكم محدود بالأعمال الجسمانية التي لا تنافي الأديان أو الأخلاق، وفي ذلك يقول ابن القيم (١) والسيد لا حق له في ذمة العبد ولا في انسانيته، وإنما حقه في بدنه.
وخطوة أخرى خطاها الإسلام في معاملة الرقيق هي مساواته بالأحرار في أكثر الشؤون، وقد روى الشيخان قوله عليه السلام: من قتل عبده قتلناه، ومن جوع عبده جوعناه، ونقل الإسلام التفاضل إلى مقياس جديد هو التقوى، قال تعالى: " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " وبناء على هذا المقياس الجديد زوج الرسول ابنة عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد، وولى زيدا هذا قيادة جيش المسلمين الذاهب لمحاربة الروم في موقعة مؤنة وكان بين

---

(١) أعلام الموقعين ج ١ ص ٣٥١.

جنوده كثير من عظماء الإسلام، وولى بعد ذلك أسامة بن زيد قيادة جيش المسلمين لحرب الروم أيضا وبين جنوده شيوخ المسلمين وعظماؤهم. وقد قرر الإسلام للأرقاء ألا يطلب منهم أن يعملوا ما فوق طاقتهم، وأن يكون من حقهم أن يأكلوا مما يأكل سادتهم منه، بل أن يلبسوا من لباسهم، ولعل هذا أرقى درجات المساواة، وقد ورد في الحديث: إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم.

وقال: من لاءمكم من خولكم فأطعموه مما تأكلون واكسوه مما تلبسون، ومن لا يلائمكم فبيعوه، ولا تعذبوا خلق الله عز وجل.

وقال تعالى: واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم (١).

ورأى رسول الله عبد الله بن مسعود وهو يضرب عبده فصاح به، يا ابن مسعود! إن الله أقدر عليك، منك على هذا.

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ألا أخبركم بشراركم؟ قالوا: بلى. قال: من أكل وحده، ومنع رفده، وضرب عبده (٢).

ورأى رسول الله رجلا يركب دابة وخلفه عبده يجري فصاح به: يا عبد الله، احمله خلفك، إنما هو أخوك، روحه مثل روحك.

ومن نتائج هذه التعليمات ما حصل لابن عمير فقد روي عنه أنه قال:

---

(١) سورة النساء الآية ٣٥.

(٢) الكامل ج ١ ص ٥٩.

كنت في رهط من أسرى بدر، فكان المسلمون إذا قدموا غذاءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله إياهم بنا.

ويحدثنا التاريخ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء إلى بيت المقدس ومعه غلامه، ولم يكن معهما إلا ناقة واحدة، فكانا يركبانها على التناوب إلى أن اقتربا من تلك المدينة، وكانت النوبة للغلام، فأركبه عمر وسعى خلفه ماشيا حتى وصلا، ولما لأمه أبو عبيدة على ذلك قائلا: إني أراك تصنع أمرا لا يليق، فالأنظار متجهة إليك. أجاب ابن الخطاب في قوة وإيمان بالله وبنفسه قائلا: قد كنا أذل الناس، وأقل الناس، فأعزنا الله بالاسلام، ومهما نطلب العزة بغيره يذلنا الله.

ومن نتائج هذه التعليمات وتلك الوصايا كذلك أن أصبح الرقيق صديقا لمالكه في كثير من الأحيان ومزاملا له في الدراسة، بل أحله بعضهم محل الابن يقول سعد بن هاشم الخالدي في وصف غلام له:

ما هو عبد لكنه ولد * خولنية المهيمن الصمد
شد أزري بحسن خدمته * فهو يدي والذراع والعضد

ويرثي كشاجم غلامه مبشرا بقوله:

يا ناصحي إذ ليس لي ناصح * ويا أميني إذ يخون الأمين (١)

ولم تكن معاملة الرقيق فضائل يتخلق بها مالك الرقيق بل جعلها الشرع الإسلامي واجبا يلتزم المالك أن يقوم به، فإذا جار مالك على عبده

---

(١) أنظر آدم متز: الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٩١ - ٢٩٢.

أو ظلمه ظلما بينا كان جزاؤه أن يعتق الحاكم عليه ذلك العبد، وقد روى ابن عمر عن الرسول قوله: من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه.
ويروي ابن سعد في الطبقات (١) أن عبدا روميا اسمه الأزرق خرج مع عبيد آخرين إلى الرسول يوم الطائف وشكوا ظلم سادتهم فأعتقهم رسول الله.
وسار المسلمون على هذا في عصور مختلفة، فقد روي أن زنباغا أبا روح ابن زنباغ الشهير، عاقب عبدا له على خطأ ارتكبه العبد، فقسا عليه، فشكا العبد للرسول فأعتقه الرسول. وأنزل رجل عقابا قاسيا على أمة فأعتقها عمر وأوجعه ضربا (٢).
وعمل بذلك أيضا باي تونس سنة ١٢٦٢ ه (١٨٤٥ م) وكان جريئا فيما عمل، فقد رأى أغلب المالكين لا يحسنون معاملة الأرقاء، فاتخذ قرارا بتحرير الأرقاء جميعا ووافق رئيس الفتوى في تونس على ذلك (٣).
ونختم هذا البحث بجملة لباحث مسلم تحدث قليلا عن معاملة الإسلام للرقيق ثم قال: على هذا المنوال عالج الإسلام قضية الرق من ناحيتها العملية إلى أن يجد لها حلا من ناحيتها الدولية، وفي هذا الجانب وحده كانت مراعاة الإسلام لواقع الأمر في البشرية يوم جاءها، وبعد أن جاءها لم يعد لعهد الرق وجود في الوطن الإسلامي لأن معالم عهد الرق وخصائصه قد بهتت في الحياة الاجتماعية الواقعية بحكم تعاليم الإسلام في معاملة الأرقاء الذين قضت الضرورة

---

(١) الطبقات الكبرى ج ٣ ص ١٧٦.
(٢) ابن القيم: أعلام الموقعين عن رب العالمين ج ٢ ص ٢٦ والطيب النجار: الموالي في العصر الأموي ص ١٥٨.
(٣) الشيخ الخضر: مجلة الأزهر سفر سنة ١٣٧٣.

أن يبقوا على الرق فترة من الوقت حتى يتهيأ عقد ميثاق دولي عام لتحريرهم وللقضاء على الرق قضاء تاما (١).

وقريب من هذا ما ذكره Stanley Laue Poole (٢) وهو يتحدث عن الأرقاء بإسبانيا عقب الفتح الإسلامي للأندلس، قال: أما فرح العبيد بما طرأ على نظام الحكم من التغيير فقد كان عظيما حقا، بعد أن لاقوا من ضروب العسف والقسوة من القوط والرومان ما تقشعر له الأبدان، فإن الرق في رأي المسلمين نظام انساني رقيق، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما لم يجد بدا من الابقاء على هذا النظام العتيق الذي يعارض مبادئ الإسلام بذل كل جهد لتخفيف ويلاته في كثير من الوصايا والأحاديث.

ويقول الأستاذ العقاد (٣): إن العتق هو الذي شرعه الإسلام في أمر الرق، وأما نظام الرق بأنواعه فقد وجده الإسلام مشروعا فحرمه، ولم يبح منه إلا ما هو مباح إلى اليوم في نظام الأسرى وتسخيرهم في أعمال من يأسرونهم من المتقاتلين، وسبق الإسلام القوانين الدولية بتقريره إلزام الدولة واجب السعي في إطلاق أسراها وإعتاقهم بالفداء، وشفع ذلك بالوسائل الفردية فيما تنتقل به الذمة إلى الأفراد من مالكي الأرقاء بعد وفاء الدولة بذمتها.

ولا يقال هنا إنه عمل كثير أو قليل، بل يقال إنه العمل الوحيد الذي كان ممكنا في محاربة نظام الرق، ولم تستطع أمم الإنسانية ما هو خير منه في علاج هذه المسألة إلى الآن.

الرق الصناعي أو رق لا يقره الإسلام:

هناك نوع يسمى الرق وليس في الحقيقة رقا، وقد انتشر هذا النوع في العالم الإسلامي في فترة من الفترات، وحسبه الناس رقا إسلاميا والإسلام

---

(١) أنظر ص ٢٦ – مجلة المسلمون – السنة الثالثة – العدد الخامس.

(٢) العرب في إسبانيا ص ٤٠.

(٣) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢٢١.

في الحقيقة منه براء، وهذا النوع من الرق هو انتكاس وعود للهوة التي انتشل الإسلام العالم منها، إذ وجد من الناس من يستعذبون الرق ويفضلونه على الحرية، فزجوا بأنفسهم أو بذويهم إلى هذا الرق من باب غير الباب الذي فتحه الإسلام، واختاروا لذلك وقتا ضعف فيه الوازع الديني فأتيح لهم أن يضمنوا بعض النجاح فيما قصدوا إليه، فكان ذلك الذي نسميه: " الرق الصناعي ".

وقصة ذلك أن اصطناع الرق أو التظاهر به كان وسيلة لكسب السلطة، ورغد العيش والنفوذ للرقيق، وقصور الخلفاء والعظماء هي بطبيعة الحال البيوت المفتوحة لتحقيق ذلك للأرقاء والرقيقات، فلهؤلاء في هذه القصور سلطان وجاه واستمتاع بنعيم الحياة في ظل ما ضمنه الإسلام للرقيق من حقوق، وكل هذا جعل بعض الأحرار والحرائر يتوقون لدخول هذه القصور ولو باسم الرق وفي ستر منه، وكانت هذه القصور ترحب بالعبد الكفء والقينة الجميلة الماهرة، ولهذا عمد بعض الآباء إلى تدريب أبنائهم وبناتهم على الحرف التي تعجب أصحاب هذه القصور، كالموسيقى والغناء والرقص والشعر وغيرها، وعرض هؤلاء أولادهم للبيع على أنهم أرقاء ورقيقات، عرضوهم مباشرة أو بواسطة النخاسين الذين تخصصوا في الاتجار بالأرقاء، ووصل كثيرون من هؤلاء إلى القصور من هذا الطريق، وهذا هو السر في انتشار هذا النوع في بعض الفترات التي لا حروب فيها، يقول الأستاذ جميل نخله مدور: إن بيع الرقيقات لم يكن مظهرا من مظاهر العبودية والاسترقاق بالمعنى المألوف، بل إن كثيرا من الفتيات كن يأتين السوق مختارات ليبعن حتى يتمتعن بحياة الترف والنعيم في بيوت الخلفاء والأمراء (١).

----

(١) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٩٨.

وطبيعي أن كثيرات من هؤلاء الرقيقات كن يفضلن الرق على الحرية، ومما يروى في ذلك أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة، وزهد في متاع الدنيا، واتجه للقيام بمسؤولياته الكبيرة جمع جواريه وقال لهن: إنه قد نزل بي أمر شغلني عنكن، فمن اختارت منكن العتق أعتقتها، ومن أمسكتها لم يكن لها على شئ. فبكين بكاء شديدا يأسا منه (٢).

ولعل الرق القليل الذي لا يزال موجودا في بعض القصور هو من بقايا هذا النوع من الرق الصناعي.

وكان إقبال الشبان على الرقيقات عظيما مما جعل أثمانهن ترتفع ارتفاعا كبيرا فأصبح ثمن الواحدة يعادل مهر عدة من الحرائر، والسبب في هذا الاقبال أن الشاب يختار الجارية بعد خبرة، فيرى جسمها ويسمع صوتها ويختبر تجاربها وعلمها وذكائها، ولكنه حين يختار زوجة لم يكن يتاح له أن يتعرف عليها، وغاية ما يستطيعه أن يرى وجهها ويديها إن استطاع أن يقابلها مقابلة قصيرة:

ومن الرق الصناعي الذي لا يقره الإسلام ما يوجد في بعض القصور من بقايا النخاسة الأوربية التي كانت تلتقط الأطفال والشبان من إفريقية وتدفع بهم إلى مزارع أمريكا ومصانعها، وتنحرف ببعضهم أحيانا فتلقى بهم في قصور الشرق للخدمة أو الحراسة.

وبعد، لقد وضع الإسلام منذ جاء الأساس المتين لإلغاء الرق وتحرير الأرقاء، وقد ظل صوت الإسلام يزمجر حتى استجاب له العالم بعد عدة قرون من تشريعه الحكيم، إن زوال الرق هو أحد الهدايا التي قدمها الإسلام الإنسانية.

----

(٢) ابن عيد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٤٧.

لمحة عن النظم السياسية في الإسلام (*)

الإسلام دين ودولة:

اتجهت الأديان والفلسفات التي سبقت الإسلام إلى الكلام عن العقيدة، ولم تعن بشؤون الدنيا قط، أو عنيت بها عناية محدودة، وحتى عند العناية بها كانت التشريعات أشبه بنصائح غير ملزمة في الغالب، ومن ثم لم ترد بهذه الأديان دراسة كافية عن التنظيم السياسي.

أما عن الإسلام فإن الحقيقة الواضحة أنه دين ودولة، ذلك لأنه نظم شؤون الدين وشئون الدنيا جميعا، فكما تكلم الإسلام عن الله والملائكة والأنبياء والجنة والنار والعبادات وغيرها من شؤون الدين، تكلم كذلك عن البيع والشراء والزواج والطلاق والميراث وغيرها من شؤون الدنيا، ووضع الإسلام لهذه وتلك، القوانين والنظم، وألزم المسلمين باتباعها وحدد عقوبة المخالفين والعصاة تحديدا مفصلا أو تحديدا مجملا ترك تفصيله لاجتهاد أئمة المسلمين، وقد تكلمنا من قبل عن " الله " وعن " العبادات في الإسلام " وغيرها من شؤون ولنقتبس الآن من القرآن الكريم بعض آيات عن تنظيم شؤون الدنيا، قال تعالى:

- وأحل الله البيع وحرم الربا (١).
- ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون (٣).
- خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها (٣).
- حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم... (٤)

---

* هذا الموضوع مختصر من كتاب " السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي " للمؤلف

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥.

(٢) سورة المطففون الآيتان ١ – ٢.

(٣) سورة النساء الآية الأولى.

(٤) سورة النساء الآية ٢٣.

– الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان (١).
– والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف (٣).
– يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل... (٣).
– ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد... (٤).
– كتب عليكم القصاص في القتلى، الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى (٥).
– قد أفلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون (٦).
وهذه التعليمات الإسلامية الشاملة لكل شؤون الدنيا تقريبا واجبة الاتباع، ومن خالفها فقد نظم الإسلام العقوبة التي تقع عليه، قال تعالى:
– السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا، نكالا من الله (٧).
– الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدة منهما مائة جلدة (٨).
وكان الرسول في حياته يتولى تنفيذ هذه الأحكام:
– إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكيم بين الناس بما أراك الله، ولا تكن للخائنين خصيما (٩).

----

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٩.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٣.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٢.
(٤) سورة النساء الآية ١٢.
(٥) سورة البقرة الآية ١٧٨.
(٦) سورة المؤمنون الآيات ١ – ٥
(٧) سورة المائدة الآية ٤٢
(٨) سورة النور الآية الثانية
(٩) سورة النساء الآية ١٠٤.

- وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا (١).
- ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون (٢).

وهكذا لا يقتصر الإسلام على تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه، ولو كان الإسلام دينا فقط أي تنظيما للعلاقة بين المخلوق والخالق لا غير، لكان من الممكن أن تترك شؤون هذا الدين لله، يراقبها، ويرضى عن المطيع ويسخط على العاصي، ولكن بالاسلام جانبا كبيرا ينظم علاقة الإنسان بالإنسان، ويرتب سبل العيش في مختلف شؤون الحياة أو أكثرها، ويلزم المؤمنين بأن يتبعوا هذه النظم، وأن يبطلوا ما يخالفها، وينزلوا العقوبة بالمخالفين.

ولكن جماعة المسلمين كلها لا يمكن أن تشرف على تنفيذ أحكام الله، لانشغال كل فرد بعمله، ولعدم كفاءة البعض، ثم لأنه ليس من الحكمة ترك مسؤوليات جسام شائعة دون أن يحدد نفر لرعايتها وتنفيذها، ثم كان من الطبيعي كذلك أن كل جماعة لا بد أن يكون لها رائد، يرشدها، ويكون مسؤولا عن تنفيذ أحكام الله فيها، ويقول ابن تيمية في ذلك (٣): يجب أن يعرف أن ولاية الناس من أعظم واجهات الدين، بل لا قيامة للدين إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع، لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: إذ خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم. وجاء في مسند أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يحل لثلاثة يكونون في فلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم. فأوجب الرسول تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، تنبيها بذلك على

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٦
(٢) سورة المائدة الآية ٤٧.
(٣) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ص ١٧٢ - ١٧٣.

سائر أنواع الاجتماع، ثم أن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، ومثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سائر ما أوجبه الله من الجهاد والعدل وإقامة الحدود وغيرها مما لا يتم إلا بالقوة والإمارة، ولهذا روي أن السلطان ظل الله في الأرض، وروي كذلك:

ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان.

وعلى هذا فالحكومة في الإسلام ضرورية للغاية، وفي مطلع الإسلام كان الرسول – بجانب تبليغ رسالة الله – حاكما يشرف على تنفيذ قوانين الله، وكان يساعده في هذا العمل مجموعة من الصحابة والقادة، ومن هؤلاء كانت تتكون الحكومة الإسلامية الأولى، وبعد وفاة الرسول اختير الخلفاء ومثلوا هم ومعاونوهم الحكومات الإسلامية بعد وفاة الرسول.

ومن الواضح أن القرآن الكريم لم يفصل المشكلات الخاصة بالحكومة الإسلامية، لأن الحكومة وطرق اختيارها ومسؤوليتها وعزلها وغير ذلك من شؤونها لما تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، ومن أجل ذلك تكلمت المصادر الإسلامية الأولى عن الحكومة الإسلامية بالإجمال، وتركت التفاصيل ليضعها البشر بما يلائم حاجتهم في حدود الإطار العالم الذي رسمه الإسلام، وقد تكونت لدينا من المصادر الأولى ومما أضافه العلماء والباحثون مادة نستطيع بها أن نعطي صورة واضحة عن النظم الخاصة بالحكومة الإسلامية، وهو ما سنشرع فيه:

تكوين الحكومة الإسلامية:

نقلنا عن ابن تيمية فيما سبق ضرورة وجود الرياسة، وقد اقتبس ابن تيمية في خلال كلامه أحاديث صحيحة تبين ضرورة اختيار الرئيس، ويجب أن نضيف

إلى هذا الاقتباس أن جماعة المسلمين في اختيارهم للرئيس لا بد أن يمتثلوا تعليمات الإسلام التي تقضي بأن يختار للرياسة أصلح للمسلمين للقيام بهذه المهمة وملء هذا الفراغ الكبير. قال صلى الله عليه وسلم: أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل، فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين. وسئل رسول الله مرة: متى الساعة؟ فأجاب: إذا أسند الأمر لغير أهله فانتظر الساعة.

وروي عن الرسول قوله: إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا بغير علم، فضلوا وأضلوا.

وروي عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أحب الناس إلى الله وأدناهم منه مجلسا يوم القيامة إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر.

وقد روي عن عمر بن الخطاب قوله: لا إسلام إلا بجماعة ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة، فمن سوده قومه على فقه (علم) كان ذلك حياة له ولهم، ومن سوده قومه على غير فقه كان هلاكا له ولهم.

وهكذا نجد صفات الحاكم تتضح من خلال هذه الأحاديث والمأثورات، فتبدو لنا ضرورة أن تتوافر فيه صفات القوة والعلم والفطنة والعدالة، بالإضافة إلى صفات جسمانية وعقلية أخرى ذكرها الماوردي (١) كسلامة الحواس وسلامة الأعضاء من نقص يمنع من استيفاء الحركة وسرعة النهوض، وكالرأي المفضي إلى سياسة الرغبة. وبتاء على التفكير الإسلامي لا يجوز لمن لم تجتمع

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٥.

فيه صفات الرئيس أن يتقدم لمنصب الرياسة، كما لا يجوز للمسلمين أن يختاروا غير الصالح، بل عليهم أن يسندوا الأمر لأهله، وأن يحسنوا استعمال السلطة التي منحت لهم لاختيار إمام المسلمين.

ومن الواضح أن الإمام المنتخب ليقود جماعة المسلمين، لا يمثل وحده الحكومة الإسلامية، ولا يقوى وحده أن ينهض بكافة الأعباء، ولذلك ترك له أن يختار من بين المسلمين من يعاونه في هذه المهام الجسام، على أن هذا الحق المعطى للإمام مقيد باختيار الصالح، فقد روي عن الرسول قوله من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله. وفي رواية من قلد رجلا عملا على عصابة وهو يجد في تلك العصابة أرضى منه فقد خان الله ورسوله، وخان جماعة المسلمين. وعن أبي ذر أنه قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ فضرب الرسول بيده على منكبي ثم قال: يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، ويوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها.

ومن هنا يتضح أن التفكير الإسلامي يقضي بأن يختار الشعب الرئيس الأعلى فقط، ويترك لهذا الرئيس حق اختيار معاونيه، فليس للشعب أن يختار معاوني الرئيس، بل ذلك الحق للرئيس نفسه، ليمكن التناسق بين أعضاء الحكومة إذ لو اختار الشعب معاوني الرئيس لكان من الممكن أن يختار الشعب شخصا لا تتفق ميوله مع الرئيس فلا يتم بينهما التعاون المنشود، على أن الشعب إن فقد سلطة اختيار معاوني الرئيس، فإن له حق الاعتراض على من يختارهم الرئيس أو على بعضهم متى كان للاعتراض أسباب معقولة.

ومن الرئيس وأعوانه تتكون الحكومة الإسلامية، وهذه الحكومة

واجبة الطاعة. قال تعالى: " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " (١)، ولكن وجوب الطاعة محدود يأن تكون الطاعة في خير وبر، قال صلى الله عليه وسلم: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.
ولا يهتم الإسلام بالألقاب التي تمنح لأعضاء هذه الحكومة، وقد عرف في الإسلام لقب الخليفة والإمام والسلطان للرئيس، وعرف لمعاونيه لقب الوزراء والأمراء، ولا بأس من استعمال هذه الألقاب أو غيرها مما يمثل طبيعة العمل الذي يقوم به كل من أعضاء هذه الهيئة، والمهم في الإسلام هو اجتماع هذه الشروط وحسن سير العمل، أما الألقاب فليست مما يحرص عليه التفكير الإسلامي، ولا يعرف التفكير الإسلامي مسألة توارث السلطة ولا حصرها في جماعة دون جماعة.
عمل الحكومة الإسلامية:
مجمل خصائص الحكومة الإسلامية أنها تعمل لخدمة الشعب الذي اختارها، فالتاريخ يؤكد لنا أن كل من حكموا المسلمين حكما إسلاميا بدءوا هذا الحكم أغنياء وتركوه فقراء، وعرفوا قبله راحة البدن والمتع المباحة، فلما أسند لهم هذا العمل بعدوا عن المتع ولم يعرفوا طعم الراحة، وحسبك أن تستعرض حياة الرسول وأبي بكر وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي لترى صورا رائعة للحكومة الإسلامية.
فإذا أردنا أن نعطي مزيدا من التفاصيل عن عمل الحكومة الإسلامية، قلنا إن على الحكومة الإسلامية أن تضمن الأمن في الداخل، وأن تعد العدة لحماية الدولة من أي اعتداء خارجي، وعلى الحكومة الإسلامية أن

---

(١) سورة النساء الآية ٥٩.

تتبع نظم الإسلام وأحكامه التي جاء بها في أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها، وأن تلزم المسلمين بذلك، وعليها أن تقترح النظم والقوانين المتمشية مع روح الإسلام للمشكلات التي لم يرد لها ذكر في مصادر الإسلام الأولى، وأن يكون هدفها في الأحكام التوفيق بين النصوص وبين مصالح العباد.

والنصوص التالية تبين مسؤولية الحكومة الإسلامية:

قال تعالى: الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور (١).

وقال عليه الصلاة والسلام: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته.

وقال: من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم (حاجتهم) وفقرهم، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة.

وفي تدبير مشكلات المجتمع الإسلامي، وفي تقوية الصلة بين الحاكمين والمحكومين نذكر هنا آيتين كريمتين تتم بهما صورة عمل الحكومة في إطار الشورى الذي يطلق عليه تجوزا كلمة " الديمقراطية " في الاصطلاح الحديث، وهاتان الآيتان هما:

- وأمرهم شورى بينهم (٢).
- فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر (٣).

وهاتان الآيتان تبينان أن اختيار الحكومة ليس معناه تسليم كل الأمور

---

(١) سورة الحج الآية ٤١.
(٢) سورة الشورى الآية ٣٨.
(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٨.

إليها وانقطاع رأي الشعب، بل توضحان أن واجب الحاكم أن يستشير ليس فقط أهل الحل والعقد، بل أن يستشير جماعات أوسع من المسلمين كلما حزب أمر، بل أن يستشير المسلمين جميعا في مهام الأمور إذا أمكن ذلك، بطريق الاستفتاء العام، أو أي طريق آخر، والآية الأولى تصوغ هذه الفكرة صياغة رائعة، فهي لا تتجه إلى أسلوب الأمر بالمشاورة، وإنما توضح أن المشكلات إنما هي مشكلات الأمة، وأن الأمور أمورها، فطرح هذه المشكلات للأمة للتشاور، ولرغبة الوصول إلى حل سليم، أمر عادي، هو في الحقيقة وضع للأمور في نصابها وإعطاء الحق لصاحبه.

أما الآية الثانية فلم تكتف بالأمر بالمشاورة، وإنما رسمت أخلاق الإسلام وروحه التي يجب أن يتحلى بها الحاكم، فأوصته بالرحمة، ولين الجانب، والعفو، والتسامح، والدعاء للمسلمين بالمغفرة، وكل هذه المظاهر تمهيد للمشاورة، وهي تجعل الشعب يحس بحرية تامة فيبدي رأيه بصراحة ووضوح في المشكلات التي يعرضها الحاكم للتشاور.

ممن نسخه الحكومة الإسلامية سلطانها؟.

الحكومة الإسلامية تستمد سلطانها المباشر من الشعب لا من الله، لأن الشعب هو الذي اختارها، فتسلمت السلطة بناء على هذا الاختيار، ولولا اختيار الشعب لها ما نالت هذه السلطة. وفي ذلك يقول الشاعر مخاطبا عمر ابن الخطاب:

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه * ألقى إليك مقاليد النهى البشر

وقد حصل الشعب على هذه السلطة من الله، فالبشر خلفاء الله في أرضه. قال تعالى: " وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في

الأرض كما استخلف الذين من قبلهم " (١). وقال: " هو الذي جعلكم خلائف الأرض (٢) "، وبناء على هذه السلطة اختار المسلمون الحكومة أو اختاروا رئيسها واختار هذا الرئيس معاونيه، وبذلك تعمل الحكومة باسم الشعب وتتحدث باسمه (٣).

عزل الحكومة:

من القواعد المقررة أن من يعطي السلطة يستطيع أن يسحبها، والشعب - كما قلنا - هو صاحب السلطان، وهو الذي اختار الحكومة، ومنحها قوة تستطيع بها أن تشرف على أموره وأن تتحدث باسمه، فمن حق هذا الشعب أن يسترد هذه السلطة إذا عجزت الحكومة عن الاستمرار في القيام بواجبها، أو إذا أساءت استعمال السلطة المخولة لها، ويقول الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية سابقا: إن كتب الكلام مطبقة ومتفقة على أن الخليفة أو الإمام هو وكيل الأمة، وأنهم هم الذين يولونه تلك السلطة، وأنهم يملكون خلعه وعزله (٤). وقد وضح أبو بكر ذلك المعنى في الخطاب الذي ألقاه عقب توليته الخلافة، حيث جاء فيه: أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم.

فإذا لم تستجب الحكومة لرغبة الشعب في عزلها، أو إذا قاومت قرار العزل، جاز للشعب أن يثور عليها، وقد روي عن الرسول قوله. إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب

---

(١) سورة النور الآية ٥٥.

(٢) سورة فاطر الآية ٢٩.

(٣) أقرأ تفصيلا شاملا عن هذا الموضوع في كتاب " السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي " للمؤلف.

(٤) حقيقة الإسلام وأصول الحكم ص ١٧.

من عنده. ولكن يشترط في الثورة أن تؤمن عواقبها، وألا تنقلب إلى فتنة وإراقة دماء، فإذا لم تؤمن عواقبها لا يجوز القيام بها عملا بقوله عليه السلام: الإمام الجائر خير من الفتنة، وكل لا خير فيه، وفي بعض الشر خيار. وجاء في مقالات الاسلاميين للأشعري أنه لا يجوز الخروج على الإمام الجائر إلا لجماعة لهم من القوة والمنعة ما يغلب على ظنهم معها أنها تكفي للنهوض وإزالة الجور (١).

هذا عن عزل الحكومة كلها، أما عزل عضو من أعضائها فهو أمر هين يستطيعه الرئيس إذا لمس من هذا العضو تقصيرا أو رأي في عزله صلاحا.

الحكومة الإسلامية بين الحكومات المعروفة:

الحكومة الإسلامية نظام خاص بين نظم الحكومات، له طابعه، وله مميزاته وخصائصه التي تجعله لا يدخل تحت أي من النظم الأخرى للحكومات المعروفة في الوقت الحاضر.

فليست الحكومة الإسلامية دكتاتورية أو فاشية أو شيوعية أو ما يماثلها من النظم الاستبدادية، لأن هذه النظم تتنافى مع الشورى التي هي ركن هام من أركان الحكومة الإسلامية كما سبق القول، ولأن الشعب لم يول هذه الحكومات، ولا يستطيع عزلها، وإنما فرضت هذه الحكومات نفسها بالقوة، ولا يزيلها من مكانها إلا قوة تدبر في الظلام كتلك التي جاءت بها.

وليست الحكومة الإسلامية حكومة تيوقراطية، لأن سلطة الحكومة الإسلامية مصدرها الشعب، ولكن الحكومة التيوقراطية تدعي أن سلطتها من الله، وليس للحكومة الإسلامية ولا لرئيسها ما للبابا من سلطان روحي

---

(١) مقالات الاسلاميين ج ٢ ص ٤٦٦.

يستطيع به أن يشرع وأن يغفر السيئات، فليس الخليفة إلا منفذا لأحكام الدين، وسلطة تفسير الآيات القرآنية والأحاديث متروكة للعلماء (١)، كما تركت لهم سلطة اقتراح الحلول للمشكلات الجديدة.

ويقول مولانا محمد علي في ذلك (٢): والخليفة شخص مسلم عادي، وعضو في جماعة المسلمين، ولا يتمتع بأي امتياز من الناحية الدينية.

ومن الأستاذ الإمام محمد عبده نقتبس بعض العبارات في هذه الموضوع، قال رحمه الله:

ليس في الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه،

... والخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ولا هو مهبط الوحي،

ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة،... وهو وسائر

طلاب الفهم من المسلمين سواء، يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الإصابة في الحكم، فالخليفة حاكم مدني من جميع الوجوه، ومن هنا لا يجوز لصحيح النظر أن يختلط عنده الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج (تيوقراطيك) أي صاحب سلطان إلهي، فإنه عندهم هو الذي ينفرد بتلقي الشريعة عن الله وله حق الأثرة بالتشريع (٣).

وليست الحكومة الإسلامية ديمقراطية على النحو المعروف في الغرب، وأول ما نوضحه أن كلمة (ديمقراطية) كلمة خداعة، تدعيها كل الدول في عصرنا الحديث، تدعيها دول الغرب وتدعيها كذلك الدول الشرقية، وعلى

---

(١) ١٤, ١٠. The Caliphate pp: sir thomas Arnold

(٢). ٨٠. Early Caliphate p

(٢) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٦٥ - ٦٧.

كل فالديمقراطية في أحسن نظمها مخالفة للنظم الإسلامية، صحيح أنها تنفق معها في بعض الأسس الهامة، كحق الشعب في اختيار الحاكم، وكالمشورة، وحق الشعب في عزل الحكومة، ولكنها تختلف عنها في أساس مهم يجعل الفرق بينهما واسعا، وذلك الأساس هو أن الإسلام قدم للمسلمين كثيرا من الأحكام التي لا يمكن إهمالها، والتي هي ليست موضع شورى أو نقاش، كنظام الميراث، وكالمحرمات في الزواج وتعدد الطلقات وغيرها، كما وضع الإسلام للمسلمين مقاييس الفضائل والرذائل. في حين أتاحت الديمقراطية لأصحابها أن يضعوا كل الأحكام، وأن يرسموا لأنفسهم تلك المقاييس. وعلى هذا فالحكومة الإسلامية طابع فريد، يجمع من نظم الحكومات الأخرى أحسن ما فيها، ثم ينفرد بألوان من الفضل هي منحة الله، ومن هذه وتلك تحقق النظم السياسية في الإسلام لاتباعها استقرارا وحياة طيبة حميدة.

لمحة عن النظم الاقتصادية في الإسلام *

الاتجاهات الاقتصادية قبل الإسلام:

لم تعرف الأديان السابقة على الإسلام الاقتصاد بمفهومه الصحيح، أي على أنه تنظيم لاحتياجات المجتمع ولطرق الكسب وطرق الإنفاق التي تناسبه، فالبوذية كرهت الثروة، وجعلت على الراغب في دخولها أن يتنازل عن ماله وعقاره ويحمل كشكوله للسؤال، وينضم للجماعة، وقد تسربت هذه الفكرة إلى المسيحية حيث يروي متي ومرقص ولوقا عن عيسى أنه قال لشاب غني أراد أن يدخل المسيحية: بع أملاكك وأعط ثمنها للفقراء وتعال اتبعني. فلم يقبل الشاب. فقال عيسى: يعسر أن يدخل غنى ملكوت السماوات، وأقول لكم أيضا إن مرور جمل في ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى ملكوت الله (١). ويروي متي أيضا عن عيسى قوله. لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون (٢).

ولكن أغلب البوذيين والمسيحيين لم يقنعوا بهذا الاتجاه في هذين الدينين، فراح أتباعهما يشرعون التشريعات الدنيوية التي ترضى شغفهم بالمادة، وهكذا اتجه أتباع المسيحية والبوذية إلى الرهبنة، أو إلى التشريع الدنيوي الذي اهتم بالمال على أنه كسب شخصي دون أن يبين دوره في خدمة المجتمع.

---

* هذا الموضوع مختصر مما كتبه المؤلف عن النظام الاقتصادي في الإسلام في كتابة " السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي ".

(١) أديان الهند الكبرى للمؤلف ص ١٧٢ - ١٧٣ وإنجيل متى ١٩: ٢١ - ٢٤ وانظر هذا أيضا في مرقص الأصحاح العاشر ولوقا الأصحاح الثاني عشر.

(٢) الأصحاح ٦: الفقرة ١٩.

أما اليهودية فقد وضعت للمال أساسا عنصريا خطيرا، ففرقت بين التعامل مع اليهودي وبين التعامل مع غيره، فأباحت التوراة الربا مع الأممي وحرمته مع اليهودي (١)، كما أباحت بروتوكولات حكماء صهيون أن يعامل اليهود غير اليهود بالخديعة والنفاق والكذب، وسرقة الأموال وإتلافها كلما أمكنهم ذلك (٢).

ويمكن أن نقارن هذا الاتجاه بالاتجاه الإسلامي الرشيد فقد روي أن عمر رأى شيخا يهوديا يسأل الناس. فسأله عمر: ما الذي حملك على السؤال؟ فأجال الرجل. الحاجة والسن، فأخذه عمر بيده وذهب إلى منزله فأعطاه عطاء سخيا، ثم أرسله إلى خازن بين المال مع رسالة قال فيها: انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، إنما الصدقات للفقراء والمساكين، وهذا من مساكين أهل الكتاب (٣).

تلك لمحة يسيرة نحو سياسة المال كما رأتها الأديان والأفكار التي سبقت الإسلام، وسنبدأ الآن في التعريف باتجاهات الإسلام الاقتصادية، وسنرى منها أن الإسلام نظر إلى المال نظرة اجتماعية لم تنس الفرد، فهو يعترف بالملكية الفردية ولكن على ألا يكون فيها حرمان المجتمع أن إنزال الجور به، فلنأخذ الآن فيما اتجهنا إليه:

تقديم عن الاتجاه الاقتصادي في الإسلام:

كما أن للإسلام نظمه الخاصة في السياسة، كذلك له نظمه الخاصة في الاقتصاد، تلك النظم التي لا تنضوي تحت أي من النظم الاقتصادية المعروفة.

---

(١) اقرأ سفر الخروج الأصحاح الثاني والعشرين الفقرة ٢٥.

(٢) اقرأ باب " مصادر الفكر اليهودي " بكتاب اليهودية للمؤلف.

(٣) أبو يوسف: الخراج ص ١٥٠.

وهدف النظم الاقتصادية هو أن تخلق بين المسلمين جوا من الحب والتعاون والإيثار، ووسيلتها لذلك تحقيق العدالة الاجتماعية، بحيث لا يوجد جائع يعيش بجوار متخم، وعار يرى الآخر وهو يرفل في الحرير والديباج.

ولا يحارب الإسلام الغنى، ولا يحاول أن ينتقص من ثروة الأغنياء، ما دام الأغنياء قد حصلوا على المال بطريق مشروع وليس على حساب الآخرين، ويبيح الإسلام أن يؤخذ عند الضرورة من مال الغني ما يفي بحاجة الفقير أو بحاجة الدولة، وفي ظل التفكير الإسلامي الاقتصادي طالما اختفى الفقر وتجمعت ثروات طائلة للأغنياء، حتى كان الغني يبحث عن من يتسلم منه الزكاة فلا يكاد يجده.

وللإسلام - كما أشرنا من قبل - في سياسة المال فلسفة خاصة ليست بالرأسمالية ولا بالشيوعية ولا بالاشتراكية الأوربية، وهاك ملامح هذه الفلسفة:

١ - مبدأ الملكية الفردية:

يقر الإسلام حق الملكية الفردية للمال الذي حصل عليه المسلم بالطرق المشروعة، وقد نسب القرآن الأموال للناس في الآية الكريمة " إنما أموالكم وأولادكم فتنة (١) " وكذلك في قوله " الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار (٢) " ويقر الإسلام كذلك التفاوت في الغنى بقدر الجهد الذي يبذله كل مسلم، وبقدر التوفيق الذي يصادفه، وقد ورد القرآن الكريم مقررا هذا التفاوت، قال تعالى " والله فضل بعضكم على بعض في الرزق (٣) " وقال " نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات (٤) ".

____

(١) سورة التغابن الآية ١٥.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٧.
(٣) سورة النحل الآية ٧١.
(٤) سورة الزخرف الآية ٣٢.

وعلى هذا فالإسلام يجيز الملكية الفردية، ويشمل ذلك ملكية الأراضي الزراعية، كما يشمل ملكية المتاجر والمصانع، ويحرس الإسلام هذه الملكية وينقلها إلى ورقة المالك عن طريق نظام الميراث في الإسلام، ولا يجيز الإسلام للحكومة التدخل في هذه الملكيات إلا إذا تعارضت مع الصالح العام، ويكون تدخل الحكومة حينئذ لا بالإلغاء كما تفعل الشيوعية، بل بالتوفيق بين حق الملكية الفردية الذي أقره الإسلام، وبين المصلحة العامة التي هي أيضا أساس من أسس التشريع الإسلامي.

ولا نزاع أن التفاوت في الثروات طبيعي جدا، لأن الناس متفاوتون فيما هو أفضل من المال وأنفس منه، إنهم متفاوتون في الصحة، والقوى العقلية، والذكاء، ومتفاوتون في الجمال، واللون، والصوت، ومتفاوتون في مقدار توفيقهم في الزواج، أو الجوار، أو الصحبة، ومتفاوتون في مدى صلاح الأولاد ونجاحهم، ولم يقل أحد بوجوب محاربة هذا التفاوت وضرورة أن يصبح الناس سواسية في صحتهم وعقولهم وأولادهم عددا ونوعا وتوفيقا.. وغير ذلك. فالنهج الإسلامي في إباحة التفاوت في الغنى نهج طبيعي واضح.

٢ - التقريب في المظهر بين المتفاوتين في الغنى:

لكل نصيبه من الغنى، ولكن ذا الحظ الأوفر في المال يجب ألا يتخذ ماله وسيلة للفتنة يظهره ويفخر به، وذا الحظ الأدبي يجب ألا يظهر بمظهر الذلة فيضع نفسه بذلك بحيث يحسد الغني أو يكرهه. ومن أجل تحقيق التقريب المنشود ذم الإسلام الترف، وحث الغني على عدم التظاهر بما أوتيه من مال، كما حث الإسلام قليل المال على حسن المظهر وبخاصة في المجتمعات. اقرأ هذه الأحاديث التي توجه الغني حتى لا يتظاهر بماله فيجعله سببا للفتنة:

- كل ما شئت، والبس ما شئت، ما خطتك اثنتان، سرف ومخيلة.
- لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا من آنية الذهب والفضة.
- تكون إبل للشياطين وبيوت الشياطين، فأما إبل الشيطان فقد
رأيتها، يخرج أحدكم بنجيبات معه قد أسمنها فلا يعلو بعير منها، ويمر بأخيه قد انقطع فلا يحمله، أما بيوت الشياطين فلا أراها إلا هذه الأقفاص التي تستر الناس بالديباج.
واقرأ الآية الكريمة التي تحث على حسن المظهر: " خذوا زينتكم عند
كل مسجد (١) ". وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: إذا آتاك الله ما لا فلير أثر نعمته عليك.
٣ - المال مال الله:
يقر الإسلام حق الملكية الفردية كما سبق القول، ولكن المقصود من
هذا التعبير هو ملكية الفرد بالنسبة للأفراد الآخرين، أو قل: ملكية
الظاهر، أو ملكية الانتفاع، أما المالك الحقيقي لكل شئ، فهو الله سبحانه
وتعالى قال تعالى: " لله ملك السماوات والأرض وما فيهن " (٢): وقال:
" هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها (٢) " ويترتب على هذه الفكرة
وهي أن المال مال الله، نتائج ذات بال، فلا يجوز للغني أن يكنز المال،
يل لا بد أن يطلقه للتعامل، لينتفع به الصانع والعامل والزارع والتاجر، ولا يجوز أن يستعمله في رشوة، ولا أن يسرف في استعماله، أو يبخل به على المحتاج، ولا يجوز أن يستعمله في ربا أو احتكار.

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣١.
(٢) سورة هود الآية ٢٢٠.
(٣) سورة المائدة الآية ١٢٠.

٤ - مبدأ حق الفقير في مال الغني:

هذا المبدأ من أهم المبادئ في التشريع الإسلامي، ويهمنا أن نبرز فيه كلمة " حق " بمدلولها الكامل، فالذي يستحقه الفقير أو الدولة في مال الغني ليس منحة وليس عطاء وليس تفضلا، ولكنه حق، فإذا نكص الغني عن تسليم ذلك الحق، ألزمه الحاكم بذلك وأرغمه عليه وإن احتاج الأمر للتدخل المسلح والحرب، وقد روي عن أبي بكر قوله: والله لو منعوني عقال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لحاربتهم عليه.

وكلمة " حق " هذه وردت في القرآن بهذا النص إبرازا للمعنى الذي شرحناه.

قال تعالى:

- وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل (١).
- وآتوا حقه يوم حصاده (٢).
- وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم (٣).

وكثير من الناس يظنون أن الزكاة هي الحق الوحيد الذي يجب في مال الغني، ويهمنا أن نوضح قصور هذا الرأي، ويهمنا أن تذاع الحقيقة في هذا الموضوع بين الناس ليعرفوا التشريع الإسلامي على وجهه الأكمل، فالحقيقة أن في مال الغني نوعين من الحقوق هما:

(ا) حق محدد، ثابت، دائم، وهو الزكاة، فهي مقادير محددة، وتجب في وقت معين، وتدفع في جميع الظروف، وهذا الحق هو الحق الأدنى في مال الغني.

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٦.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٤١.

(٣) سورة الذاريات الآية ١٩.

(ب) حق غير محدد، وغير ثابت، وغير دائم، وذلك القسم هام جدا في التفكير الإسلامي، وهو غير محدد أي يزيد وينقص حسب الحاجة وحسب مقدار الثروة، وغير ثابت أي ليس له وقت معين بل يطلب عند الحاجة، وغير دائم أي يدفع عند حاجة الناس أو الدولة ويسقط إذا لم تتكرر هذه الحاجة.

وبجانب هذين النوعين الواجبين هناك نوع مندوب وهو نفقة التطوع، وهو الاعطاء تفضلا مع عدم حاجة المعطى إليه، كأن تعطيه مزيدا من الملابس، أو تحسن داره أو مركبه، أو تزوجه وهو في غير حاجة ماسة إلى زواج، أو نحو ذلك من غير الضروريات، وقد عد الله سبحانه هذا المنح قرضا له وألزم نفسه بسداده. قال تعالى:

- من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط (١).

- وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين (٢).

- إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم (٣).

وقد اتضح مما سبق أن الإسلام يقرر ما يسمى الآن الضريبة التصاعدية، وكذلك ما يسمى العلاوة الاجتماعية، فكلما زاد الغنى زادت النسبة الواجب إخراجها من المال، وكلما كثرت التبعات زاد ما يلزم أن يعطي للمحتاجين (٤).

----

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٥.

(٢) سورة سبأ الآية ٣٩.

(٣) سورة التغابن الآية ١٧.

(٤) أنظر تفصيل هذه النقطة في كتاب " المجتمع الإسلامي " للمؤلف ص ٧٢ - ٧٤.

الاقتصاد الإسلامي بين المبادئ الاقتصادية الحديثة

قلنا إن للإسلام في سياسة المال فلسفة خاصة ليست بالشيوعية، ولا بالرأسمالية، ولا بالاشتراكية الأوربية، وقد بينا بإيجاز ملامح الفلسفة الإسلامية، ونريد أن نعرف هنا مكانها بين مختلف الاتجاهات.

الاقتصاد الإسلامي والشيوعية:

يبعد الاقتصاد الإسلامي عن النظم الشيوعية بعدا واسعا، فقد سبق أن قررنا أن الإسلام يقر الملكية الفردية ويقر التفاوت فيها، ويشمل ذلك ملكية الأراضي الزراعية وملكية المتاجر والمصانع، ولا يجيز الإسلام التدخل في هذه الملكية إلا إذا تعارضت مع الصالح العام كما سبق، ويحرس الإسلام
هذه الملكية إلا إذا تعارضت مع الصالح العام كما سبق، ويحرس الإسلام
هذه الملكية وينقلها لورثة المالك، والإسلام بذلك يعارض الشيوعية التي لا تدع للإنسان إلا " حق الامتلاك الشخصي للدخل الناتج من عمله ومدخراته، والمنزل الذي يسكنه بأثاثه وأمتعته، والأدوات المخصصة لاستعماله الشخصي وتوفير الراحة له، وحق توريث هذه الملكية الشخصية (١).

ومن الحق أن نوضح أن الشيوعية أدركت بعدها عن العقل والمنطق السليم في نظامها الاقتصادي، فأدخلت ولا تزال تدخل بعض الأفكار على أسسها، تحاول بذلك الجمع بين الماركسية التي هي دين الشيوعيين وبين الحكمة وحاجات المجتمع.

الاقتصاد الإسلامي والرأسمالية:

الفرق بين الاقتصاد في الإسلام والاقتصاد في النظم الرأسمالية عظيم للغاية، فمع أن كلا النظامين يبيح الملكية الفردية والتفاوت فيها، وإرثها، إلا أن الهوة

----

(١) دستور الجمهوريات السوفيتية.

بعد ذلك تبدو واسعة بين النظامين، فالملكية في النظم الرأسمالية مطلقة لا قيود عليها، ولكن الملكية في النظام الإسلامي مقيدة، فلا يجوز للمالك في النظام الإسلام أن يحتكر، أو يسرف، أو يكنز، إلى غير ذلك مما سبق إيضاحه،
لأن المالك الحقيقي هو الله، وقد حدد للمالك المؤقت وهو الإنسان طرق الاستعمال، وهذا بخلاف النظام الرأسمالي، فللمالك فيه أن يحتكر ويكنز ويسرف وغير ذلك مما هو في الحقيقة طبيعة الرأسمالية.

ومن طبيعة الرأسمالية كذلك اعتبار الإنسان آلة تتحرك لتجني الخير لأصحاب رؤوس الأموال فالعامل عند الرأسماليين جهاز يعمل لهم حتى إذا سقط أو مرض طرحوه، ولم ينل العمال بعض الحقوق من أصحاب رؤوس الأموال إلا بعد جهاد طويل وشاق، ولم تعترف الرأسمالية بهذه الحقوق إلا بعده ضغط شديد.

والرأسمالية عدوة المجتمعات، فهي لا تفكر إلا في مضاعفة ثروات أصحابها على حساب المجتمع الذي تعده سوقا لها، تغريه وتخدعه لتتشرب ثرواته وتأخذ دخله بطريق أو بآخر.

" وقد أدركت الرأسمالية كراهية الجماهير لها واحتمال ثورتهم في وجهها، فأعدت العدة للتضييق على الجماهير وكبت ثورتهم، وذلك عن طريق اتصالها بسلطان الحكم، إما بوصول بعض كبار أصحاب رؤوس الأموال إلى مناصب الحكم في الدول الرأسمالية، وإما بالتأثير في رجال الحكم بسب نفوذهم المالي والاقتصادي، وبذلك خرجت المشاريع الرأسمالية من كونها مشاريع اقتصادية بحتة إلى مشاريع لها أثر واضح قوي في الحياة السياسية والدولية، وبذلك ازدادت سلطة الرأسمالية وأصحاب الأعمال على العمال، وعلى مختلف الطبقات العاملة، كما ازداد التنافس والتطاحن بين الدول (١).

----

(١) دكتور قهر الدين يونس: الإنسانية ص ٢٤.

ومن هنا يتضح أن النظام الرأسمالي لا يعيش إلا في جو سياسي معين، أو قل إن هذا النظام يتدخل في شؤون السياسة والحكم، وذلك أيضا عنصر آخر يبعده عن النظام الاقتصادي في الإسلام.

الاقتصاد الإسلامي والاشتراكية الأوربية:

وتختلف اشتراكية الغرب عن اشتراكية الإسلام، فاشتراكية الغرب تقوم على أساس من حرب رأس المال ونضال الطوائف، أما الاشتراكية الإسلامية فتقوم على أساس التعاون والإخاء.

ومن الواضح كذلك أن الاشتراكية الغربية ترمى للقضاء على الثروات الكبيرة، وتقف موقف العداء من الملكيات العظيمة، وتحاول أن تفتتها بسبب وبدون سبب، وليس كذلك الإسلام، فهو لا يتصدى لحرب مع الملكيات الكبيرة ما دامت هذه الملكيات قد تكونت على أساس سليم وما دامت بعد تكونها تابعة لروح الإسلام، عاملة لخير المجتمع وغير ضارة به، وإنما ينتفع بها فيما ينفع المجتمع الإسلامي ويعود عليه بالخير، ويضع الإسلام وسيلة هامة يصل بها إلى هدفه الرئيسي وهو إزالة الطبقية الثابتة وعدم تكديس الأموال في أيد قليلة، وهذه الوسيلة هي نظام الميراث الذي من طبيعته أن يفتت الثروات.

والاشتراكية الغربية تكثر من التأميم، فتقرب بذلك من الشيوعية التي تعمل على أن تملك الدولة كل شئ، أما التفكير الإسلامي فإنه يسعى لتوزيع الثروة على الأفراد، كما يقصد أن تنتقل الثروات بين الناس تبعا للجهد والتوفيق.

والملكية في الاشتراكية الغربية ملكية كاملة ولكنها في الإسلام وظيفة اجتماعية ليس غير.

تلك فكرة موجزة عن النظام الاقتصادي في الإسلام، ذلك النظام الذي حقق لتابعيه في الفترات التي اتبع فيها أسمى ألوان اليمن والبركة واليسار.

مجتمع متعاطف

فيما يلي نموذج لحال المجتمع الإسلامي، وما يجب أن يغمره من حب وتعاطف وتعاون، وهو نموذج من واقع الحياة، لا من نسج الخيال، نموذج للمجتمع الإسلامي في عهد عمر، عندما ألمت بالمسلمين نازلة، وحلت بهم كارثة أو كوارث متعددة.

كيف تصرف الراعي؟ وكيف تصرف القادة؟ وكيف تصرفت الرعية؟

وكيف كان الايثار، والتضحية، والتعاطف، خلق هذه الجماعة وهدفها؟

إننا نقدم بفخر هذا النموذج الرائع، راجين أن يكون مثلا يحتذي في عالمنا الإسلامي الحاضر:

حدثت في عهد عمر حادثة جسيمة، أو قل أحداث جسام، تلك هي المجاعة القاسية، وما جرته من أوبئة فتاكة، وموت ذريع، وقد استمرت هذه الأحداث عدة شهور، جاوزت العام، ولكنها كانت وثيقة الدلالة على تعاطف هذا المجتمع، الذي تكون منه جسم واحد، إذا شكا منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.

تسعة شهور تبتدئ من أواخر السنة السابعة عشرة للهجرة، لم يهطل المطر خلالها في شبه الجزيرة، ثم تحركت الطبقات البركانية بداخل الأرض فاحترق سطحها، وما عليه من نبات، وكثر الرماد الناعم الذي تحمله الرياح، حتى سمي هذا العام (عام الرمادة).

والجزيرة العربية تعيش على المطر، إنه يهطل فيشرب الناس، ويزرعون ويحصدون، وينمو العشب فترعى الماشية، وتربى اللحم والصوف، وتدر اللبن، فإذا توقف المطر وطال توقفه إلى هذه المدة، جف الزرع والضرع، وعم الجوع والبلاء، وهلكت الماشية، أو أصبحت عجفاء هزيلة، وهذا ما حصل في هذا العام، فإن الماء، فإن الماء نضب، فنضب معين الرزق، وجفت الماشية،

حتى أصبح العربي يذبح منها، ثم يعافها لقبحها وهزالها.
وقد شملت هذه البلوى الحضر والبادية في الجزيرة العربية، وهرع أهل البادية إلى المدينة حيث يعيش الخليفة يطلبون إليه أن يدبر أمرهم، ويلتمسون عند أهل الحضر شيئا مما تعودا أن يختزنوه.
وأحسن عمر بجوع الناس وحرمانهم، فحلف ألا يذوق لحما ولا سمنا، حتى يحيا الناس، ووضع دستوره العادل: " كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسني ما يمسهم؟ ".
قال عياض: رأيت عمر عام الرمادة، وهو أسود قد تغير لونه من الحرمان، وأكل الزيت.
وقال يزيد بن أسلم: لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا عمر يموت هما بأمر المسلمين.
وكتب عمر إلى الولادة في الشام وفلسطين والعراق، ويستنجدهم ويطلب منهم العون، وكانت عبارته لهم قصيرة عميقة التأثير: " سلام عليك، أما بعد، أفتراني هالكا ومن قبلي، وتعيش ومن قبلك؟ فيا غوثاه! يا غوثاه!
يا غوثاه! ". لم يصدر عمر أوامر، وكل ما فعله هو هذه المقارنة التي تقرر ضرورة التعاون في السراء والضراء، وأن من العدل أن يقتسم الناس الخير والشر، وليس من الإسلام أن يجوع ناس ويشبع آخرون أو يتخمون.
وسارع المسلمون في كل مكان يلبون دعوة إخوانهم في الجزيرة العربية، وانهال العطاء من كل جانب بكثير من السخاء والكرم، وكان أبو عبيدة من الجراح أسرع الأمراء استجابة لنداء عمر، فقدم من حمص في أربعة آلاف راحلة محملة طعاما، وبعث عمرو بن العاص الطعام من فلسطين على الإبل وفي السفن، وبعث معاوية ثلاثة آلاف بعير من الشام، وبعث سعد بن أبي وقاص ألف بعير من العراق تحمل الدقيق، هذا عدا الأكسية الكثيرة التي أرسلها هؤلاء

وكان عمر يرسل من قتله من يستقبل العير ويميل بها للمحتاجين، وكان حريصا على أن يسد بها خلة الناس ويزيل عنهم الجوع، فكان يقول لكل من مندوبيه: أما ما لقيت من الطعام فمل به إلى أهل البادية، فأما الظروف فاجعلها لحقا يلبسونها، وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها ويخزنون من ودكها، ولا ترض أن يقولوا: ننتظر بها الحيا، أما الدقيق فيصنعون ويحرزون حتى يأتون الله بالفرج.

وكان عمر يعد الطعام في بيته ويقدمه للوافدين من البادية وغيرهم ممن ليست لهم بيوت بالمدينة، وقد بلغ من طعموا على موائده ذات ليلة، عشرة آلاف شخص، وأما المرضى والضعفاء، فكان يرسل لهم طعامهم حيث هم، بخلاف أسر أخرى بالمدينة كانت تأخذ الدقيق والأدم وتتولى الطبخ بنفسها.

ووضع عمر دستور التعاون الذي لا نعتقد أن المدنية في أسمى مراحلها تستطيع أن تصل إليه، قال: لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بالحيا، فعلت فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم.

وما إن انتهى هذا القحط ونزل المطر، حتى روع المسلمين حادث آخر، ليس أقل خطرا من الجدب والمجاعة، ذلك هو الوباء الذي انتشر في أرض الشام. وانتقل منها إلى العراق، وقد حصد هذا الوباء عددا كبيرا من المسلمين، وكان يصيب الرجل فيسقط سريعا وكان أبو عبيدة بن الجراح على جند الشام في ذلك الحين حيث انتشر الوباء واستفحل خطره، وأبو عبيدة حبيب إلى نفس عمر، وهو أمين هذه الأمة كما لقبه الرسول، وكان عمر يفكر في أن يستخلف أبا عبيدة بعده، ومن أجل هذا فكر في إبعاده عن الشام وما فيه من وباء وموت.

ولكن عمر كان يدرك أن أبا عبيدة يحرص على أن يبقى مع جنده يصيبه

ما يصيبهم أو تحميه عين الله، ولذلك نجد عمر يكتب لأبي عبيدة لا ليعلن له ما يضمره بشأنه، بل يكتب له قائلا: " أما بعد، فإني قد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إلي ".

ولكن أبا عبيدة يدرك ما أراده عمر، ويعز على أبي عبيدة أن يخلي جنده في منطقة الخطر ويفر بنفسه، فيجيب عمر: " إني قد عرفت حاجتك إلى، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله في وفيهم أمره وقضاءه، فحللني من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعني في جندي " وقرأ عمر الكتاب فبكى، فسأله من معه: هل مات أبو عبيدة؟ فأجاب: لا وكأن قد ومات أبو عبيدة؟ عقب ذلك في وسط جنده وفي وسط البلاء.

وبعد، ذلك هو الإسلام الذي جاء بحق ليكون خاتم الأديان، وجاء رسوله ليكون خاتم الأنبياء، وقد حمل الإسلام بين دفتيه سعادة الدين والدنيا لمن تبعه وسار في ضوئه، كما تسربت منه لغير معتنقيه ألوان من المعارف والثقافات والاتجاهات الخلقية لم تكن البشرية تعرفها من قبل، وقد استطاع هذا الدين أن يحمي نفسه من الترهات والأباطيل خلال القرون الحالكة التي مرت بالمسلمين، فما جاء عهد النور خرج للناس بآلائه وصفائه كإشراقة الصبح وبسمة الأمل، ولا نزاع أن البشرية لن تجد إلا في ظلاله سعادتها واستقرارها ولا نزاع أنه سيكون دين المستقبل، لقد انتشر الإسلام في طول الأرض وعرضها حتى يوم كل المسلمون مغلوبين على أمرهم، والآن وقد استعاد المسلمون مكانتهم وتحررت بلادهم وعقولهم، لا بد أن زحف الإسلام سيكون أقوى، وانتشاره سيكون أشمل: " إن الدين عند الله الإسلام " (١).

----

(١) سورة آل عمران الآية ١٩.

الكفة الراجحة

هذا العنوان استعرناه من باحث في الأديان، باحث مر بتجربة مهمة يجدر بنا أن نعرضها وأن نتدارسها، إنها تجربة تحوله إلى دين الإسلام، وهو يصف هذه التجربة أبلغ وصف وأدقه، وبذلك استحق أن نقتبس منه معالم هذه التجربة، لنعرضها، لعل فيها هدى ونورا لبني الإنسان، ذلك الباحث اسمه الآن " محمد فؤاد الهاشمي " مؤلف كتاب " الأديان في كفة الميزان (١) "، ووصفه لتجربة تحوله إلى الإسلام يدل على هدوء وعلم وعمق، وربما رأيت الآلاف ممن تحولوا إلى ديننا الحنيف، أو قرأت لبعضهم، ولكن الوصف الذي دونه الأستاذ الهاشمي تحت عنوان " الكفة الراجحة " يفوق كل وصف، فيه إحاطة، واتزان، وعمق، وفيه دقة في تصوير الانفعالات النفسية، فلنفسح هنا المجال لموجز لهذا المقال.

يولد الإنسان على دين آبائه، ويشب على مبادئهم، وربما فاقهم في التطرف والتمسك بالدين، فإذا شب عن الطوق، مرت به من حين إلى حين ساعات من الصفاء الروحي والحياد العقلي (٢)، فيأخذ في التأمل فيما يدين به، ومناقشة ما يتلقى من تعاليم، وكثيرا ما يسلمه هذا إلى الشكوك والصراع الفكري، لما يظنه متناقضات في معتقده، وهذا يسلمه مرة أخرى للبحث والتنقيب عن الحقائق (٣).

---

(١) من ١٧٨ - ١٨٢ بتصرف.

(٢) هذا إذا كان يميل للفكر والبحث، أما إذا كان بسيطا أو من العامة ظل على التقليد طول عمره، وفي ذلك السلامة لأمثاله.
(شلبي)

(٣) عند ضعف الشخصية واختفاء مظان البحث، يستسلم بعض الناس في هذه المرحلة إلى الشكوك وربما يصلون إلى الالحاد. (شلبي)

وفي غمرة البحث والتنقيب عن أسرار دينه، قد تطرأ عليه الرغبة الملحة التي تبلغ به حد التطفل، فيسترق السمع في غفلة من دينه الذي ولد وشب عليه، إلى دعوة تدعو إلى دين آخر، وقد يسرع فيستبعد هذا الفكر الطارئ، وقد يرحب به ويتوغل في بحثه ودرسه، وهو يميل إلى هذا الاتجاه الأخير إذا كان عقله الفطري قد بلغ غايته من التحرر، فلم يعد ينظر إلى الأبوة أو البنوة أو العشيرة أو الأموال، بل تكون هذه كلها قد اضمحلت قيمتها أمام إلحاح الفطرة التي تدفع الناس دفعا قويا للبحث عن الحقيقة.

وكلما كان الدين الجديد واضحا لا تعقيد فيه ولا تكلف، وكلما كان متفقا مع الفطرة التي فطر الله عليها خلفه، كلما كان التمسك به أقوى، دون حاجة إلى دعاء يستعملون أساليب الكياسة والفطنة والمنطق الخلاب ليجذبوا لدعوتهم الناس، لأن الحقائق ليست بضاعة تتعلق بمطالب الجسد، إنما هي مطلب الروح والعقل، والروح والعقل يبغيان الحقائق الواضحة التي لا التواء فيها ولا دوران.

ويعد هذا التقديم الذي أو جزناه يقوم الأستاذ محمد فؤاد الهاشمي بوصف حالته وتطبيق هذه الانفعالات على نفسه فيقول:

وقد صادفتني هذه الحالات، ودرت في فلكها، واصطليت في أتون الفكر ردحا من شبابي، فقد ولدت على دين من أديان أهل الكتاب ونشأت أقلد أبوي وأترسم خط أجدادي في أداء الطقوس والشعائر، حتى بلغت الرشد ونلت حظا من العلم ووجهت إلى تعلم هذا الدين، لأكون دعامة من دعائم الدعوة له، وربما قائدا من قادته.

وقادتني الدراسة إلى إصاغة السمع إلى عدة نداءات وصلت إلى سمعي

نتيجة الثغرات التي أوجدتها الريبة والشك فيما لم يستطع العقل قبوله، وما لم يطمئن إليه الضمير لحظة الظهر الوجداني، فكان لتلك النداءات حظ من الانصات الذي أعقبه التفكير في الأديان السابقة على ديني، فكنت كالمستجير من الرمضاء بالنار، إذ وجدت بعد التمحيص أن أغلال ديني أخف وطأة من قيود من سبقه من أديان الطغيان الكهنوتي والكنسي.

وبعد أن أكملت دراستي – دون أن أصيب ما بحثت عنه – تحولت إلى البحث في الدين الإسلامي، وفي هذه المرة لم تكن بغيتي الفرار من ديني، ولكن كان قصدي من البحث في الإسلام استخراج العيوب، وتلمس الأخطاء، والوقوف على المتناقضات التي أوحى إلي بها أساتذتي وأهلي، ولكني لم أكد أطرق الباب وأمسك بأول الخيط حتى دخلت باب المقارنة بين ذلك الدين وما سبقه من أديان، ولم أخرج من تلك المقارنة إلا وقد استولى علي سحر الحقيقة الناصعة، والمبادئ الوضاءة والتعاليم الصريحة، التي لا اعوجاج فيها ولا التواء، ولا سلطان لكاهن ولا طغيان لأحبار.

وجدت لكل سؤال جوابا، ووجدت فصل الخطاب فيما لم يستطعه دين سابق، سواء كان وضعيا، أو مبدأ من المبادئ الفلسفية، أو منحدرا من الأديان السماوية، وقولي منحدرا يرجع إلى أن رجال الدين خرجوا بالأديان السماوية عما جاءت من أجله، ولقد وجدت أن ما زعموه في الإسلام عيوبا هو في الحقيقة مزايا، وما ظنوه متناقضات هي حكم فصلت لأولي الألباب، وأن ما عابوه على الإسلام كان علاجا للبشرية التي طالما تردت في بيداء الظلمات حتى أخرجها الإسلام إلى النور، فأخذ الإسلام بلبي وقبض على لبابتي (عقلي)، ومن واضح أحكامه ونور تعاليمه وصدق رسالته حملت على الإيمان به

والتصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وانقدت إليه دون إكراه أو ضغط أو إغراء، ولكني آمنت به عن تعقل وتفكر ودراسة وتمحيص ومراجعة، وبها كلها رجحت كفة الإسلام وشالت كفة سواه، " ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب (١) " " ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد (٢).

---

(١) سورة آل عمران الآية الثانية.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٩٤.